

١٩٥٤

مكتبة نوبل

ارنست همنغواي ولاتزال الشمس تشرق

ترجمة: د. بدیع حقی

مكتبة نوبل



Author: Ernest Hemingway
Title : The Sun Also Rises
Translator: Badi Haqi
Al- Mada : P. C.

اسم المؤلف : ارنست همنغواي
عنوان الكتاب : ولاتزال الشمس تشرق
توجمة : د. بدیع حقی
الناشر : دار المدى للثقافة والنشر

First Edition 1998
Copyright ©

الطبعة الأولى : ١٩٩٨
الحقوق محفوظة

دار مآل للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٧٧٧٢٠١٩ - ٧٧٧٦٨٦٤ - فاكس : ٧٧٧٣٩٩٢
بيروت - لبنان صندوق بريد : ٣١٨١ - ١١
فاكس : ٩٦١١ - ٤٢٦٢٥٢

Al Mada : Publishing Company F.K.A.

Nicosia - Cyprus , P.O.Box . : 7025

Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or

7366 . Tel: 7776864 , Fax: 7773992

P.O. Box : 11 - 3181 , Beirut - Lebanon,

Fax : 9611- 426252

الجزء الأول

الفصل الأول

لقد اتفق لـ « روبرت كون » أن يضحى ، ذات مرة ، بطلاً للملاكمة ، من وزن المتوسط ، في جامعة (برنستون) . ولا يذهبن بكم الظن الى أنني أُؤخذ بلقب بطل ملاكمة ، ولكن الأمر بالنسبة لـ « كون » كان ذا شأن كبير .

ولم يكن « كون » يحب الملاكمة ، كان ينفر منها في الواقع ، ولكنه تعلمها بمشقة ، وحذقها الحذق كله ، ليساقق الشعور بالنقص والخجل الذي كان يجاذبه وهو يعامل في جامعة (برنستون) على أنه يهودي .

كان مما يسرّي عنه أن يعلم أنه قادر على التطويح بكل من يتصدى له ، بوقاحة . وإذ كان فتى خجولاً لطيفاً فإنه لم يكن يعتمد الى الملاكمة ، إلا في مدرسة الألعاب الرياضية .

وكان « كون » ألمع تلاميذ « سبيدر كيللي » ، وكان « سبيدر كيللي » يوصي فتيانته بأن يلاكموا كما لو كانوا من وزن الريشة دون النظر الى وزنهم سواء أكان مئة وخمس لبرات أو مئتين وخمس لبرات ، وكان هذا النهج يبدو ملائماً لـ « كون » ، فقد كان سريع الحركة . وكان ، من الطيبة ، بحيث أغرى « سبيدر » بحمله على ملاكمة أشخاص أقوى منه بكثير ، واستتبع ذلك ، أن أنفه أضحي مفطحاً دوماً .

ولم يخلص إليه من هذا كله سوى شعور غريب بالرضا وبأن أنفه أصبح ، دون ريب ، أكثر وسامة .

وفي السنة الأخيرة من دراسته في (برنستون) عكف على المطالعة واضطر الى وضع نظارة لعينييه . بيد أنني لم ألتق ، البتة ، بشخص من رفاق صفه يذكره ، ولم يكن ثمة أحد يتذكر بأنه كان بطل الملاكمة من وزن المتوسط .

إنني أخذّر ، دوماً ، كل الأشخاص ذوي الطوية السليمة البسطاء . لاسيما حين يكون ما أثير عنهم من قصص قائماً ماثلاً . وقد كنت أشك ، دوماً ، في أن « روبرت كون » كان بطل ملاكمة ، من وزن المتوسط ، فلعل جواداً قد مشى فوق وجهه فأصابه ، ولعل أمه قد خافت - وهي حامل به - أو شاهدت شيئاً ما . أو لعله قد اصطدم بشيء ، وهو طفل صغير ، ولكنني علمت ، مؤخراً ، من شخص استجلى حقيقة الأمر من « سبيدر كيللي » ، فإذا به « سبيدر كيللي » لا يكتفي بتذكر « كون » وحسب ، بل جعل يستفهم عما آلت إليه حاله .

وكان « روبرت كون » ينتسب الى أسرة من أغنى الأسر اليهودية في (نيويورك) وينتمي عن طريق أمه الى أسرة من أقدم هذه الأسر .

وفي المدرسة العسكرية ، حيث أعدّ امتحانات الانتساب الى (برنستون) ، وقام خير قيام بدوره في الجناح الخلفي لفريق كرة القدم ، لم يكن هناك أحد يشير الى العرق الذي تحدّر منه ، فلم يشعره أي إنسان بأنه يهودي ، وبأنه يختلف ، بالتالي ، عن الآخرين ، حتى أقبل اليوم الذي التحق فيه بجامعة (برنستون) . وكان فتى لطيفاً ودوداً ، كثير الخجل ، وألمّ به غمٌ كبير ، وكانت الملاكمة ردّ الفعل لديه .

وخرج من (برنستون) بشعور مضمّن بواقع حاله كما خرج بأنف مفلطح . وانساق الى الزواج ، فبنى بأول فتاة كانت لطيفة معه . وظل زوجاً مدة خمس سنين ، ورزق ثلاثة أولاد . وقد خسر جزءاً كبيراً من الخمسين ألف دولار التي ورثها عن أبيه (فإن بقية الثروة آلت الى أمه) واكتسب قسوةً مقبّية ، نتيجة للآلام التي لازمت زواجه بامرأة ثرية . وفي الوقت الذي اعترم

أن يترك هذه المرأة ، بادرت هي بالهرب مع رسام . وإذا كان يفكر ، خلال أشهر عديدة في هجر زوجته ، دون أن يعتمد الى ذلك ، متصوراً أن حرمانه إياها من صحبته سيكون قاسياً عليها ، فقد كان هربها مفاجأة مريحة له .

ولما تم الطلاق بينهما ، سافر « روبرت كون » الى (كاليفورنيا) ووقع ، ثمة ، على جماعة من الأدباء . وإذا كان قد تبقى لديه شيء من الخمسين ألف دولار فإنه لم يتأخر في إمداد مجلة فنية بماله .

وقد ابتدأت المجلة ، بالظهور في (كارمل) من (كاليفورنيا) وانتهت في (بروفنستون) من ولاية (ماساشوزيتس) .

وفي هذه الفترة التي كان يعتبر فيها « كون » مالكا ليس غير ، وكان اسمه يرد في الصفحة الأولى ، كعضو في اللجنة الاستشارية ، أضحى رئيس التحرير الأوحده ، وكأن المال يخصه وحده ، كما اكتشف أنه مشغوف بالسيطرة التي يتيحها له لقب رئيس التحرير .

وتألم « كون » حين وافى اليوم الذي أضحت فيه مجلته مكلفة كثيراً . واضطر الى التخلي عنها .

ومع ذلك ، ففي ذلك الوقت كانت تشغله أشياء أخرى . لقد استحوذت على لبه سيدة كانت تأمل ، بفضل المجلة ، أن تصل الى الشهرة ، وكانت ذات حيوية فياضة .

ولم يترك « كون » أي فرصة للظفر بها ، وكان يعتقد ، الى ذلك ، بأنه قد أحبها . ولما رأت السيدة أن أمر المجلة لن يطول ، اضطغنت قليلاً ، على « كون » وفكرت في أنه من الأفضل أن تنتفع بما تبقى ، مادام لديه شيء ، يمكن الانتفاع منه ، فألخت عليه بأن يسافر الى (أوربا) حيث قد يتاح له أن يمارس الكتابة .

وذهبا الى (أوربا) - حيث نشأت السيدة - ومكثا هناك ثلاث سنين ، وفي خلال هذه السنين الثلاث - مضت الأولى منها في السفر والأخريان في باريس - عقد « روبرت كون » أواصر الصداقة مع شخصين « برادوكس » وأنا .

وكان «برادوكس» صديقه الأدبي ، وكنت أنا صديقه في لعبة (التنس) .
واكتشفت السيدة التي كانت تستأثر به - وكانت تدعى «فرانسيس» -
في نهاية السنة أن سحرها يتلاشى . فانقلب موقفها من «روبرت» ، من
الاستئثار المهمل الممزوج بالاستغلال ، الى التصميم الراسخ على أن تحمله
على التزوج بها . وفي غضون ذلك ، كانت أم «روبرت» قد خصصت لابنها
ثلاثمئة دولار راتباً شهرياً له . وأحسب أن بصره لم يطمح ، خلال سنتين
ونصف ، الى امرأة غيرها . لقد كان سعيداً ، الى حد ما ، فيما عدا أنه كان
يؤثر - ككثير ممن يعيشون في أوروبا - أن يقيم في أمريكا .

وقد ألقى لديه موهبة في الكتابة ، فكتب رواية ، ولم تكن هذه الرواية ،
في الحق ، رديئة بالقدر الذي زعمه النقاد فيما بعد . غير أنها لم تكن ، على
أي حال ، رواية جيدة .

وقد قرأ كثيراً من الكتب ، وشغف بالبريدج ولعبة التنس ولاكم في
مدرسة رياضية في الحي .

ولاحظتُ ، لأول مرة ، مسلك السيدة منه ، ذات مساء تناولنا فيه نحن
الثلاثة طعام العشاء ، في مطعم «لافونو» ثم ذهبنا الى مقهى (فرساي) نشرب
القهوة . ولما احتسينا كؤوساً عديدة من الخمر ، بعد ارتشافنا القهوة ،
أفصحتُ عن رغبتي في العودة ، وكان «كون» قد تحدث عما إذا كان في
وسعنا أن نقضي كلانا نهاية الأسبوع في مكان ما . فقد كان يريد أن يترك
المدينة ويقوم برحلة طويلة ، مشياً على الأقدام ، فاقترحت أن نستقل الطائرة
الى (ستراسبورغ) ، ونسعى ماشيين بعد ذلك ، صُعداً الى (سانت أوديل) أو
الى مكان آخر في (الأنزاس) ، وقلت :

- أعرف فتاة في (ستراسبورغ) ، تستطيع أن تتيح لنا بصحبتها زيارة
المدينة .

وأحسست بركلة قدم ، تحت الطاولة ، وحسبت أنني تلقيتها مصادفة ،
وأردفت قائلاً :

- إنها هناك ، منذ سنتين ، وإنها لتعرف كل ما ينبغي أن نراه في المدينة ، إنها فتاة مدهشة .

وتلقيت ركلة أخرى ، تحت الطاولة . ولما حدرتُ طرفي الى «فرانسييس» حظية «روبرت» رأيت حنكها بارزاً ووجهها واشياً بالقسوة ، واستدركت قائلاً :

- ومع هذا فعلام نذهب الى (ستراسبورغ) ؟ إن في مكنتنا أن نمضي الى (بروج) أو الى الاردين .

وبدا «كون» كأنما قد سُرّي عنه ، ولم أ تلقَ ركلة أخرى . وتمنيت لهما مساءً طيباً وتهيات للذهاب . وأعلن «كون» عن رغبته في شراء جريدة وأنه سيرافقني حتى منعطف الشارع . وقال لي :

- يا إلهي ، لماذا أشرت في كلامك ، الى تلك الفتاة في (ستراسبورغ) ؟ ألم ترَ الى «فرانسييس» ؟

- لا . كيف يخطر لي ذلك ؟ ما الذي يمكن أن يكرث «فرانسييس» في أن أعرف أمريكية في (ستراسبورغ) ؟

- أوه . سيان ، هذه الفتاة أو أي امرأة غيرها ، فلن أستطيع أن أذهب ، هذا كل ما في الأمر .

- لا تكن أحمق .

- إنك لا تعرف «فرنسييس» . إنها امرأة ، مهما تكن . ألم تلاحظ كيف قطّب وجهها .

وقلت :

- حسناً ، لنذهب الى (سنليس) .

- لا تستأمني .

- لا ، لم أستأ . إن (سنليس) جيدة وفي استطاعتنا أن ننحدر الى (گران

سيرف) . سوف نتنزه في الغابة ، ثم ننكفئ ، على مهل ، الى البيت .

- حسناً ، إن هذا الجيد .

وقلت :

- إذن ، الى الغد ، في ملعب التنس .

وأجاب :

- طاب مساؤك يا « جاك » .

واتجه نحو المقهى ، وقلت له :

- لقد نسيت أن تأخذ الجريدة .

- حقاً .

ورافقني حتى (الكشك) في منعطف الشارع .

- هل استأت مني يا « جاك » ؟

والتفت الى الخلف ، والجريدة في يده .

وأجبت :

- لا... ممّ أستاذ ؟

وقال :

- إلى اللقاء ، في ملعب التنس .

ونظرت إليه وهو يقفل عائداً الى المقهى ، وفي يده الجريدة . وبدأ لي .

آنذاك ، أنه محبب الى نفسي ، وأن حياته معها ، على التحقيق ، ليست ،

دوماً ، بهيجة .

الفصل الثاني

في ذلك الشتاء سافر «روبرت كون» الى أمريكا ، مع روايته التي قبلها ناشر جيد بعض الشيء ، وعلمت أن رحلته هذه قد أثارت شجاراً عنيفاً . وأحسب أن «فرانسيس» قد خسرت آنذاك ، فإن كثيراً من النساء كن لطيفات معه في (نيويورك) ... وحين آب من هناك ، كان قد تغير كل التغير ، فقد أضحي أكثر حماسة لأمريكا مما سبق ، ولم يعد بسيطاً جداً ، لطيفاً جداً ، كما كان ، من قبل . فقد ذهب ناشره في الثناء عليه أكثر مما ينبغي . فأدار رأسه هذا الإطراء . ثم ان كثيراً من النساء جهدن ، ما وسعهن ذلك ، في أن يحطنه بلطفهن ، فتبدلت آفاق حياته كلها ، فقد كان أفق حياته قد تحدد بزواجه أشد التحديد خلال أربع سنين ، وخلال ثلاث سنين أو أربع ، لم يعرف سوى «فرانسيس» . وإنني لوائثق بأنه لم يعرف ، عمره كله ، ما هو الحب .

لقد تزوج ، حين تخلص من الظروف المضنية التي عاشها في الجامعة ، وقد ظفرت به «فرانسيس» في الوقت الذي تكشف لديه أنه لم يكن كل شيء بالنسبة الى زوجته الأولى .

ولم يكن ، حينذاك ، عاشقاً ولكنه ألفى أن له بعض التأثير في النساء ، وأن تعلق امرأة به ورغبتها في العيش معه ليسا معجزة إلهية وحسب . وكان تبدله هذا قد تم بصورة لا تجعل صحبته ممتعة جداً . أضف الى ذلك ، أنه قد اتمسق له أن يلعب البريدج بأرقام عالية بالنسبة إليه ، مع رفاهه ..

النيويوركيين الذين كانوا يقامرون بمبالغ ضخمة ، فحالفه الحظ وربح مئات حمة من الدولارات ، مما حمله على الزهو بنفسه في ميدان لعبة البريدج ، : غالباً بأن الإنسان يستطيع - إن ألجأته الضرورة - أن يتكسب من

وكان ثمة شيء آخر ، فقد قرأ « و . ه . هودسون » . ويمكن أن يُظن بأن هذه القراءة مشغلةً بريئة ، ولكن « كون » قرأ ثم قرأ (الأرض الأرجوانية) . غير أن (الأرض الأرجوانية) كتاب مفرج جداً ، حين تتم قراءته ، متأخرة في العمر ، ففيه تترادف المغامرات الغرامية الرائعة الخيالية ، يقوم بها (جنتلمان) كامل ، انكليزي ، في بلد رومانتيكي صرف ، استوفى حظه من التزويق .

إن من يتناول هذا الكتاب ، في سن الرابعة والثلاثين ، كرائد للحياة ، يعرض نفسه تقريباً لنفس الخطر الذي يعرض لمن يدخل في نفس السن الى (الوال ستريت) ، قادماً رأساً من دير فرنسي ومزوداً بمجموعة كاملة من مؤلفات « الجي » العملية .

وقد تناول « كون » ، كما يبدو لي ، كل كلمة من كتاب (الأرض الأرجوانية) على حرفيتها ، كما كان الأمر فيما لو عمد الى الأخذ بتقرير « ر . ج . دون » . ومع ذلك فلا يذهب الظن في شأنه بعيداً . فقد كان يُبدي بعض التحفظات . بيد أن الكتاب بمجموعه كان يترأى له سديداً . وكان هذا كله كافياً ليحمله على الانطلاق من قيوده . ولم أدرك الى أي مدى قد انساق في انطلاقه إلا يوم قدم فيه الى مكتبي . وقلت له :

- هالو « روبرت » هل جئت تسليني ؟

وسألني :

- أتود أن تذهب الى أمريكا الجنوبية يا « جاك » ؟

- كلا .

- لماذا ؟

- لا أدري ، فلم أرغب في الذهاب إليها قط ، ثم إن السفر إليها كثير التكاليف . وبعد ، فإن في وسعك أن ترى في باريس كل من تود أن تراه من الأمريكيين الجنوبيين .

- إنهم ليسوا بأمريكيين حقيقيين .

- ولكنهم يتراءون لي حقيقيين تماماً...

وكنت بسبيل إرسال بريدي الأسبوعي من الأخبار ببريد قاطرة - باخرة ، ولم أكن قد كتبت سوى نصف هذه الأخبار .

وسألته :

- هل ألممت بخبر فضيحة ما ؟

- كلا .

- ولا بأي خبر من أخبار الطلاق ، بين الطبقة الراقية من معارفك ؟

- كلا . اصغ إليّ يا جاك . إن تحملت عنك نفقات السفر كلها فهل

تصحبني الى أمريكا الجنوبية ؟

- ولمّ تخصني أنا ؟

- لأنك تحذق اللغة الاسبانية . ثم إن رحلتنا معاً ، تضحي أكثر إمتاعاً .

قلت :

- لا . إنني أحب هذا البلد ، وأنوي الذهاب الى « اسبانيا » في الصيف .

وقال « كون » :

- لقد تشوّقت ، عمري كله ، الى القيام برحلة كهذه (وجلس) وسأضحي

شيخاً قبل أن يكون في وسعي تحقيقها .

قلت :

- لا تكن أبله . إن في ميسورك أن تذهب الى أي مكان تشاء ، فلديك

المال الوفير .

- أعلم ذلك . ولكن ليس في ميسوري أن أشرع في السفر .

وقلت :

- لا تشغل نفسك بذلك . إن البلاد كلها تتشابه ، على الجملة ، في السينما .

بيد أنني تألمت له ، فقد بدت عليه أمارات التأثير العميق . وقال :
- ليس في مقدوري أن أسيع التفكير بأن حياتي تمضي بسرعة ، وبأنني ، في الواقع ، لا أعيشها أبداً .

- لا يعيش أي إنسان حياته كلها ، فيما عدا مصارعي الثيران .
- إن مصارعي الثيران ، لا يثيرون ، في شيء ، اهتمامي . إن حياتهم غير عادية ، أود أن أذهب إلى الريف ، في أمريكا الجنوبية . إننا نستطيع القيام برحلة مذهشة...

- ألم يخطر لبالك أن تذهب إلى الممتلكات الانكليزية في أفريقية ، بغية الصيد فيها ؟

- لا . لا أحب هذا...
- إنه مكان أود أن أذهب إليه معك .
- لا ، إنه لا يثير اهتمامي...

- ذلك لأنك لم تقرأ عنه أي كتاب... ويتعين عليك أن تقرأ كتاباً من تلك الكتب الحافلة بقصص الحب التي تتحدث عن أميرات قسيمات متألقات السواد .

- أريد أن أذهب إلى أمريكا الجنوبية .
لقد كان له خلق اليهودي المطبوع على العناد .
- لننزل ونشرب شيئاً ما .
- ألا تعمل ؟
- لا .

ونزلنا إلى مقهى في الطابق السفلي ، فقد كنت أكتشف أن ذلك أجدى وسيلة للتخلص من الأصدقاء . فبعد أن تشرب فنجانك ، ليس عليك سوى أن تقول «أوه ، والآن يتعين علي أن أصعد ، فلدي برقيات يجب أن أبعث بها» .

وبذلك يتم لك ما تشاء . إنه لمن الضروري أن يتوفر لمن يزاولون مهنة الصحافة ، مخرج لبق كهذا ، اذ يتطلب مبدأ اساسى من مبادئ خلق هذه المهنة ، أن تتظاهر بأن ليس ثمة عمل يشغلك .

وصفوة القول ، إننا هبطنا الى المشرب ، وشربنا ويسكي مع الصودا . وكان «كون» يراعي الزجاجات المصفوفة على رفوفها ، وقال :
- إنه مكان جيد .

وقلت موافقاً :

- إن فيه مقادير وافية من الشراب .

- اصغ إلي يا «جاك» (وانحنى على خوان المشرب) . ألم يخامرك الشعور مرة ، بأن حياتك تمضي ، وأنت لا تفيد منها ؟ ألم يخطر لبالك أنك عشت من الأعوام ما يقارب نصف الزمن الذي ينبغي أن تعيشه ؟
- بلى . أحياناً .

- ألا تدري ، أننا سوف نموت بعد خمسة وثلاثين عاماً تقريباً ؟

- وأي بأس في ذلك يا «روبرت» ، أي بأس في ذلك ؟

- أتكلم جداً .

قلت :

- إنه شيء لا يشغلني أبداً .

- ولكن هذا ، لابد ، واقع .

- كان هذا يحرك في نفسي ، من قبل ، بعض القلق ، أما الآن ، فقد

انتهى أمره فلا يكرثني البتة .

- حسناً ، إنني أريد الذهاب الى أمريكا الجنوبية .

- اسمع يا «روبرت» إن تنقلك بين البلاد ، غير مُجد فقد جربت ذلك ،

وليس سفرك من مكان الى آخر بمتيح لك الانعتاق من ذاتك ، إنه لا يؤتي أي نتيجة .

- ولكنك لم تذهب الى أمريكا الجنوبية أبداً .

- ليأخذ الجحيم أمريكتك الجنوبية ، إنك إن ذهبت إليها ، بنفسيتك التي تحملها الآن ، فإن الأمر يظل ، كما هو عليه ، دون تغيير ، لم لا تعيش حياتك في (باريس) ؟

- لقد اجتويت (باريس) وقرفت من (الحي اللاتيني) .

- ابتعدْ عن (الحي) ، تجول قليلاً ، وحدك ، وانظر بعد ذلك ، الى ما سيطراً على نفسك من جديد .

- لن يطرأ أي شيء . فقد تجولت ذات مرة ، وحدي ، ليلاً ، فلم يحدث لي شيء سوى أن شرطي دراجة استوقفني وطلب الاطلاع على أوراق هويتي .

- ألم تكن المدينة جميلة في الليل ؟

- لا أحب (باريس) .

وهكذا تجد نفسك معه في المكان ذاته الذي انطلقت منه . وأخذتني الشفقة عليه . ولكن لا طائل منه ، في هذا الأمر ، لأنك تصطدم لديه رأساً بفكرتين تشبث بهما : أولا هما أن أمريكا الجنوبية سوف تشفيه ، وثانيتهما أنه لا يحب (باريس) . وقد أخذ الفكرة الأولى عن كتاب وأما الفكرة الثانية فقد استمدتها من كتاب أيضاً .

وقلت :

- حسناً ، عليّ أن أصعد ، لديّ عدة برقيات يجب إرسالها .

- أحقاً ينبغي أن تذهب ؟

- أجل ، يجب أن أرسل هذه البرقيات .

- هل يضايقك أن أصعد معك وأجلس في مكتبك ؟

- لا ، لا ، تعال .

وجلس في الغرفة المطلّة على الشارع ، وشرع في القراءة ، وكنت أنا ورئيس التحرير والناشر ، نشغل على نحو موصول خلال ساعتين . وانتقيت بعدئذ نسخاً مختلفة من الرسائل فوقعتها ووضعتها في ظرفين كبيرين من ورق (المانيلا) . ورننت الجرس للخادم ليحملها الى محطة (سان لازار) . ودخلت

الغرفة الأخرى فوجدت « روبرت » راقداً فوق الكرسي الكبير ، وكان مستغرقاً في النوم ، ورأسه على ساعديه . وشقّ عليّ أن أوقظه . ولكنني كنت أريد إغلاق غرفة مكتبي لأنصرف .

ووضعت يدي على كتفه وتمتمت : « روبرت » ، فحرك رأسه وغمغم وهو يضغط رأسه ، بشدة على ساعديه .

- لا أستطيع أن أفعل ذلك ، لا شيء ، يحملني على أن أفعله .

وصعد طرفه مبتسماً وطرف بعينه ، وقال :

- هل كنت أتكلم بصوت عال ؟

- أجل كنت تتكلم عن شيء لم يكن واضحاً كل الوضوح .

- رباه ، أي حلم بشع !

- هل كانت الآلة الكاتبة هي التي أغرتك بالنوم ؟

- أظن ذلك ، لم أنم ليلة أمس .

- وماذا كنت تفعل ؟

- كنت أتكلم .

واستطعت أن أتمثله ، فلدي هذه العادة البغيضة . أتصور مشاهد غرفة نوم أصدقائي .

وذهبنا لنتناول (الأبرتيف) في مقهى (النابوليتان) ونشاهد جموع الناس يغصُّ بهم الشارع في المساء .

الفصل الثالث

كانت أمسية الربيع حارة . ومكثت ، بعد أن غادرني « روبرت » جالساً الى طاولة ، على رصيف مقهى (النابوليتان) وكنت أرافق الليل وهو يرخي سدوله ، والإعلانات الكهربائية وهي تتوأمض ، وإشارات السير الحمر والخضر ، وجموع السابلة ، وجياد العربات وهي تخبّ الى جانب الصفوف المتراسة من سيارات (التاكسي) والبغايا اللاتي كن يسعين فرادى أو أزواجاً ، باحثات عن عشاء الليلة . ولاحظت فتاة وسيمة جعلت تخطر أمام طاولتي . ورأيتهما تبتعد ماضية في الشارع ، ثم تختفي عن ناظري ، وأخذت أتابع بنظري فتاة أخرى ، ثم لمحت الأولى عائدة ، وخطرت مرة أخرى ، أمامي ، ولما تلاقت نظراتنا ، تقدمت فاتخذت مجلسها الى طاولتي ، وسعى النادل إلينا فقلت لها :

- حسناً ، وماذا تشربين ؟

- كأس (برنود) .

- ليس بجيد للفتيات الصغيرات .

- فتيات صغيرات ؟ إيه يا غلام ، كأس (برنود) .

- آتي بكأس (برنود) لي أيضاً .

وسألتنني :

- وبعد ، أذهاب أنت الى حفلة ؟

- طبعاً ، وأنت ؟

- لا أدري ، فليس في ميسورك أن تلم بكل شيء في هذه المدينة .

- هل تحبين (باريس) ؟

- كلا .

- لم لا تغادرينها الى بلد آخر ؟

- ليس ثمَّ مكان آخر أذهب إليه .

- حسناً ، إنك لسعيدة .

- سعيدة ؟ الى الجحيم...

إن (البرنود) شراب ضارب للخضرة مقلد للأبسننت ، فإذا أضفت إليه الماء ، أصبح لونه لبنياً . إن له طعم عرق السوس ، وإنه ليهب لك ما تهب لذعة السوط ، بيد أن الانحطاط الذي يلي شربه هو أبعد في الأثر . وكنا نشرب جالسين وكانت الفتاة تبدو مكتئبة ، وقلت :

- وأخيراً ، أفلا تريدان أن تدفعي لي عشائي ؟

وأوجزت شفتها ابتسامةً . وعرفت لم كانت تتعمد ألا تضحك ، فلما أطبقت فمها ، بدت جميلة ، بعض الشيء... ودفعت ثمن المشروب ، ثم انطلقنا الى الشارع . وناديت مركبة ، فحف حوذيتها وصقها أمام الرصيف .

وأخذت المركبة ، وهي تسعى بنا ، على مهل ، تهدهدنا بلطف ، وصعدت بنا شارع (الأوبرا) أمام أبواب المخازن الموصدة ذات الواجهات المضيئة ، وكان الشارع العريض المتألق مقفراً تقريباً ، ومرت المركبة أمام مكاتب (النيويورك هيرالد) التي امتلأت واجهاتها بالساعات الكبيرة وسألتنني :

- لأي شيء تستعمل هذه الساعات الكبيرة ؟

- إنها تشير الى الوقت في مختلف أنحاء أمريكا .

- لا تستهزئ بي .

وتركنا الشارع العريض لنمضي في شارع (البيراميد) ودخلنا (التويلري)

من باب معتم ، بعد أن جزنا زحمة شارع (ريفولي) والتصقت بي ، فطوّقت جسمها بذراعي . وكانت تحدّق إلي ، متوقّعة أن أقبلها ، ومدّت يدها فلمستني فنحّيت يدها .

- دعي هذا .

- ما بك ؟ أريض أنت ؟^(١)

- أجل .

- كل الناس مرضى ، أنا مريضة أيضاً .

وخرجنا من (التويلري) في غمرة الأضواء . وعبرنا جسراً على (السين) ثم ذهبنا صُعداً في شارع (سان بير) وقالت :

- كان عليك ألا تشرب (البرنود) مادمت مريضاً .

- وأنتِ أيضاً .

- أوه ، أنا ، سيان عندي ، سيان عند أي امرأة .

- ما اسمك ؟

- « جورجيت » . وأنت ؟

- « يعقوب » .

- إنه اسم فلاندي .

- وأمريكي أيضاً .

- ألسنت فلاندياً ؟

- لا أنا أمريكي .

- حسناً ، فأنا أكره الفلاننديين .

ووصلنا الى المطعم . وطلبت الى الحوذي أن يتوقف ، ونزلنا فلم يعجب مرأى المكان « جورجيت » .

- ليس هذا المطعم بمكان ذي شأن .

(١) تعني بالمرض . هنا العناية .

قلت :

- لا ، لعلك كنت تودين الذهاب الى مطعم (فوايو) لم لم نستبق المركبة ، تقلنا الى هناك .

لقد استصحبته ، تغريني فكرة عاطفية مبهمة ، بأنه من الممتع أن أتناول الطعام مع إنسان ، وقد مضى زمن طويل ، لم أتناول الطعام مع بغي ، وأنسيت كم يكون هذا مزعجاً .

ودخلنا المطعم ، ومررنا أمام السيدة « لافينيو » القائمة خلف الصندوق ، واتخذنا مجلسنا في حجرة صغيرة . وتطلقت أسارير « جورجيت » قليلاً ، وهي تأكل ، وقالت :

- لا بأس بهذا المطعم . إنه ليس بفخم ولكن الطعام فيه جيد .

- إنه أفضل من الطعام في (لييج) .

- تقصد في « بروكسل » .

وشربنا زجاجة أخرى ، وروت « جورجيت » نكتة ، وابتسمت فتجلت كل أسنانها الرديئة ، وقرعنا كؤوسنا ، وقالت :

- لست بإنسان سيء ، ومن المؤسف أن تكون مريضاً . إننا نتفاهم

جيداً ، بأي سبب مرضت ؟

- لقد جرحت في الحرب .

- آه ، يا لهذه الحرب القذرة .

ولو انفسح لنا الوقت . لكننا مضينا على الأرجح ، في الكلام . وقد تحدثنا عن الحرب ، ووافقنا على أنها بلاء منيت به الحضارة الإنسانية ، وأنه كان من الأجدي تجنبها . ولم أكن أجد في التحدث إليها متعة . ولكن ، في هذه اللحظة سمعت صوتاً يناديني من الحجرة المجاورة .

- « بارنس » إيه « بارنس » . « يعقوب بارنس » .

وفسرت لها :

- إنه أحد أصدقائي يناديني .

- وخرجت...

كان هناك . «برادوكس» جالساً الى مائدة كبيرة ، وحولها حلقة من :
« كون » و«فرانسييس كلين» و«السيدة برادوكس» وأشخاص آخرين لا
أعرفهم ، وسألني «برادوكس» :

- أجل... المراقص... ألا تدري أننا نحن أحييناها .

وقالت «فرنسييس» من طرف المائدة :

- يجب أن تأتي يا «جاك» ، سنذهب جميعاً الى المرقص .

وكانت مشيقة القوام . وجعلت تبتسم .

وقال «برادوكس» :

- طبعاً . سيأتي ، تعال يا «بارنس» واشرب القهوة معنا .

- حسناً .

وقالت السيدة «برادوكس» ضاحكة :

- هلا قدمت مع صديقتك :

وكانت السيدة «برادوكس» كندية . وكانت تتحلى بتلك الطلاقة

الاجتماعية الساحرة التي يتسم بها نساء بلدها .

قلت :

- حسناً . سنأتي .

وانقلبت عائداً الى الحجرة الصغيرة ، وسألتنى «جورجيت» :

- من هم أصدقاؤك هؤلاء ؟

- إنهم كتاب وفنانون .

- إنهم كثيرون ، على هذا الجانب من النهر .

- كثيرون جداً .

- أجد ذلك أيضاً . ومع هذا . فإن بعضهم يربح مالاً جماً .

- أوه . أجل .

وانتهينا من تناول الطعام والشراب وقلت :

- لنذهب . لنشرب القهوة مع الآخرين .

وفتحت مشبنتها^(١) ، ومسحت شفتيها بالصباغ الأحمر ، وأصلحت وضع
قبعتها وقالت :
- حسناً .

ودخلنا الحجرة المأوى بالناس . ونهض « برادوكس » ورجال المائدة
وقلت :

- اسمحوا لي بأن أعرفكم بخطيبتى الأنسة « جورجيت لوبلان » وافترت
شفنا « جورجيت عن ابتسامتها الرائعة ، وصافحنا الجميع . وسألته السيدة
« برادوكس » :

- هل أنت قريبة « جورجيت لوبلان » المغنية ؟
وأجابت « جورجيت » :
- لا أعرفها .

وأضافت السيدة « برادوكس » بلهجة ودية :
- ولكنك تحملين اللقب نفسه .
وأجابت « جورجيت » :

- لا ، ليس بصحيح . إنني أدعى « هوبان » .
- ولكن السيد « بارنس » قدمك على أنك الأنسة « لوبلان » ، إنني واثقة
من ذلك .

قالت السيدة « برادوكس » وهي تلهج بالفرنسية في تدفق ، وطلاقة ،
دون أن تخامرها فكرة تعريض بشيء .
وأجابت « جورجيت » :
- إنه أبله .

وقالت السيدة « برادوكس » :

(١) المشبنة : كيس تضع فيه المرأة مرآتها وغيرها .

- أوه ، إنها مزحة ليس غير .

وقالت « جورجيت » :

- أجل ، فلنضحك لها .

وخاطبت السيدة « برادوكس » زوجها ، بصوت مرتفع النبرة ، من طرف

المائدة :

- هنري! لقد قدّم السيد « بارنس » خطيبته باسم « جورجيت لوبلان »

في حين أنها تدعى « هوبان » .

- بلى ، طبعاً ، يا عزيزتي ، إنها الآنسة « هوبان » إنني أعرفها منذ

الأزل .

- وهتفت « فرنسيس كلين » التي كانت تنطق بالفرنسية ، في سرعة ،

دون أن تتظاهر بمثل اعتداد وعجب « السيدة برادوكس » التي كانت تجد

كلامها فرنسي اللهجة حقاً :

- هل تقيمين في باريس منذ زمن بعيد ؟ وهل أنت مسرورة بالإقامة

فيها ؟ أنت تعبدين باريس ، أليس كذلك ؟

والتفتت « جورجيت » نحوي وقالت :

- من هذه ؟ هل يجب أن أكلمها ؟

ثم اتجهت نحو « فرانسيس » وكانت جالسة تبتسم ، ويدها متشابكتان

ورأسها متكئ على عنقها الأغيد ، كانت تزعم شفيتها ، توشك أن تستأنف

الكلام .

- لا ، لا أحب (باريس) . إنها غالية وقذرة .

- حقاً ؟ . أنا أجدها نظيفة بشكل خارق . إنها من أنظف مدن أوروبا .

- إنني أجدها قذرة .

- إنه لشيء عجيب! لعله لم يمض زمن طويل على إقامتك هنا .

- لا . أنا هنا . منذ زمن بعيد .

- ومع ذلك . إننا لنجد فيها أناساً جد لطفاء . لا يمكن إنكار ذلك .

والتفتت «جورجيت» إلي وقالت :

- إنهم لطفاء ، أصدقائك .

وكانت «فرانسيس» ثملة قليلاً ، وبدت كأنها ترغب في متابعة الكلام لولا أن القهوة قدمت ، وجاء السيد «لافينيو» بكؤوس المشروبات الروحية . وخرج الجميع ، ميممين شطر المرقص الذي عناه السيد «برادوكس» وزوجته . وكان هذا المحل مرقصاً شعبياً بشارع (مونتانيو - سان جنفييف) . وكانت طبقة العمال في الحي تفد إليه للرقص ، خمس ليال في الأسبوع وكان ينقلب الى ناد للرقص ليلة واحدة في الأسبوع ، ويغلق أبوابه مساء الاثنين . ولما وصلنا إليه ، لم يكن ثمة أحد ، تقريباً ، فيما عدا الشرطي الجالس الى جانب الباب ، وزوجة صاحب المحل التي اتخذت مجلسها خلف المشرب التوتياي ، وصاحب المحل نفسه . ووصلنا ، فيما كانت ابنة صاحب المحل تهبط من الدرج ، وكان ثمة طاولات مستطيلة وموائد ممتدة في الردهة . وفي ركن قصي كانت توجد حلبة الرقص .

وقالت السيدة «برادوكس» :

- تمنيت لو أن الجميع أتى مبكراً أكثر .

وأقبلت ابنة صاحب المحل ، واستوضحت عما نريد أن نشربه واعتلى صاحب المحل مقعداً كبيراً الى جانب حلبة الرقص وشرع يعزف على (الأكورديون) ، وكان يحمل سواراً من الأجراس يلتف حول كعبه ، وكان يضبط الإيقاع بقدمه ، وبدأ الجميع يرقصون . وكان الجو حاراً ، فلما انتهت الرقصة ، غرقنا في عرقنا المنتضج .

وقالت «جورجيت» :

- يا إلهي ، أي مرقص يعرق فيه المرء !

- الجو حار .

- حار يا إلهي .

- انزعي قبعتك .

- إنها فكرة حسنة .

ودعا أحدهم «جورجيت» الى الرقص ، وانقلبت الى المشرب ، وكان الجو حاراً حقاً ، وكانت موسيقى (الأكورديون) في الليل الحار عذبة . واحتسيت قدحاً من البيرة ، وأنا واقف في الوصيد ، أستقبل النسيم المنعش المهيمن في الشارع ، وانحدرت سيارتا تاكسي ، في الشارع المطمئن ، وتوقفتا أمام المرقص ، واندفع منهما جماعة من الفتيان ، يرتدي بعضهم كنزات ويرتدي بعضهم الآخر قمصاناً بلا أكمام . وكان في ميسوري أن أميز ، في الضوء المنسكب من الباب ، سواعدهم وشعورهم المتموجة الندية النظيفة . وأمعن الشرطي الحارس المنتصب أمام الباب ، النظر إلي وابتسم .

ودخل الفتيان ، ولمحت ، في الضوء ، حين دخلوا ، سواعد بيضاء وشعوراً متموجة ووجوهاً بيضاء . وكانوا يتحدثون ، ويقومون بحركات مصطنعة ، متكلفة . وكانت «بريت» بينهم ، وبدت فاتنة آسرة . غير أنها تراءت منسجمة مع هذه المجموعة .

ولمح أحدهم «جورجيت» وقال :

- لعمرى . إنها مومس حقيقية . سأرقص معها يا «ليت» سترى ذلك .

وقال الأسمر المشيق المدعو «ليت» :

- لا تكن مجنوناً .

وقال ذو الشعر الأشقر المتموج :

- لا يأخذك القلق علي ، يا عزيزي .

مع هذه الزمرة من الفتيان ، كانت «بريت»...

واستشطت غضباً . وفي الواقع ، إن الرجال من هذا النمط ، يثيرون دوماً غضبي . وأنا أعلم أن بعض الناس يعتبرهم ظرفاء . وأن عليك أن تكون معهم متسامحاً ، ومع ذلك ، وددت لو أهاجم على واحد منهم ، أي واحد ، لا شيء ، سوى أن أطأ من ذلك الزهو المتعالي والتكلف الظاهر . غير أنني آثرت الخروج الى الشارع . وشربت قدح بيرة من مشرب الرقص المجاور . ولم تكن البيرة

جيدة . وشربت قذح كونيالك أردأ منها ، لأزيل طعمها من فمي .

ولما عدت الى المرقص ألفيته مزدحمأ ، وأخذ بصري « جورجيت » وهي ترقص مع الفتى الأشقر المشيق ، وكانت عيناه مصوبتين الى السماء وكان رأسه مائلاً الى جانب ، وكان يرقص وهو يهز وركيه الثقيلين . وإما توقفت الموسيقى ، تقدم واحد من الزمرة نفسها ، ودعا « جورجيت » الى الرقص . وقد تداولوا الرقص معها ، وكنت أتوقع أنهم سيرقصون جميعاً ، معها ، كانوا كلهم على هذه الشاكلة .

وجلست الى طاولتي وكان « كون » موجوداً ، ثمّة ، وكانت « فرانسيس » ترقص . وقدمت السيدة « برادوكس » شخصاً وعرفته باسم « روبرت برنتسيس » وكان من (نيويورك) وأقام في (واشنطن) . وكان مايزال في بدايته كروائي وكان يرتضخ لهجة قريبة من اللهجة الانكليزية ، وعرضت عليه أن تتناول معاً مشروباً ما ، فقال :

- شكراً جزيلاً . أنهيت ، الآن ، كأسي .

- يسرني ذلك . شكراً .

ونادينا بنت صاحب المحل ، وتناول كلانا شراباً ملطفاً بالماء وقال لي :

- قيل لي إنك من (كنساس) أليس كذلك ؟

- أجل .

- هل تجد (باريس) مسلية ؟

- أجل .

- حقاً ؟

وكنت ثملاً بعض الشيء ، دون أن يستبد بي السكر . غير أنني كنت

ثملاً الى حد لا أستطيع أن أهيمن فيه على تصرفاتي وقلت :

- أف . أجل . يا إلهي . وأنت ؟

فأجاب :

- أوه ، يا لها من وسيلة ساحرة لاستشارة الغضب . كم أود لو أملك

هذه الموهبة .

ونهضت ، واتجهت نحو الراقصين ، ولحقت بي السيدة «برادوكس»

وقالت لي :

- ينبغي ألا تستاء من «روبرت» إنه طفل ليس غير ، كما تعلم...

وقلت :

- لا لم أستاذ ، بيد أنه يخيل إليّ ، لحظة ، أنني أوشك أن أقيء .

- لقد ظفرت خطيبتك بنجاح كبير .

وأخذت السيدة «برادوكس» تجيل نظرها في الراقصين ، وكانت

«جورجيت» ترقص بين ذراعي الفتى الأسمر المدعو «ليت» .

وقلت :

- أهى نفسها ؟

- على الأرجح .

وتقدم «كون» وقال لي :

- هلم نشرب شيئاً يا «جاك» .

وسعينا الى المشرب .

- ما الأمر ؟ إنك تبدو مشغول البال بشيء .

- لا شيء . إن كل هذا يثير الضيق في نفسي .

واقتربت «بريت» من المشرب .

- هالو! أيها الرفاق .

قلت :

- هالو «بريت»! لمّ لم تسكري بعد ؟

- لا شيء يحملني على السكر . وبعد ، أفلا تقدم كأس براندي مع

الصودا ؟

وظلت واقفة ، وفي يدها الكأس ، وأخذ بصري «روبرت كون» ينظر

إليها ، كان ينظر إليها مثلما ينظر رجل من نحلته الى الأرض الموعودة .

كان « كون » أصغر منها بكثير . ولكن نظرته كانت متلهفة تستحق أن ترتقب وتنتظر .

وكانت « بریت » رفاة الحسن ، رائعة ، وكانت ترتدي كنزة من التريكو ، وتنورة مخططة ، وكان شعرها مرتداً الى الخلف ، وفي تسريحة غلامية^(١) ، فقد كانت تروّج هذه (الموضة) ، وكان إهابها قد سوّي من منحنيات كأنه هيكل زورق سباق ، ولم يكن ثوبها الصوفي يدع أي منحني منه خبيثاً عن عينيك .

قلت :

- أنت في صحبة رائعة يا « بریت » .

- ألا تجدهم لطفاء جداً ؟ وأنت يا عزيزي أين عثرت عليها ؟

- في (النابوليتان) .

- وكانت أمسية مائعة ، أليس كذلك ؟

قلت :

- لا تقدّر بأي ثمن .

وأغرقت « بریت » في الضحك .

- إنها لزلة منك ، إنها لإهانة لنا كلنا ، انظر الى « فرانسيس » هناك ،

والى « جو » .

قالت ذلك ، موجهة نظر « كون » .

- إن هذا يفسد الحرفة .

وتهايفت ضاحكة وقلت :

- أنت زاهدة في الشرب بشكل رائع .

- أجل ، أليس كذلك ؟ لاحظ أنه حين يكون المرء في صحبة أمثال هؤلاء

فإنه يسيغ الشرب في طمأنينة .

- واستأنفت الموسيقى عزفها ، وقال « روبرت كون » :
- هلا رغبت في أن أراقصك هذه الرقصة يا لادي « بريت » ؟
- وابتسمت « بريت » :
- لقد وعدت « يعقوب » بها (وضحكت) . إن لك اسماً مقدساً صرفاً من التوراة يا « جاك » .
- وسأل « كون » :
- ما رأيك في الرقصة المقبلة ؟
- وقالت « بريت » :
- نحن بسبيل الانصراف ، لدينا موعد في (مونمارتر) .
- وبينا نحن نرقص ، كنت أنظر من فوق كتف « بريت » .
- ورأيت إلى « كون » واقفاً أمام المشرب ، وعيناه معلقتان بها ، وقلت لها :
- لقد ظفرت بمغرم جديد .
- لا تحدثني عنه ، يا له من إنسان مسكين! لم ألحظ ذلك ، قبل الآن .
- وقلت :
- إيه ، يخيل إلي أنك تحبين أن تجمعني هذه النماذج .
- لا تفه بهذا الهراء .
- بلى ، إنك لتحبين ذلك .
- حسناً ، وماذا بعد ؟
- لا شيء .
- وكنا نرقص على نغم (الأكورديون) . وكان أحدهم يعزف على (البانجو) . وكان الجو حاراً ، وشعرت بأنني سعيد ، واقتربنا من « جورجيت » وكانت ترقص مع أحدهم .
- ما الذي دهاك ، لتأتي بها الى هنا ؟
- لا أدري ، لقد أتيت بها بكل بساطة .

- لقد أضحيت رومانتيكياً صرفاً .

- لا ، ولكنني برمّ ضجرٌ .

- والآن أيضاً ؟

- لا ، ليس الآن .

- لنذهب ، إنها لن تعدم أشخاصاً يهتمون بها .

- هل تريدان ؟ حقاً ؟

- أكنت أطلب إليك ذلك لو لم أردّه!

وانتهينا من الرقص ، وتناولت معطفي المعلق بمشجب في الحائط وارتديته ، وكانت «بريت» واقفة أمام المشرب و«كون» يتحدث إليها . ووقفت أمام المشرب ، وطلبت ظرفاً ، فأسعفتني صاحبة المحل بظرف ، وسحبت من جيبي ورقة نقدية من فئة الخمسين فرنكاً ودستها في الظرف ، وأغلقت ثم سلمته لصاحبة المحل وقلت لها :

- إن سألت عني الفتاة التي جئت بها المرقص ، فأرجو أن تعطيها هذا الظرف ، وإن ذهبت مع أحد هؤلاء ، فاحتفظي لي به لديك .
فقلت :

- كما ترغب يا سيدي ، هل تذهب الآن مبكراً ؟

قلت :

- أجل .

واتجهنا الى الباب ، وكان «كون» لا يني يتحدث الى «بريت» ، وتمنت له مساءً طيباً ، وأمسكت بذراعي ، وقلت :

- طاب مساؤك يا «كون» .

وبحثنا ، في الشارع ، عن سيارة تاكسي ، وقلت «بريت» :

- سوف تخسر الخمسين فرنكاً .

- أوه ، أجل .

- لا توجد سيارة تاكسي .

- نستطيع أن نمضي ، مشياً ، حتى (البانتيون) ، حيث نجد سيارة .
- تعال نشرب شيئاً ما ، من الحانة المجاورة ، ثم نرسل من هناك شخصاً
يبحث لنا عن سيارة .

- ألا تعبرين الشارع ؟

- لا ، إذا كان في وسعي تجنبه .

ودخلنا الحانة المجاورة ، وأرسلت غلاماً يبحث عن سيارة وقلت :

- وأخيراً ، ها نحن بعيدان عنهم .

ومكثنا ، ثمة ، واقفين ، أمام الخوان التواتيائي الكبير ، لا تتبادل الكلام
ولا تتخالس النظر ، وآب الغلام وقال لنا إن السيارة واقفة أمام الباب ، وشدت

«بريت» يدي في عنف ، ونقدت الغلام فرنكاً وخرجنا ، وسألتها :

- إلى أين تريدان أن أطلب إليه السعي بنا ؟

- أوه ، قل له أن يدور بنا .

وطلبت الى السائق أن يذهب بنا الى حديقة (مونتسوري) ، وصعدت في
السيارة ، وشفقتُ الباب ، وكانت «بريت» قد انزوت في الركن ، مغمضة
العينين ، وجلست الى جوارها ، وانطلقت السيارة ، مرتجةً ، وقالت
«بريت» :

- آه يا عزيزي ، لقد كنت جد يائسة .

الفصل الرابع

وصعدت السيارة في الشارع ، واجتازت الساحة المضئية . وغابت في حلقة الليل ، وطفقت تصعد ، ثم انسابت في شارع معتم خلف (سانت ايتين دومون) ، وانحدرت ، في تؤدة ، على الأسفلت ، ومرت أمام الأشجار وموقف الأوتوبوس في ساحة (كونتر سكارب) ثم انعطفت فوق حصباء شارع (موفتارد) .

وكان قد توزع على ناحيتي الشارع ، حانات مضئية ومخازن ظلت مفتوحة ، الى وقت متأخر ، وكنا جالسين متنائيين ، بيد أن رجأت السيارة كانت تداني ما بيننا ، فيما كنا نهبط الشارع القديم .

وكانت «بريت» قد نزعت قبعتها ، وألقت برأسها الى خلف ، ولمحت وجهها في الأضواء المنسكبة من المخازن المفتوحة ، وعادت الظلمة ، ولكن... حين خلصنا الى شارع (غوبولان) رأيت وجهها ، في وضوح ، وكان الشارع مطروقاً ، وكان ثمة رجال يعملون على خطوط الحافلة ، مستضيئين بنور مصابيح (الاستيلين) . وتجلي وجه «بريت» أبيض ناصعاً ، وتألق طرف عنقها الأغيد في نور (الاستيلين) الفياض ، وعادت الظلمة فغمرت الشارع . وقبلتها ، وتلاقت شفاهنا ، في عنف ، ثم ابتعدت وانزوت ، مبتعدة عني ، ما أمكنها ذلك ، على المقعد ، وحتت رأسها ، وقالت :
- لا تلمسني ، أرجوك ، لا تلمسني .

- ماذا دهاك ؟

- لا قِبَلَ لي بتحمل ذلك .

- أوه « بریت » .

- لا ينبغي ذلك ، يجب أن تعلم . لا أستطيع أن أتحمل ذلك ، هذا كل شيء . أوه . يا عزيزي ، حاول أن تفهم .

- إذن أنت لا تضررين لي الحب .

- لا أضمر لك الحب ؟! إنني أحور الى هلام ، ليس غير ، حين تلمسني .

- أليس ثمة وسيلة نقدر أن نقوم بها ؟

واستقامت ، جالسةً ، ومددت ساعدي خلف رأسها ، وكانت متكئة عليّ ، ولبثنا هادئين ، وحدجتني في عيني ، بطريقتها المألوفة في النظر ، بطريقتها التي تحملك على التساؤل عما إذا كانت تنظر حقاً بعينيها نفسيهما ، بعينيها اللتين تظلان تديمان النظر ، حتى لا تبقى عيون الكون كلها تستمر في النظر . كانت تنظر كما لو لم يكن ثمة شيء في الدنيا لا تجرؤ أن تنظر إليه هذه النظرة ، بينا هي في الواقع تخاف من أشياء جمّة .

وقلت :

- أحقاً ، إننا لا نستطيع عمل أي شيء ؟

فقالت :

- لا أدري ، أنا لا أريد أن أجلو هذا الجحيم مرة أخرى .

- من الأفضل ، إذن ، ألا نلتقي بعد الآن .

- ولكن يا عزيزي أنا بحاجة الى رؤيتك ، ليس لدي سوى ذلك ، إنك

تعرفه جيداً .

- حقاً... ولكن ذلك ينتهي دوماً الى الوضع الذي صرنا إليه .

- إنها غلطتي ، أفلا يتعين على المرء أن يؤدي ثمن كل ما يقوم به ؟

وظلت ترامقني في عيني طوال الوقت ، وكان لعينيها أعماق شتى ، كانتا

تبدوان أحياناً مسطحتين تماماً ، أما الآن ، فإن في ميسورك أن تغوص فيهما الى الأعماق .

- حين أفكر في الجحيم الذي دفعت فيه أشخاصاً فإنني أجدني الآن أؤدي ثمن ذلك كله...

وقلت :

- دعي هذا الهراء . وبعد ، فإن كل ما حدث لي مفترض بأنه مضحك ، أنا لا أفكر فيه البتة .

- أوه ، لا . إنني أتصوره .

- حسناً . لندع التحدث به .

- أنا أيضاً قد ضحكت من هذا الأمر ، ذات يوم (ولم تكن تنظر إليّ) فإن رفيقاً لأخي عاد من (مونس) بنفس الحالة ، وبدا ذلك الأمر كما لو كان مزاحاً ، لا يعرف الناس كل شيء ، أليس كذلك ؟

وقلت :

- ليس ثمة أحد يعرف كل شيء .

لقد استنفدت على الجماعة هذا الموضوع ، بحثاً . وفي وقت ما ، نظرت إليه - على الأرجح - من أشد زواياه اختلافاً ، ومن ضمن ذلك ، أن بعض الأذى والنقص هو موضوع دعاية وهزل ، في حين أنه يظل أقرب الى الجد بالنسبة لمن ابتلي به .

- إنه لمضحك ، إنه لمضحك جداً أن يصبح المرء عاشقاً؟

- أعتقد بذلك حقاً ؟

وترأت عيناها ، من جديد ، مسطحتين .

- لا أقول إنه مضحك ، بهذا المعنى . إنه شعور ممتع ، على نحو ما .

وقالت :

- لا . لا أرى أنه الجحيم في الأرض .

- إنه لمن المستحب أن نتلاقى .

- لا ، لا ، لا أجد ذلك مستحباً .

- ألا ترغبين في ذلك ؟

- أنا مضطرة إليه .

وجلسنا ، حينئذ ، كغريبين . وكانت حديقة (موتسوري) الى يميننا ، وكان المطعم - حين يوجد حوض أسماك حية وحيث يكون في ميسورك الجلوس والنظر الى الحديقة - كان مغلقاً معتماً .

وانحنى السائق ، وقد استدار رأسه نحونا . وسألته :

- إلى أين تريدان أن نذهب ؟

ونحت «بريت» رأسها :

- أوه . لنذهب الى (السيليكت) .

وقلت للسائق :

- الى مقهى (السيليكت) ، في شارع (مونبارناس) .

وعاودنا الهبوط ، في اتجاه مستقيم ، ودرنا حول تمثال (أسد بيلفور)

الذي كان يرقب مرور الحافلات من (موتروج) .

وكانت «بريت» تحدّق الى أمام . ولما شارفنا شارع (راسباي) على

مرمى النظر من أضواء (مونبارناس) قالت «بريت» :

- أليديك مانع إن طلبت إليك القيام بشيء ما ، من أجلي ؟

- لا تكوني حمقاء .

- إذن ، قبلني ، قبله أخرى ، قبل أن نصل الى هناك .

وحين توقفت السيارة ، نزلت ونقدت السائق أجرته ، وخرجت

«بريت» من السيارة ، وهي تسوي قبعتها ، ومدت يدها إليّ لأساعدها على

النزول ، كانت يدها ترتجف .

- قل لي ، ألا أبدو مخيفة ؟

وشدت قبعتها اللبادية الفلاحية ، واتخذت سمتها الى الحافة ، وكان

قد توزّع ، حول المشرب والطاولات ، أكثر الذين تركناهم في المرقص ،

وقالت «بريت» :

- هالو ، أيها الرفاق ، أنا قادمة لأتناول بعض الشراب .

- أوه! «بريت» ، «بريت» .

وخفّ إليها الرسام القصير اليوناني الذي كان يلقّب نفسه بالدوق ، وكان

الجميع يدعونه : «زيزي» .

- لدي شيء جميل ، سأفضي به إليك .

وقالت «بريت» :

- هالو «زيزي» .

وقال «زيزي» :

- أود أن أقدم لك صديقاً (واقترب رجل سمين) الكونت

«ميبوبولوس» . أقدم لك صديقتي اللادي «أشلي» .

وقالت «بريت» :

- كيف حالك ؟

وسألها الكونت «ميبوبولوس» الذي كان يحمل سنّ وعِلّ منوطةً

بسلسلة ساعته :

- حسناً ، أتمتع سيدتي اللادي بوقت هنيء في (باريس) ؟

وأجابت «بريت» :

- أجل ، بقدر كاف .

وقال الكونت :

- إن (باريس) ، ولا ريب مدينة رائعة ، ولكن ، أحسب أنه تباح لك أن

تقومي بأشياء جمّة لطيفة في (لندن) .

- وأجابت «بريت» :

- أوه ، أجل ، بقدر كبير .

وناداني «برادوكس» من طاولته التي كان يجلس إليها وقال :

- «بارنس» ، تعال . اشرب معي ، إن الفتاة التي جئت بها قد

ارتكبت فضيحة رهيبة .

- بأي سبب ؟

- بسبب تعريض ابنة صاحب المرقص بها . كان ذلك مؤسفاً للغاية ، لقد كانت مدهشة ، كما تعلم . فقد أبرزت بطاقتها الصفراء وطلبت الى ابنة صاحب المرقص ابراز بطاقتها ، أقول لك ، كانت فضيحة ، حقاً .

- وماذا جرى بعد ذلك ؟

- أوه ، لقد عاد بها أحدهم الى بيتها ، لم تكن فتاة قبيحة الوجه ، ولكنها متمكنة من بعض العبارات ، بشكل رائع... ابقى واشرب شيئاً ما .

وقلت :

- لا . يتعين عليّ أن أعود مسرعاً ، هل رأيت « كون » ؟

وقالت السيدة « برادوكس » معترضة :

- لقد رجع مع « فرانيس » .

وقال السيد « برادوكس » :

- يا للمسكين ! كان يبدو في حالة وضعية من الكآبة .

وقالت السيدة « برادوكس » :

- بلى ، أجرؤ على القول إنه كان كذلك .

وقلت :

- طاب مساؤكم ، ينبغي أن أعود سريعاً .

وتمنيت لـ « بريت » مساءً طيباً ، في المشرب ، وكان الكونت يدفع ثمن

زجاجة الشمبانيا ، وسألني :

- هل لك أن تشرب كأساً معنا . يا سيدي ؟

- لا ، شكراً جزيلاً . لقد أزف وقت عودتي .

وسألت « بريت » :

- أذهب حقاً ؟

فقلت :

- أجل أشعر بصداع شديد .

- هل أراك غداً ؟

- تعالي الى المكتب .

- صعب . هناك .

- حسناً ، أين سأراك ؟

- في أي مكان ، حوالي الساعة الخامسة .

- إذن فليكن في الطرف الآخر من المدينة .

- حسناً ، سأكون في (الكريون) في الساعة الخامسة .

قلت :

- حاولي أن تأتي الى هناك .

وقالت «بريت» :

- لا يأخذك القلق ، فلم أدعك وأتخل عنك ، من قبل ، أليس كذلك ؟

- ما أخبار «مايك» ؟

- تلقيت منه رسالة ، اليوم .

وقال الكونت :

- طابت ليلتك يا سيدي .

وخرجت ، وتمشيت على الرصيف ، ثم هبطت شارع (سان ميشيل) ومررت بجوار طاولات مقهى (الروتوند) وكانت لاتزال غاصة بالجالسين . وانسرح بصري عبر الشارع ، فرأيت مقهى (الدوم) وقد صفّت طاولاته حتى حاذت حيد الرصيف ، ولوّح لي شخص ، من إحدى الطاولات . فلم أتمكن من استجلائه ، وتابعت سيري ، فقد كنت أتعجل الوصول الى بيتي ، وكان شارع (مونبارناس) مقفراً ، وبدا مطعم (الأفينو) محكم الإغلاق . وكانت الطاولات تصف خارج (الكلوزوري دولبلاس) . ومررت أمام تمثال (ني) المنتصب ، تحت أشعة المصابيع المقوسة بين أشجار الكستنا ذات الأوراق الغضة ، وكان ثمة إكليل بنفسجي ذاوٍ ، متكئ على قاعدة التمثال . وتوقفت لأقرأ هذه

الكلمات المسطورة عليه : (جماعة البونبارتيين) يليها تاريخ أنسيته .
وكان تمثال المارشال (نيل) يبدو بحذائيه الأسوقين^(١) وبسيفه المشهر
الممتد بين خضرة أشجار الكستنا الممرعة اليانعة - كان يبدو ذا هيئة رائعة ،
وكان قائماً قبالة تماماً ، وفي طريق منخفضة من شارع (سان ميشيل) .
وكان النور يشع في غرفة البوابة ، ونقرت على بابها ، وأعطتني الرسائل
البريدية الموجهة إلي ، وتمنيت لها مساءً طيباً ، وصعدت .
وكان بريدي هذا يتألف من رسالتين وبعض الصحف . تبينت ذلك في
ضوء المصباح الغازي في حجرة الطعام .

كانت الرسالتان من الولايات المتحدة ، تتضمن إحداهما بيان حسابي
الجاري في البنك وكان يشير الى رصيد يبلغ ٦٠, ٢٤٣٢ دولاراً وتناولت دفتر
الشيكات وبعد أن طرحت منه مبالغ أربعة شيكات سحبتها ، منذ أول الشهر ،
ألفيت رصيدي لا يتجاوز ٦٠, ١٨٣٢ دولاراً . وسجلت ذلك ، خلف بيان
الحساب ، وكانت الرسالة الثانية إعلماً بعقد قران : (السيد والسيدة
«الويزيوس كيربي» يتشرفان بإعلامك عقد قران ابنتهما «كاترين») .

وكنت لا أعرف الفتاة ولا زوجها الذي بنى بها ، لا شك في أنهما قد وزعا
نسخاً من هذا الإعلام ، كنماذج ، في جميع أنحاء المدينة . كان اسماً
طريفاً ، وكنت متأكداً بأنني لن أنسى إنساناً يحمل هذا الاسم
«الويزيوس» . كان اسماً كاثوليكيّاً صرفاً . وكان الإعلام مزيناً بشعار
العائلة ، مثل «زيزي» الدوق اليوناني ومثل ذاك الكونت... مضحكاً ، إن
«بريت» تحمل لقباً : لادي ، لادي «اشلي» . لتذهب «بريت» الى الجحيم!
ليأخذك الجحيم يا لادي «اشلي»!

وأنرت المصباح المجاور للسرير ، وأطفأت الغاز ، وفتحت النوافذ
العريضة ، وكان السرير بعيداً عنها ، وجلست «والنوافذ مفتوحة» ، وأخذت

أنضو ثيابي بجوار السرير ، ومَرّ ، في الخارج ، قطار ليلي كان يستعمل خطي الحافلة ، حاملاً الخضّر الى الأسواق . كانت هذه القطر صاخبة في ليالي الأرق ، وجعلت أنظر فيما كنت أنضو ثيابي ، الى نفسي في صقال مرآة الخزانة الكبيرة القائمة قرب السرير . كان أثاث هذه الغرفة ذا طراز فرنسي ، وكان الى هذا ، عملياً ، فيما أظن...» .

من بين كل الجراحات المحتملة... أحسب أن ذلك كان مضحكاً... ولبست منامتي واضطجعت على السرير . وكانت الى جانبي صحيفتان خاصتان بمصارعة الثيران ، ومزقت لفافتيهما ، كانت أولاهما برتقالية ، والثانية صفراء لا بد أن كليتهما تتضمنان الأخبار نفسها ، أضف الى ذلك أن قراءتي لمحتوى الأولى تحرم الثانية من كل رغبة في الاطلاع عليها ، وكانت صحيفة (التوريل) هي الأفضل ، وأخذت أقرأ فيها . وقرأتها من أولها الى نهايتها ، حتى المراسلات الصغيرة ، والأخبار الوجيزة . وأطفأت مصباحي لعلّي أستطيع أن أغفو .

وبدأ رأسي يعمل : إنها القصة القديمة نفسها دوماً ، بلى . إنه لقدّر قدر أن أقع جريحاً وأن أتابع الطيران ، في جبهة هازلة كالجبهة الإيطالية . لقد خطر لنا ، في المستشفى الايطالي ، أن نؤسس جمعية ، وكانت تحمل اسماً طريفاً في الإيطالية . إنني أتساءل عما آل إليه مصير الآخرين ، الايطاليين . كان ذلك في مستشفى (ماغيور) في (ميلانو) - (باديغليوني بونتي) . كان البناء المجاور هو (باديغليوني زوندا) . كان هناك تمثال (بونتي) ، لعله تمثال (زوندا) . هناك جاءني الكولونيل ، ضابط الارتباط ، زائراً . كان ذلك مضحكاً وأحسب أن هذا كان أول حادث طريف ، يقع لي . كنت ملقحاً بالضمادات ، بيد أنه أطلع على ما حدث لي ، وألقى عليّ آنئذ ، خطاباً رائعاً :

- أنت أيها الأجنبي ، أيها البريطاني (كل الأجانب كانوا بنظرهم بريطانيين) لقد وهبت أكثر من حياتك .

يا له من خطاب! لكم وددت أن أظفر به مخطوطاً مزوقاً ، لأعلقه في مكتبي .

ولم يضحك البتة ، أحسب أنه كان يضع نفسه في مكاني Che mala for- tuna, Che mala fortuna^(١) ، وأحسب أنه لم يشأ أن أستجلي حقيقة الأمر . وقد حاولت ما وسعني ذلك أن أظاهر به دون أن أسبب إزعاجاً لأحد ، وعلى الدرج أنني لم أكن لأبلو ضيقاً وألماً لو لم ألتق بـ «بريت» حين رُحِلْتُ الى انكلترا ، وأظن أنها كانت ترغب في شيء لم يكن في استطاعتها أن تظفر به ، بلى . بعض الناس على هذه الشاكلة . ليذهب الناس الى الجحيم! إن للكنيسة الكاثوليكية سبيلاً جيداً لحل ذلك كله . أوه إنها نصيحة حسنة ، على أي حال . دون أن تفكر فيها ، أوه إنها نصيحة عذبة ، حاول أن تتبناها بين وقت وآخر . حاول بعض الشيء .

وجعلت أفكر ، وأنا مستلق ، لا يواتيني النوم وفكري لا يني يقفز دائراً ثم أنتهي الى ما لم أستطع أن أنزعه ، فقد أخذت أفكر في «بريت» وأنتسخ كل شيء سواها ، وفيما كنت أفكر فيها جعل فكري يشتغل بعد أن كف عن القفز ، ثم تسلسل في ما يماثل موجات لينة . وعلى حين غرة أنشأت أبكي ، وشعرت إثر ذلك بأنه قد سُري عني واضجعت وسمعت هدير الحافلات الثقيلة ، ذاهبة وغادية في الشارع ، واستغرقت ، بعد ذلك ، في النوم .

ولما استيقظت تناهى الى سمعي أصوات شجار في الشارع ، وأصغيت . فتبينت صوتاً مألوفاً لدي . وارتديت مبدلي ومضيت الى الباب . كانت البوابة تتكلم في الدور الأرضي ، وقد بدت جد غاضبة ، وسمعت اسمي يتردد ، وناديت من عل ، فصرخت البوابة :

- هل السيد (بارنس) هو الذي ينادي ؟

- أجل ، أنا .

(١) يا للحظ العاثر . يا للحظ العاثر ، وردت بالإيطالية في النص . (المعرب)

- ههنا امرأة ، أيقظت ساكني الشارع كلهم . أي نمط من الأعمال القدرة
في هذا الوقت من الليل! تقول إنه يجب أن تراك ، فقلت لها إنه نائم .
وسمعت حينئذ صوت « بریت » ومثّل في وهمي ، وأنا شبه نائم ، أنها
« جورجيت » ، لا أدري لماذا ، فلم يكن في ميسور هذه الأخيرة أن تعرف
عنواني .

- دعيها تصعد ، أرجوك .

وصعدت « بریت » الدرج ، وألفيتها جدّ سكرى ، وقالت :
- إنه لعمل أحقق أن تعمد الى ذلك وتشير هذا الصخب المخيف ، قل لي ،
لقد كنت نائماً ، أليس كذلك ؟
- ماذا تظنين أنني كنت أفعل ؟
- لا أدري ، ما هو الوقت الآن ؟
ونظرت الى ساعة الحائط ، كانت تشير الى الرابعة والنصف .
وقالت « بریت » :

- ليس لدي أي فكرة عن هذا الوقت ، هل يسمح لأحد بالجلوس ؟ لا
تستأ يا عزيزي ، لقد تركت الكونت ، اللحظة ، فقد جاء بي الى هنا .
- أي نوع من الرجال ، هذا الشخص ؟
وأخرجت البراندي والصدودا ، وكأسين ، وقالت « بریت » :
- قليلاً فحسب ، لا تحاول أن تسكرني . الكونت ؟ لا بأس به . إنه
ليماثلنا .

- هل هو كونت حقاً ؟

- على نخب صحتك . أظن ذلك . على أي حال ، يستحق أن يكونه . إنه
يعرف أشياء جمّة عن الناس . لا أدري كيف يلّم بذلك كله . إن له سلسلة
معامل حلوى كثيرة في الولايات المتحدة .
- أظن أنه يدعوها سلسلة ، أو شيئاً من هذا القبيل . إنها موصولة
الحلقات . لقد ذكر لي عنها شيئاً يسيراً . في الحق إنه شخص يثير الاهتمام .

وإنه - الى ذلك - لنموذج صادق من وسطنا . أوه ، نموذج حقيقي ، لا شك في ذلك ، في وسع أي شخص أن يقول ذلك .
وشربت جرعة أخرى .

- ولكن ما الذي حملني على إيراد هذا كله ؟ أليدك مانع ؟ أتدري أنه ينفق على « زيزي » .

- وهل « زيزي » دوق حقيقي ؟

- ليس في ذلك ما يدعو الى عجبي . إنه يوناني ، كما تعلم ، ثم إنه رسام فاسد . أما الكونت فإنه يروقني كثيراً .

- أين اجتمعت معه ؟

- أوه في كل مكان . لقد أتى بي ، اللحظة ، الى هنا ، وعرض علي عشرة آلاف دولار لأذهب معه الى (بياريتز) . كم يعادل هذا المبلغ من الجنيهات ؟
- ألفين تقريباً .

- لعمرى . إنك بطيء في الشرب .

وكنت قد اجتزأت برشفة صغيرة من كأس البراندي - الصودا فتناولتها وشربت منها نهلة كبيرة . وقالت « برت » :

- مرحى . إنه مضحك ، لقد أراد بعد ذلك ، أن أستصعبه الى (كان) فقلت له : إنني أعرف كثيراً من الناس في (كان) . (مونت كارلو) ثم قلت له : إنني أعرف كثيراً من الناس في كل مكان ، وهذا في الواقع ، صحيح ، وأخيراً سألته أن يأتي بي الى هنا .

ورنت إلي ، ويدها مراحة على الطاولة ، وكأسها مرفوعة ، وقالت :

- لا تبصر بي هكذا ، قلت له . إنني أحبك يا « جاك » وهذا صحيح في الواقع ، لا تمتعض هكذا ، لقد تلقى ذلك على محمل حسن ، إنه يريد أن يدعونا ، ونقلنا بسيارته ، لتتغشى سوية مساء غد ، هل يروق لك ذلك ؟

- ولم لا ؟

- يجدر بي أن أذهب .

- لماذا ؟

- كنت أريد أن أراك وكفى . إنها فكرة بلهاء لعينة . هلا ارتديت ثيابك ونزلت ؟ إن سيارته في أعلى الشارع تماماً .

- الكونت ؟

- بنفسه مع سائق سيارة يرتدي ثيابه الخاصة به ، سنذهب لنتناول الفطور في الغابة ، لدينا السلال ، أخذت كلها من محل (زبلي) ولدينا الى ذلك اثنتا عشرة زجاجة من (الماس) ، ألا يغريك هذا ؟
وقلت :

- لدي عمل في هذا الصباح ، ثم إنك تسبقيني الآن بمدى بعيد لا يتيح لي أن أدركك لأكون مسلياً .
- لا تكن حماراً .
- لا أستطيع .

- حسناً ، هل ترغب في أن أبلغه كلمات لطيفة منك ؟
- كما تشائين ، وبصورة مطلقة .

- ليلة سعيدة يا عزيزي .

- لا تصطنعي العاطفة .

- أوه . إنك تضنيني .

وقبلتها ، وارتعشت «بريت» وقالت :

- ينبغي أن أذهب ، ليلة سعيدة يا عزيزي .

- لست مجبرة على الذهاب .

- بلى .

وتبادلنا القبلات من جديد ، على الدرج ، ولما ناديت البوابة بشد الجرس ، سمعت زمجرتها خلف الباب ، وصعدتُ ، ورأيت من النافذة المفتوحة «بريت» تتجه نحو سيارة فارهة كبيرة ، واقفة على حيد الطريق ، تحت المصباح المقوس ثم دخلت فيها ، وانطلقت بها .

وقفلت عائداً ، وكان على الطاولة كأس فارغة ، وكأس مليء نصفها بالبراندي - سودا ، فحملت كليهما الى المطبخ ، وأفرغت الكأس الممتلئة الى نصفها في البلوعة ، وأطفأت الغاز في حجرة الطعام ، ونزع بابو جي ، وجلست في فراشي ، بلى ، من أجل «بريت» هذه بكيت ، وتمثلتها وهي تسعى في الشارع وتستقل السيارة ، كما رأيته منذ لحظات ، ولم ألبث أن شعرت ، طبعاً ، بصداع رفدتني به جهنم . إنه لمن السهل أن يكون المرء ، في النهار ، على مرجل يغلي ، بسبب أي شيء ، أما في الليل فذاك شيء آخر .

الفصل الخامس

وهبطت ، ماشياً ، هذا الصباح ، في الشارع حتى شارفت جادة (سلوفلو) ، لأتناول القهوة مع الكعك ، وكان الصباح ممتعاً . وكانت أشجار الكستنا في (اللوكسمبورغ) مبرعمة ، وكان يخامر المرء ذلك الشعور العذب الذي يبعثه في نفسه ، في الصباح الباكر ، بدء يوم حار ، وقرأت الصحف فيما كنت أرتشف قهوتي ، ودخنت سيكارة ، وكانت بائعات الزهور يقبلن من السوق ، وجعلن يضعن رفوف الزهر ، وكان ثمة طلاب يتخذون سمتهم نحو معهد الحقوق أو ينحدرون الى (السوربون) ، وكان الشارع يعج بالحافلات وبالسابلة الساعين الى أعمالهم ، وركبت الأوتوبوس ذا الحرف (S) ، فانحدر مطوّفاً بـ(المادلين) القائمة على نشز من الأرض ، ومن (المادلين) مشيت في شارع (الكابوسين) فالأوبرا ومنها اتجهت الى مكتبي . ومررت ببائع دمي الضفادع القافزة ، وببائع دمي الملاكمين الصغار ، وابتعدت متجنباً أن أدوس على الخيط الذي تحرك به مساعدته الصبية لعبة الملاكمين ، وكانت واقفة وعيناها شاخصتان والخيط بين يديها المتصالبتين وكان البائع يلح على سائحين مغريباً إياهما بالشراء ، وتوقف ثلاثة سياح آخرين ليتأملوا . ومشيت خلف رجل يدفع أمامه اسطوانة تسطر ، وهي تدرج على الرصيف ، بأحرف ندية ، كلمة (سنزانو) . وكان الناس يسعون ، في كل اتجاه ، الى أعمالهم . إنه لمن الممتع أن يسعى الإنسان الى عمله . واجتزت الشارع وملت منه الى مكتبي .

وفي مكتبي ، قرأت الصحف الفرنسية الصباحية ودخت . وجلست أمام الآلة الكاتبة وأمضيت صبيحة مثقلة بالعمل ، وفي الساعة الحادية عشرة ، ذهبت الى (الكي دورسيه) بسيارة تاكسي ، ودخلت ، واتخذت مجلسي بين دزينة من المراسلين ، وتكلم ، خلال نصف ساعة ، متحدث رسمي عن وزارة الخارجية ، وهو شاب سياسي من زمرة محرري (المجلة الحديثة الفرنسية) يضع نظارة ذات إطار من الصدف ، وأخذ يجيب عن الأسئلة الموجهة إليه ، وكان رئيس الوزراء في (ليون) لإلقاء خطاب هناك . وعلى الأصح ، كان في طريق العودة . وأخذ نفر من الحاضرين يلقون أسئلة لسماع أصواتهم وهم يتحدثون ليس غير . وكان ثمة سؤالان قد وجههما مراسلون يرغبون في معرفة أجوبتهما حقاً ، ولم يكن هناك أخبار . ولما خرجت من (الكي دورسيه) ، اقتسمت ركوب سيارة تاكسي مع «ولسي» و«كروم» ، وسألني «كروم» :

- كيف تقضي أمسياتك يا «جاك» ؟ إنني لا أراك البتة .

- أوه ، إنني في (الحي اللاتيني) .

- سأقصده في إحدى الأمسيات ، وملهى (الدينكو) ؟ إنه لرائع ، أليس

كذلك ؟

- بلى ، إنه كذلك ، وثمة المرقص الجديد (السيليك) .

وقال «كروم» :

- لقد كنت أفكر ، غالباً ، في الذهاب الى (الحي اللاتيني) ولكنك تعلم ما

تكون عليه الحال مع زوجة وأطفال .

وسأله «ولسي» :

- هل تلعب التنس ؟

وقال «كروم» :

- كلا ، ليس في مقدوري أن أقول إنني لعبت مرة واحدة ، هذا العام ، فإن

المطر لا يكاد ينقطع أيام الأحد ، ثم إن الملاعب كلها أصبحت مكتظة بالناس .

- إن الانكليز يجدون دوماً منفسحاً من الوقت أيام السبت .

وقال « كروم » :

- يا للشحاذين المجدودين ، وبعد ، فاسمع ما أقول : سأنتهي ذات يوم من العمل لأيما وكالة ، وعندئذ ، سيتسق لي الوقت الذي أفزع فيه الى ضاحية خارج المدينة .

- ليس ثمة شيء أمتع من أن يقيم الإنسان في الضاحية ، وأن تكون في حوزته سيارة صغيرة .

- تراودني رغبة في شراء سيارة ، في العام القادم .

ونقرت على الزجاج الحاجز ، فتوقف السائق ، وقلت :

- هذا هو شارعي ، تعالاً معي نشرب شيئاً ما .

وقال « كروم » :

- شكراً يا عزيزي (وهز « ولسي » رأسه) . يتعين عليّ أن أضع في خزانة (الأرشييف) ملخص ما تنأهى إلينا هذا الصباح .

ودسست قطعة من فئة الفرنكين في يد « كروم » فقال :

- أنت مجنون يا « جاك » ، عليّ أنا أن أدفع .

- على أي حال ، سيدخل هذا المبلغ ضمن نفقات المكتب .

- كلا ، أصر على أن أدفع أنا .

واستودعتهما ، ملوْحاً لهما بيدي ، ومدّ « كروم » رأسه من باب

السيارة :

- الى يوم الأربعاء ، على الغداء .

- حسناً .

ورقيت بالمصعد الى مكثبي ، فإذا بـ« روبرت كون » ينتظرني ثمة ،

وقال :

- هالو (جاك) هل سنخرج لتتناول طعام الغداء ؟

- أجل ، دعني أنظر ما إذا كان قد جدّ شيء .

- أين ستتناول طعام الغداء ؟

- أنى تشاء .

- وأجلت طرفي في منضدة مكتبي .

- أين تريد أن نطعم ؟

- ما رأيك في مطعم (الويتزل) فإن لُمجته^(١) جد لذيذة .

وفي المطعم طلبنا لمجة وبيرة . وجلب النادل البيرة الباردة في قدحين

كبيرين مزبدتين . وكان هناك اثنا عشر صنفاً من مشهيات اللمج المختلفة ،

وقلت :

- هل أصبت حظك من التسلية ، ليلة أمس ؟

- لا ، لا أظن ذلك .

- كيف تمضي في تأليف كتابك ؟

- بشيء سيئ ، إنني لا أقدر على المضي في تأليف هذا الكتاب الثاني .

- قد يحصل هذا لجميع الناس .

- أوه ، هذا ، إنني متأكد من ذلك ، ولكنه مع ذلك يسخطني .

- أفما زلت تفكر في مشروع السفر الى أمريكا ؟

- لا أزال أفكر فيه .

- لم لا تسافر إذن .

- بسبب «فرانسييس» .

وقلت :

- حسناً ، خذها معك .

- قد لا يروقها ذلك . فلا يستهويها هذا النمط من الأشياء . إنها تحب

أن يتحلقها عدد كبير من الناس .

- قل لها أن تذهب الى جهنم .

(١) اللمجة : ما يتعلل به قبل الغداء ولعلها أن تقابل معنى Hors d'oeuvres .

- لا أستطيع ، فعلي واجبات تجاهها .
ودفع سلطة الخيار من أمامه ، وتناول من سمك (الرُنْكة) المنقوع
بالخل .

- ماذا تعلم عن اللادي «بريت اشلي» يا «جاك» ؟
- إنها تدعى اللادي «أشلي» و«بريت» هو اسمها ، وهي امرأة لطيفة ،
إنها بسبيل الطلاق . ولسوف تتزوج بـ«مايك كامبيل» وهو الآن في
(ايقوسيا) . فيم سؤالك عنها ؟

- انها امرأة فاتنة نادرة المثال .
- أهي كذلك ؟
- إن لديها شيئاً ما ، شيئاً قريباً من الرقة . وإنها تبدو في الحق ، لطيفة
مخلصة .

- إنها فاتنة جداً .
- لا أدري كيف أجلو هذه السجية الكريمة ، أعتقد بأنها موروثة .
- قل لي . يظهر أنها تروق لك ؟
- صحيح ، ولعلي لا أعجب إن شُغفت بها .
وقلت :

- إنها تسكر وهي تحب «مايكل كامبيل» ، وسوف تتزوجه ، ولسوف
يصبح غنياً بصورة لعينة ، في يوم قريب .
- لا أعتقد بأنها ستتزوجه .

- ولم لا ؟
- لا أدري ، لا أعتقد بذلك وكفى ، هل تعرفها منذ زمن بعيد ؟
وقلت :

- أجل ، كانت ممرضة متطوعة في مستشفى ، حيث كنت أعالج أثناء
الحرب .

- لا بد أنها كانت فتاة صغيرة في ذلك الوقت .

- إن عمرها ، الآن ، أربعة وثلاثون عاماً .

- متى تزوجت «أشلي» ؟

- أثناء الحرب ، فإن الشخص الذي تعلقت به حقاً ، كان قد قضى آنذاك من مرض الزحار .

- إنك تتكلم بلهجة مريرة .

- عفواً ، لم أكن أقصد ذلك ، كنت أحاول أن أطلعك على الوقائع ليس

غير .

- لا أعتقد بأنها ستزوج شخصاً لا تحبه .

وقلت :

- حسناً ، لقد فعلت ذلك ، مرتين ، من قبل .

- لا أعتقد بذلك .

وقلت :

- إذن لا تلقِ إليّ بأسئلة بلهاء عقيمة ، إن كنت لا تحب أجوبتها .

- لم أطلب إليك ذلك .

- لقد طلبت إليّ ما أعرف من معلومات عن «بريت أشلي» .

- لم أطلب إليك إهانتها .

- أوه على رسلك ، الى جهنم .

وترك الطاولة ، ونهض ، شاحباً ، وظل قائماً ، مصفر الوجه ، مغضباً ،

خلف صحن اللّمعج ، وقلت :

- اجلس ولا تكن أبله .

- أريد أن تتراجع عما فهِت به الآن .

- أوه أرجوك . دعني من هذه الطلبة .

- اسحب ما قلته الآن .

- حسناً ، لك ما تريد ، إنني لم أسمع بشيء يتعلق بـ«بريت أشلي» هل

يرضيك هذا ؟

- لا ، ليس هذا ، وإنما ما قلت لي بأن أذهب الى جهنم .
- أوه ، حسناً ، لا تذهب الى جهنم ، ابق هنا ، لقد شرعنا في الطعام الآن .

وابتسم « كون » وسري عنه ، وبدأ سعيداً في الجلوس . ترى ماذا يمكن أن يفعل لو لم يجلس ؟

- إنك تتفوه بأشياء جد لعينة مهينة يا « جاك » .

- عفواً ، إن لي لساناً بذيقاً ، ولا أقصد أبداً مضمون الكلمات المنافية البذيئة التي أقولها .
وقال « كون » :

- أعرف ذلك ، في الواقع ، أنت خير صديق عرفت يا « جاك » .
وفكرت في أن أقول : ليحفظك الله .

بيد أنني قلت بصوت مرتفع النبرة :

- انسَ ما قلت لك ، وعفواً إليك .

- حسناً ، كل شيء على ما يرام ، لقد استأثت دقيقة واحدة فحسب .

- حسناً ، دعنا نطلب شيئاً آخر نطعمه .

ولما انتهينا من الطعام ، سعدنا الى مقهى (دولابه) وشربنا القهوة ،
وشعرت بأن « كون » يريد أن ينساق الحديث الى « بریت » من جديد ،
ولكنني تجنبت ذلك ، وتحدثنا عن أشياء شتى ، ثم تركته لأعود الى مكتبي .

الفصل السادس

في الساعة الخامسة ، كنت أنتظر «بريت» في فندق (كريون) . وتأخرت عن المجيء ، فجلست لأكتب رسائل عديدة ، ولم تكن رسائل جميلة ، ولكنني أعتد على أناقة ورق فندق (كريون) لأوازن بها هزال مضمون هذه الرسائل . ولما ألفت أن بريت لم تأت ، نزلت الى المشرب في الساعة السادسة إلا ربعاً ، واحتسيت كأساً من خمر (جاك روز) مع جورج ساقى المشرب ، ولم تقدم «بريت» الى المشرب . وقبل أن أغادر الفندق ، صعدت الى عل ، فلعلها تكون ثمة . وأخيراً ركبت سيارة تاكسي قادتنى الى (السيليكيت) . وفيما كانت السيارة تجوز بي الجسر ، على نهر السين ، رأيت عدداً من الزوارق الفارغة تهبط في اتجاه مجرى الماء ، وأمسك كل ريان ، بالدفة حين اقتربت الزوارق من الجسر . وكان النهر جميلاً . إنها لمتعة حلوة للمرء حين يعبر جسور (باريس) .

ودارت السيارة حول تمثال مخترع (السيمافور)^(١) وهو منكب على اختراعه ، ثم عرجت على شارع (راسباي) . وارتددت إلى داخل السيارة ، متمدداً ، فيما كانت تجوز هذه المسافة من سيرها . إن مرأى شارع راسباي من السيارة هو باعث دوماً على السأم ،

(١) السيمافور : الملوّح بالاشارات للسفن والقاطرات .

إنها كذلك الجزء المنبسط بين (فونتنبلو) و(مونتيرو) ، الذي يثير في نفسي ، دائماً ، الشعور بالملل والموت والسويداء حتى أجوزه . يخيل إلي أنه بعض أجزاء رحلة ما ، يبدو ، بسبب تداعي بعض الأفكار ، موحياً بفكرة الموت . إن في (باريس) شوارع تماثل في قبحها شارع (راسباي) ولا أشعر بالضيق إن سعيت فيها على قدمي ، بيد أنني لا أطيق أن أجوزها وأنا راكب في سيارة ، ولعل مرد ذلك أنني قرأت شيئاً ما حول ذلك . إنه كذلك الأثر الذي تتركه (باريس) كلها في نفس « روبرت كون » ، وإنني لأتساءل : ترى أين اتسق لـ « كون » ذلك العجز عن استطابة العيش في باريس . لعل ذلك ناجم من « مينكين » . أعتقد بأن « مينكين » يكره باريس . لهذا فإن كثيراً من الشباب أخذوا عن « مينكين » المحبة أو البغض .

وتوقفت السيارة ، قبالة (الروتوند) . إنك إن طلبت في أي مقهى من مقاهي (مونبارناس) الى سائق سيارة ما ، أن يمضي بك من الضفة الغربية الى مكان ما ، فإنه يأخذك دوماً الى (الروتوند) . وفي الأرجح ، إنه سيتجه بك ، بعد عشر سنوات الى (الدوم) .

على أي حال ، كان (الروتوند) قريباً ، بعض الشيء من (السيليكت) ، ومررت بالطاولات الحزينة في (الروتوند) لأصل الى (السيليكت) . وكان في المشرب بضعة أشخاص ، ورأيت ، في الخارج ، « هارفي ستون » وحده ، وبدا وجهه غير حليق . وكان أمامه ركام من الصحون الصغيرة وقال لي « هارفي » :

- اجلس ، كنت أبحث عنك .

- ما الأمر ؟

- لا شيء ، كنت أبحث عنك وحسب .

- هل كنت في ميدان السباق ؟

- لا ، لم أذهب منذ يوم الأحد .

- ما أخبار الولايات المتحدة ؟

- لا شيء . لا شيء ، مطلقاً .

- ما بك ؟

- لا أدري ، لقد انقطعت كل علاقة لي بهم ، انقطعت تماماً .

وانحنى ثم حدّق الى بياض عيني .

- هل تريد أن أفضي إليك بشيء يا « جاك » ؟

- أجل .

- لقد مضت خمسة أيام لم أطمع فيها شيئاً .

وحسبت ، في فكري ، بسرعة : منذ ثلاثة أيام قمرني « هارفي »

بالبوكر وكسب مني مئتي فرنك ، في حانة « نيويورك »

- ماذا جرى لك ؟

- صفرٌ من المال ، لما تصل النقود بعدُ (وتوقف) أقولها لك يا « جاك » :

إنه لشيء غريب أنني لا أملك ، حين أكون في حال كهذه ، سوى رغبة واحدة

هي أن أكون وحيداً ، أن أصبح جالس بيتي . قابعاً في غرفتي ، انني كهر .

وجسست جيبي .

- « هارفي » ، هل توفي مئة فرنك بما ترغب ؟

- أجل .

- هلم ، نأكل سوية .

- لا شيء يدعو الى العجلة . اشرب شيئاً ما .

- من الأفضل أن نأكل .

- لا ، حين أكون في مثل هذه الحال ، سيان عندي أن أكل أو لا أكل

وشربنا ، وأضاف « هارفي » صحنى الى ركام صحونه .

- هل تعرف « مينكين » يا « هارفي » ؟

- أجل ، لماذا ؟

- أي نمط من الرجال هذا الشخص ؟

- إنه جيد ، وإنه ليتحدث عن بعض الأشياء الطريفة . في المرة الأخيرة

التي تناولت فيها طعام العشاء معه تحدثنا عن « هو فنهايمر » فقال لي : « من

المؤسف حقاً أن لا يحذق هذا الرجل سوى فك أربطة الساق ، لا بأس بهذا الرأي أليس كذلك ؟
- لا بأس .

- لقد انتهى أمره ، حالياً ، فقد كتب عن كل شيء يعرفه ، أما الآن فإنه يكتب عن كل ما لا يعرف .
وقلت :

- أحسب أن ما يكتبه جيد ، بيد أنني لا أستطيع أن أقرأه .

وقال « هارفي » :

- أوه . ليس ثم إنسان يقرأه ، في هذا الوقت ، فيما عدا الأشخاص الذين ألفوا أن يقرأوا كتاب (معهد ألكسندر هاميلتون) .
وقلت :

- إيه ، إنه كتاب جيد أيضاً .

وقال « هارفي » :

- طبعاً .

وأنشأنا نفكر ، ملياً ، أمدأ غير قصير .

- هل لك في قدح بورتو آخر ؟

وقال « هارفي » :

- بكل سرور .

وقلت :

- ها هو ذا « كون » .

وكان « كون » يجتاز الشارع .

وقال « هارفي » :

- يا لهذا المخبول!

وتتقدم « كون » من طاولتنا وقال :

- هالو . أيها العرييدان .

وقال « هارفي » :

- هالو ، « روبرت » . كنت أقول لـ « جاك » ، اللحظة ، إنك مخبول .

- وماذا تعني بذلك ؟

- أجبتنا حالاً ، دون تفكير ، ماذا كنت تفعل ، إذا كان في ميسورك أن

تفعل ما تفكر فيه ؟

وطفق « كون » يفكر .

- لا تفكر ، أجب ، حالاً .

وقال « كون » :

- لا أدري . وماذا يعني على أي حال ، كل هذا ؟

- أعني : ماذا كنت تفعل ؟ ماذا يخطر على بالك ، لأول وهلة ؟ ولا ضير

إن يكن ، ما تقول ، حماقة .

وقال « كون » :

- لا أدري ، أعتقد بأنني أود معاودة لعب كرة القدم ، مع كل ما أعرف

الآن من وسائل حسن التخلص .

وقال « هارفي » :

- لقد أسأت تقديرك ، فلست بمخبول . إنك لا تمثل سوى حالة توقف

النمو .

وقال « كون » :

- إنك لمضحك يا « هارفي » . ذات يوم سوف يسدد أحدهم لكمة الى

وجهك .

وأغرق « هارفي ستون » في الضحك .

- هل تظن ذلك ، ومع هذا ، لن يقوم أحد بذلك البتة ، لأن الأمر عندي

سواء . فلست مغرماً بالعراك .

- لن يكون الأمر لديك سواء تماماً ، إن قام أحدهم بذلك .

- لا . لن يحدث ذلك معي ، بل يحدث معك حين ترتكب خطأ جسيماً ،

لأنك لست بذكي .

- لا تهتم كثيراً بشأني .

وقال « هارفي » :

- طبعاً ، الأمر عندي سواء ، فإنك لا تثير اهتمامي في شيء .

وقلت :

- هل لك أن تشرب يا « هارفي » قدحاً آخر من البورتو ؟

وقال « هارفي » :

- لا ، سأذهب صعداً في الشارع ، لأتناول الطعام . الى اللقاء يا

« جاك » .

ومشى وخرج ومضى صاعداً في الشارع ، وجعلت أنظر إليه وهو يعبر الشارع في تودة ، بين سيارات التاكسي . وتراءى لي ربةً أقرب الى القصر ، واثقاً من نفسه ، وسط الزحام .

وقال « كون » :

- إنه يهيج غضبي دوماً ، ليس في مكنتي تحمله البتة .

وقلت :

- أما أنا فأحبه ، إنني أضمر له المحبة والود ، لا ينبغي أن تجد عليه .

وقال « كون » :

- أعلم ذلك جيداً ، ولكنه يثير أعصابي .

- هل كتبت بعد ظهر اليوم ؟

- لا ، لم يواتني ذلك ، كتابي هذا أصعب من الكتاب الأول ، وأجد مشقة

في إنهائه .

إن ذلك الغرور القوي الذي كان يتسم به ، إثر عودته من أمريكا في مطلع الربيع ، قد أمحى الآن . كان يبدو ، آنذاك ، واثقاً من عمله ، ولم يكن لديه سوى رغباته الخاصة في الانطلاق بمغامرة . أما الآن فإن ثقته بنفسه قد تبددت . ويخالجني شعور مبهم . بأنني لم أجعل « كون » بصورة واضحة ، وقد

نجم ذلك من أنني لم أسمع منه - حتى اليوم الذي أضحي فيه عاشقاً لـ «بريت» -
- أية ملاحظة قد تميزه عن الآخرين . كان من الممتع أن ينظر إليه المرء في
ملعب التنس . كان يبدو متين البنيان ، محتفظاً بكمال هيئته ، وكان يجيد
الإمساك بورقه في لعبة البريدج ، وكان يترقق في طبعه شيء طريف من طبع
الطالب ، وحين يكون بين جماعة فإنه لم يكن ليلاحظ شيء مما يقول . وكان
يرتدي ما كنا ألفنا أن نسميه في المدرسة ، وما يمكن أن يسمى حتى الآن :
قمصان (البولو) . ولكنه لم يكن يتراءى بمظهر الفتى ، في تكلف ، ولا أظن
أنه كان يولي ثيابه اهتماماً كبيراً ، لقد تكيف ، في مظهره الخارجي ، بقالب
خريجي (برنستون) ، أما في داخله فإنه قد تكيف بتأثير المرأتين اللتين
تعهدتا . وكان في خلقه لون من البشاشة الحلوة الساذجة التي لم يتأت له أن
يفقدها أبداً ، وأخشى ألا أكون قد وفيت هذه البشاشة حقها من البيان . وكان
مشغولاً بالغلاب في لعبة التنس ، كان يحب ، مثلاً ، أن يغلب مثل «لينغلين»
وبالمقابل فإنه لم يكن يستاء إذا هزم . وحين أضحي متيماً بـ «بريت» أفل
نجمه في لعبة التنس ، وغلبه أشخاص لم يكن لديهم ، من قبل ، أي حظ في
الغلاب وكان يتلقى ذلك تلقياً لطيفاً .

الخلاصة : كنا جالسين على سطحية مقهى (السيليكت) ، بينا كان
«هارفي ستون» يعبر الشارع وقلت :
- تعال الى (الليلاس) .

- لدي موعد .

- في أي وقت ؟

- إن «فرانسييس» قادمة في الساعة السابعة والرابع .

- ها هي ذي .

وكانت «فرانسييس كلين» قادمة إلينا ، عبر الشارع ، وكانت امرأة
فارعة الطول ، ذات مشية متخلعة ، ولوحت بيدها وابتسمت . ولحظناها وهي
تعبر الشارع ، وقالت :

- هالو ، كم أنا مسرورة ، أن تكون هنا يا « جاك » . كنت أريد أن أتحدث إليك .

وقال « كون » :

- هالو « فرانسيس » .

وابتسم .

- أوه ، هالو ، « روبرت » أأنت هنا ؟

واستطردت تقول بسرعة :

- لقد أمضيت صبيحة ، وأي صبيحة! إن هذا الشخص (ودلت على

« كون » برأسها) لم يعد الى البيت لتناول طعام الغداء .

- لم تكن عودتي متوقعة .

- أوه ، أدري ذلك ، ولكنك لم تنبئ الطباخة بذلك ، أضف الى هذا أنه

كان لدي موعد . ولم تكن « باولا » في المكتب ، وغدوت الى (الريتز)

لأنتظرها ثمة ، فلم تأت ، ولم يكن لدي ، طبعاً ، من النقود ما يكفي لأتناول

الطعام في (الريتز) .

- وما فعلت ؟

- إيه لقد ذهبت ، طبعاً (كانت تتكلم في مرح متكلف) . إنني أذهب الى

مواعيدي دوماً ، وإن لم يكن أحد يحرص على ذلك ، في هذه الأيام ، لعل في

ذلك درساً ينبغي . وبعدُ فكيف حالك يا « جاك » ؟

- حسنة .

- لقد كانت لطيفة تلك الفتاة التي قدمت بها الى المرقص ، وبعد ذلك كله

تذهب مع تلك التي تدعى « بريث » .

وسأل « كون » :

- أفلا تروق لك ؟

- إنني أجدها ذات لطف آسر ، أفلا تجدها كذلك ؟

ولم ينبس « كون » بكلمة .

اصغ إلي يا «جاك» . أود أن أتحدث إليك بشيء . هل لك أن ترافقني الى (الدوم) وأنت ؟ ستبقى هنا ، أليس كذلك يا «روبرت» ؟ تعال ، يا «جاك» .

وجزنا شارع (مونبارناس) وجلسنا الى طاولة ، واقترب منا غلام يحمل صحف (باريس - تايمس) ، واشترت نسخة وفتحتها .
وقالت :

- أوه ، لا شيء سوى أن يريد أن يتخلى عني .
- ماذا تعنين بذلك ؟

- لقد أعلن للناس كافة أننا سنتزوج . وأخبرت أمي والجميع بذلك . وها هو ذا يرغب الآن عن ذلك .
- لماذا ؟

- لقد ارتأى بأنه لم يعيش كفاية ، كنت أعلم أن ذلك سيقع له حين سافر الى (نيويورك) .

ورمقتني بعينين براقيتين ، متكلفة لهجة عدم الاكتراث .
- لن أتزوجه إذا لم يكن يرغب في ذلك ، إن هذا لمؤكد . ولن أتزوجه ، الآن ، مهما يكن من أمر . ولكن... يبدو لي أن هذا الزواج متأخر ، بعض الشيء ، وذلك بعد أن انتظرت ثلاث سنوات ، وفي الوقت الذي سأحصل فيه على طلاق قريباً .

ولم أقل شيئاً ، وتابعت :

- كان علينا أن نحتفل بذلك ، مبتهجين ، ولكننا عمدنا ، بدلاً من ذلك ، الى الشجار ، إن هذا شيء صبياني ، إن مظاهر الاختلاف المقيت تغلب علينا ، وإنه ليكي راجياً بأن أكون عاقلة ، ثم يقول ، إثر ذلك ، إنه لا يستطيع أن يفعل ذلك .

- يا له من حظ عاثر!

- بلى إنه لحظ عاثر . ينبغي أن أقول ذلك ، ها قد مرت علي معه سنتان

ونصف السنة ، ولا أدري ، حالياً ، إذا كان ثمة إنسان يرغب في أن يتزوجني ، كان في مكنتي أن أتزوج منذ سنتين : أي رجل أردت ، هناك في (كان) . كل الكهول الذين يتشوقون الى الزواج بامرأة مرموقة كانوا مدلهين بي . أما الآن ، فلا أمل أن أعثر على أي رجل .

- من المؤكد أن في ميسورك الزواج بمن تريدين .

- لا ، لا أعتقد بذلك ، أضف الى هذا كله ، إنني أحبه ، وأريد أن يكون لي أطفال . كنت أفكر ، دائماً ، في أننا سنرزق أطفالاً .

وحدجتي بنظرة بראהة .

- إنني لم أحب الأطفال مطلقاً ، ولكنني لم أشأ أن أفكر في أنني لن أنجب أطفالاً قط . كنت أفكر دوماً في أنني سوف أرزق أطفالاً ثم أحبهم .
- أما هو فلهذه أطفال .

- أجل ، لديه أطفال ، ولديه مال ، ولديه أم ثرية ، ولديه كتاب ألفه ، أما أنا فليس ثمة شخص ، أي شخص ، يرغب في نشر ما أكتب ، ومع ذلك ، فإن ما أكتبه ليس برديء ، وليس لدي ، إلى ذلك ، مالٌ ، كان في استطاعتي الحصول على نفقة ولكنني جهدت في أن أحصل على الطلاق ، بأقصى سرعة ممكنة .

وصوبت إلي ، كرة أخرى ، نظرة متقدمة .

- ليس في ذلك عدل ولا نصفة ، ولكنه خطأي ، وهو مع ذلك ، ليس بخطأي . كان علي أن أعرف ذلك على نحو أفضل . وعندما أحدثه بهذا الأمر فإنه يلتبس البكاء ، ويردد أنه لا يستطيع الزواج ، لم لا يستطيع الزواج ؟ سوف أكون له زوجة مثلى ، فليس العيش معي صعباً ، سوف أدعه وشأنه ، هادئاً ، بيد أن ذلك لن يجدي أي شيء .

- إن هذا لمعيب .

- أجل إنه لمعيب ، ولكن لا طائل في الكلام معه ، أليس كذلك ؟ هلا

عدنا الى المقهى ؟

- ليس في مكنتي طبعاً أن أفعل شيئاً .

- لا ، ولكن لا تدعه يعرف أنني أفضيت إليك بشيء ، أنا أعلم ماذا يريد (وتخلت ، لأول مرة ، عن لهجتها المنطلقة المتسمة ببشاشة متكلفة مضنية) إنه يريد أن يعود الى (نيويورك) وحده ، ليكون ثمة حين يصدر كتابه ويرى الى بضع بغايا صغيرات يتحلّقنه معجبات به ، بلى هذا ما يريد .
- قد لا ينظرون إليه بإعجاب ، لا أعتقد بأنه كذلك ، حقاً .

- إنك لا تعرفه جيداً كما أعرفه يا « جاك » ، هذا كل ما يريد ، أنا أعلم .
ولهذا فإنه لا يرغب في الزواج ، إنه يتشوق الى انتصار كبير يظفر به وحده ، هذا الخريف .

- هل تودين أن نعود الى المقهى ؟

- أجل ، هيا بنا .

وتركنا الطاولة (ولم يكن قد أحضر لنا شيء ما ، نشربه) وعبرنا الشارع متخذين سمتنا نحو (السليكت) ، حيث كان « كون » جالساً الى طاولة مرمية ، وابتسم لنا . وسألته «فرانيسيس» :

- وبعدُ ، فما الذي يحملك على الابتسام ، هل تشعر بأنك سعيد ؟
- إنني أبتسم لكليكما ، مع أسراركما .
- أوه ، إن ما ذكرت لـ « جاك » ليس سراً ، ولسوف يعرفه الجميع قريباً ، كنت أريد أن أنفض لـ « جاك » حقيقة الأمر .

- وما هو ؟ هل يتعلق بموضوع سفرك الى (انكلترا) ؟

- أجل ، بموضوع سفري الى (انكلترا) .

- إنه لحسن جداً .

- أجل ، هذا ما يجري لدى أرقى الأسر ، إن « روبرت » هو الذي يحملني على السفر ، سوف ينقذني منتي جنيه ، سوف أذهب لأزور بعض الأصدقاء ، أليس هذا رائعاً ؟ إن الأصدقاء لم يعرفوا بعد ذلك .
والتفتت نحو « كون » وابتسمت له ولكنه لم يكن يبتسم آنذاك .

- لم تكن تريد أن تعطيني سوى مئة جنيه ، أليس كذلك يا « روبرت » ؟
ولكنني ألجأته الى أن يعطيني مئتي جنيه ، إنه في الحق كريم جداً ، أأست
كذلك يا « روبرت » ؟

لا أدري كيف يمكن أن نوجه مثل هذه الكلمات البغيضة الى « روبرت
كون » . ثمة أشخاص ليس في ميسورك أن توجه إليهم شيئاً مهيناً . إنهم
يدعونك تشعر بأن العالم سيتقوض ، سيتقوض في الحال ، أمام بصرك ، إن
نالت منهم كلماتك ، غير أن « كون » تحمل كل هذا . ولقد جرى ذلك أمامي ،
ولم أجد في نفسي أي رغبة في وضع حد لها ، بيد أن ما حدث لم يكن سوى
شيء أقرب الى المزاح إن قيس بما جرى بعد ذلك .
وقال « كون » معترضاً :

- وكيف يمكن أن تفوهي بمثل هذه الأشياء يا « فرانسيس » !

- اصغ إليه ، إنني مسافرة الى انكلترا لأزور بعض الأصدقاء ، هل سبق لك
أن ذهبت لتزور بعض أصدقاء لا يريدونك ؟ أوه ، إن عليهم أن يستقبلوني :
« كيف حالك يا عزيزتي ؟ منذ زمن طويل ، لم نرك ، كيف حال أمك
العزيزة ؟ » . بلى كيف حال أمي العزيزة ! لقد وضعت مالها ، لاستثماره ، في
أسهم الدفاع الوطني ، لقد فعلت ذلك ، إنها الشخص الوحيد - على الأرجح -
الذي فعل ذلك في العالم كله . ثم : كيف حال « روبرت » ؟ أو أن يسأل عن
شخص آخر حريص على أن يجري الحديث حول « روبرت » . أو تفضي واحدة
لأخرى : « ينبغي أن تلتزمي مزيداً من الحذر في التحدث عنه ، يا لفرانسيس
المسكينة ! لقد قدر لها أكبر تجربة مريرة » . أليس هذا طريفاً يا « روبرت » ؟
أفلا تعتقد بأن هذا سيكون طريفاً يا « جاك » ؟

والتفتت نحوي ، وعلى شفثيها تلك الابتسامة الرهيبة المتألقة ، كانت
نشوى أن وجدت مستمعاً لها .

- وأنت يا « روبرت » أين ستكون ؟ إنه خطأي ، حسناً إنه خطأي
تماماً . حين تيسر لي أن أجعلك تتخلص من السكرتيرة الصغيرة في المجلة

كان عليّ أن أعرف أنك سوف تتركني بالطريقة نفسها . إن « جاك » لا يعلم هذه القصة ، هل ينبغي أن أرويها له ؟

- صه يا «فرانسيس» ! بالله عليك إلا سكّتا!

- حسناً ، سأرويها له : كان لـ «روبرت» سكرتيرة صغيرة لمجلته ، إنها الطف فتاة في الدنيا ، كان يجدها رائعة . وأخيراً جئت أنا ووجدني رائعة أيضاً . وحينئذ طلبت إليه أن يتركها ، وذهب بها من (كارمل) الى (بروفنستاون) حين نقل مجلته الى هناك ، ولم يدفع لها أجرة عودتها الى الشاطئ^(١) ، كل هذا ليدخل السرور الى نفسي ، كان يجдени ، آنذاك ، وسمية رائعة ، أليس كذلك يا «روبرت» ؟

يجب ألا تسيء الفهم يا « جاك » ، لم يكن الأمر يعدو كونه حباً عذرياً مع السكرتيرة ، لم يكن عذرياً فحسب ، لا ، لا لم يكن كذلك البتة ، كل ما هنالك أنها كانت لطيفة جداً ليس غير ، ولم يعمد الى ذلك إلا ليدخل السرور الى نفسي . وبعد ، فأحسب أن علينا نحن الذين عشنا بفضل السيف ، أن نقضي بالسيف أيضاً . إن هذا الكلام ، أدنى الى أن يكون أدباً . ألا تريد أن أذكرك به يا «روبرت» من أجل كتابك المقبل ؟

إنك تعلم أن «روبرت» يتهياً لجمع وثائق لكتاب جديد ، أليس كذلك يا «روبرت» ؟ ولهذا السبب فإنه يتخلى عني . لقد قرر أن سحنتي ليست ملائمة للتصوير ، أتدري ؟ لقد كان مشغولاً ، خلال الفترة التي عشناها سوياً ، بكتابة مؤلفه ، الى درجة أنه لا يذكر أي شيء يتصل بنا كليناً ، وهكذا فإنه سيمضي الآن ، بعيداً ، لبحث عن مواد جديدة ، وبعد ، فإنني أتمنى أن يعثر على شيء ذي أهمية كبيرة .

اصغ إلي ، يا «روبرت» ، يا عزيزي . دعني أقل لك شيئاً ، إذا لم يكن لديك مانع ، أسمح به ؟ : تجنّب ، ما استطعت ، أن تتاجر مع صديقاتك

(١) يعني الكاتب بالشاطئ شاطئ كاليفورنيا .

الصغيرات ، بلى ، تجنب ذلك ما استطعت ، فإنك لا تقدر القيام بالمشاجرة ، دون أن تبكي ، فتأخذك الشفقة ، بعد هذا ، على نفسك ، إلى حد لا يتأتى لك فيه أن تتذكر ما قاله الشخص الآخر عنك ، وبهذا ، فإنه لن يكون في ميسورك أن تذكر أطراف الحديث . حاول أن تكون هادئاً . إنني أعلم أن ذلك شاق الى درجة مرعبة ، ولكن لا تنسَ أن ذلك لمصلحة الأدب . علينا جميعاً أن نبذل بعض التضحيات في سبيل الأدب . أنظر إلي ، إنني مسافرة الى (انكلترا) دون اعتراض ، كل هذا من أجل الأدب ، يتعين علينا جميعاً أن نساعد الكتاب الناشئين ، ألا ترى ذلك يا « جاك » ؟ ولكنك أنت لست بكاتب ناشئ ، ألسنت كاتباً ناشئاً يا « روبرت » ؟ إنك تبلغ الرابعة والثلاثين ، ومع ذلك ، فإنني أتصور أن هذه السن أصغر من أن تليق بكاتب كبير ، خذ مثلاً : « هاردي » أو خذ « أناتول فرانس » . لقد مات منذ أمد قريب ، ولكن « روبرت » يرى ، أنه ليس بكاتب جيد ، فقد تناهى هذا القول إليه من بعض أصدقائه الفرنسيين ، وإن يكن نفسه لا يحذق قراءة الفرنسية الحذق كله ، بل إنه ليس بكاتب جيد مثلك يا « روبرت » أليس كذلك ؟ هل تظن أنه قد أتيح له أن يسافر للبحث عن مادة لكتابه ؟ ماذا تحسب أنه كان يقول لخليلاته حين كان يرفض أن يتزوجهن ؟ إنني أتساءل عما إذا كان يبكي أيضاً . أوه ، لقد خطرت في ذهني فكرة (ورفعت يدها الكاسية بالقفاز الى شفيتها) . إنني أعلم السبب الحقيقي الذي يحدو « روبرت » الى عدم رغبته في الزواج بي يا « جاك » . لقد خطرت لي هذه الفكرة الآن ، وجاءتني كأنها إشراقة هنا في (السيليكت) ، تراها فكرة صوفية ؟ سيأتي يوم تردد في سجل القداسة ، كما هي الحال في مدينة (لورد) . هل تود أن تسمعها يا « روبرت » ؟ سأقولها لك ، إنها بسيطة ، إنني أتساءل علام لم أفكر فيها ، من قبل ؟

حسناً ها هي ذي : إن « روبرت » كان يرغب دوماً ، في أن تكون له خلية ، فإذا لم يتزوجني ، فإن في وسعه أن يقول إنه كان لديه خلية ، وانها كانت خليلته طوال عامين ، أرايت ؟ أما إذا تزوجني ، كما كان يعدني بذلك ،

دائماً ، فإن هذا الزواج يضع خاتمة لقصة حبه العذري ، أفلا تجدني ذكية في
تصوري هذا التفسير وحدي ؟ إنه لصحيح... أنظر إليه ترَ أن ذلك كان صحيحاً .
إلى أين أنت ذاهب يا « جاك » ؟

- عليّ أن أذهب لأرى « هارفي ستون » دقيقة واحدة . ورفع « كون »
بصره إليّ ، بينا أنا أمضي . كان وجهه مريداً فيم ظل جالساً ثمة ؟ لم كان
يتلقى ذلك كله على هذا النحو ؟

وكان في ميسوري ، وأنا واقف أمام المشرب أنظر الى الخارج ، أن
أراهما من النافذة ، وكانت « فرانسيس » لا تني تتحدث إليه ، وعلى شفتيها
ابتسامتها المتألقة وهي تحدج وجهه بنظرها ، في كل مرة تردد شيئاً آخر ،
وقلت للساقى ، إنني لا أريد شرب أي شيء . وخرجت من الباب الجانبي .
والتفت ، فيما كنت أتخطى الباب ، فرأيتهما من خلال الزجاج المتضاعف
السّمك وقد لزما مجلسهما ذاك وكانت لا تأتني تكلمه .

وخلصت من جادة صغيرة الى شارع (راسباي) ومرت سيارة تاكسي ،
فاستقلتها وذكرت للسائق عنوان شقتي .

الفصل السابع

وفيما كنت أهم بصعود الدرج ، نقرت البوابة على زجاج باب حجرتها ، ولما توقفت ، قدمت من حجرتها ممسكة برسائل وبرقية .

- هذا هو بريدك ، لقد قدمت سيده لتترك .

- هل تركت بطاقتها ؟

- لا . كانت مع رجل ، إنها السيدة نفسها التي جاءت ، ليلة أمس . لقد وجدت ، بعد روية ، أنها لطيفة جداً .

- أكانت مع أحد أصدقائي ؟

- لا أدري . فلم يأت هذا الى هنا ، من قبل ، كان رجلاً بديناً ، بديناً جداً ، جداً ، إنها لطيفة جداً . لطيفة ، جداً جداً ، لعلها كانت ليلة أمس... (وأراحت رأسها على يدها وهزته من أعلى الى أسفل) أقول ، بصراحة يا مسيو « بارنس » إنني لم أجدها ليلة أمس لطيفة جداً ، وقد كوّنت عنها فكرة أخرى . ولكن اصغ جيداً الى ما أقول انها *elle est très, très gentille* ^(١) ، إنها من أسرة راقية ، إن في ميسورك أن تلاحظ ذلك .

- هل تركا لي كلمة ما ؟

- أجل لقد ذكرا بأنهما سيعودان بعد ساعة .

(١) وردت بالفرنسية في النص أي : إنها لطيفة ، لطيفة جداً . (المعرب)

- ليصعدا إلي حين يقدمان .

- أجل ، يا مسيو «بارنس» . هذه السيدة ، هذه السيدة أنها لشخصية
قد تكون غريبة الأطوار ، ولكنها شخصية ، إنها لشخصية .

كانت هذه البوابة تبيع - قبل أن تصبح بوابة - المرطبات في ميدان
السباق ، في باريس ، وكانت تقوم بعملها على العشب الأخضر ، بيد أن
عينها كانتا تراعيان الأشخاص ذوي المكانة ، وكانت تُزدهى ، حين تنوّه لي
- بين من تراه من ضيوفي - بمن كانت تجده مرموق المكانة ، ومن كان من
عائلة كريمة ، ومن كان رياضياً Sportmen وكانت تلفظ الكلمة ،
بالفرنسية ، مع إمالة للفظ Men . وكان المحذور الوحيد ، أن الأشخاص
الذين لا يقعون في إحدى هذه الزمر الثلاث ، يستهدفون لخطر الجواب منها
بأنه ليس ثمة أحد في شقة المسيو «بارنس» . إن أحد أصحابي (وكان
رساماً ذا مظهر يشي بخصاصة ورقة حال ، ولم يكن طبعاً ، يبدو في اعتبار
السيدة «دوزينيل» البوابة ، لا مرموق المكانة ولا من عائلة كريمة ولا
رياضياً) كتب إلي ، ذات يوم ، رسالة ، يطلب إلي فيها تذكرة مرور يعرضها
على البوابة ، ليتيسر له أن يصعد ليراني مساء ، في الوقت المناسب .

وصعدت إلى شقتي ، متسائلاً عما يمكن أن تكون «بريت» قد قامت
به نحو البوابة . وكانت البرقية مرسلة من «بيل غورتون» يذكر فيها أنه قادم
على باخرة (فرانسا) . ووضعت الرسائل على المنضدة ، ودخلت حجرة
النوم ، وخلعت ثيابي وأخذت دوشاً ، وبينما كنت أتنشف ، سمعت رنين
جرس الباب وارترديت مبذلي وانتعلت صندلتي ، ومضيت إلى الباب . كانت
«بريت» وكان الكونت خلفها ، يحمل باقة كبيرة من الورد . وقالت
«بريت» :

- هالو يا عزيزي ، هلاً أذنت لنا بالدخول .

- تفضلاً ، لقد كنت أغتسل . .

- يا لك من رجل سعيد! حمام .

- إنه دوش ليس غير ، تفضل بالجلوس ، كونت «ميسيبولوس» هل تودان شرب شيء ما ؟
وقال الكونت :
- لا أدري إن كنت تحب الورد يا سيدي ، ولكنني سمحت لنفسي بأن أجلب لك هذه الوردات .
- هاتها ، أعطني إياها ، (وتناولتها «بريت») إيت ببعض الماء ملء هذا يا جاك .
- وملأت الكراز^(١) الكبير الترابي ، ماء في المطبخ ، وغمست فيه «بريت» الوردات ، ثم وضعته في وسط طاولة حجرة الطعام .
- حقاً ، إننا نعمنا بنهار ممتع .
- هل تذكرين شيئاً ما يتعلق بموعد لي في (الكريون) ؟
- لا ، أكان لدينا موعد ؟ لابد أنني كنت آنذاك متعة سكرأ .
- وقال الكونت :
- كنت سكرى وحسب ، يا عزيزتي .
- أجل أليس كذلك ؟ إن الكونت ، في الحق ، لبق جداً .
- إن البوابة ، اليوم ، مفتونة بك وأي اقتتان!
- كنت أستحق ذلك جيداً فقد منحتها منتي فرنك .
- ينبغي ألا تقومي بحماقات مماثلة .
- وقالت وهي تدل على الكونت بإيماءة من رأسها :
- إنها من ماله .
- لقد رأيت أن علينا أن نعطيها شيئاً يسيراً ، عقب ليلة أمس ، وقد كان ذلك متأخراً جداً آنذاك .
- وقالت «بريت» :

(١) وعاء كالكوز خيق العنق .

- إنه لرائع ، إنه يتذكر كل ما يجري .

- وأنت أيضاً يا عزيزتي .

وقالت «بريت» :

- ففكر قليلاً ، فيمن كان يرغب في ذلك ، وبعدُ فهل سنشرب شيئاً ما يا

« جاك » ؟

- تناولوا ما تشاءان ، ريثما أذهب وأرتدي ثيابي . أنت تعلمين أين

توجد أدوات الشرب .

- وكيف لا أعلم!

وكان يتناهى الى سمعي ، فيما كنت أرتدي ثيابي ، وسوسة الأقداح

تضعها «بريت» الى جانب السيوفون فوق الطاولة ، وسمعتهما يتحدثان

وجعلت أرتدي ثيابي متمهلاً ، وأنا جالس على طرف السرير ، وشعرت بأنني

متعب ، موهون القوى ، ودلفت «بريت» الى الغرفة ، وفي يدها قدح وجلست

على حافة السرير .

- ماذا تشكو يا عزيزي ؟ أتشعر بضيق ؟

وباست جيبني في فتور .

- أوه «بريت» أحبك كثيراً .

وقالت :

- يا حبيبي (واستطردت) هل تريد أن أصرفه ؟

- لا ، إنه لطيف .

- سأذهب لأصرفه .

- لا ، لا تفعلي ذلك .

- بلى ، سأصرفه .

- لا يمكن أن تفعلي ذلك على هذا النحو .

- ألا أستطيع ؟ مهلاً ، ابق هنا ، إنه مجنون بي ، أؤكد لك .

وخرجت من الغرفة . وتمددت منطرحاً ووجهي الى السرير ، كنت

تعباً ، وسمعتهما يتكلمان ، ولكنني لم أصغ إليهما ، ودخلت «بريت» وجلست على حافة السرير .

- يا حبيبي العزيز المسكين .

وجعلت تداعب شعري .

كنت ممدداً ، منحياً وجهي عنها ، فلم أكن أريد أن أراها .

- لقد طلبت إليه أن يشتري شمبانيا ، إنه يكلف بالذهاب بحثاً عن الشمبانيا .

وسكتت هنيهة ثم سألتني :

- هل تشعر بتحسن يا حبيبي ؟ هل يشعر هذا الرأس بتحسن ؟

- إنه في تحسن .

- تمدد مطمئناً ، لقد ذهب الى أقصى طرف من المدينة .

- «بريت» ألا يمكن أن نعيش معاً ؟ ألا يمكن أن نعيش معاً وحسب ؟

- لا أظن ذلك ، سوف أخونك مع الناس كافة . ولن يكون في وسعك أن تطيق ذلك .

- إنني أطيعه الآن .

- يختلف هذا الوضع عن ذاك . إنه خطأي يا جاك . وإنها الطريق التي

رُسمت لي .

- أفلا يمكن أن نذهب الى الريف بعض الوقت ؟

- ليس هذا بمجد لنا في شيء ، سأذهب إن رغبت في ذلك ، ولكنني لا

أقوى على العيش هادئة في الريف ، حتى مع صديق قلبي .

- أعلم ذلك .

- أي فائدة في أن أقول لك : أحبك ، أليس هذا مثيراً للاشمئزاز ؟

- إنك تعلمين أنني أحبك .

- لنمسك عن الكلام في هذا الشأن ، إن كل ما نقول هو هذر ليس غير ،

سوف أذهب وأبتعد عنك . ثم إن «ميشيل» يوشك أن يعود .

- لماذا تذهبين ؟

- إنه أجدى لي ولك .

- متى ستذهبين ؟

- متى استطعت ذلك .

- إلى أين ؟

- إلى (سان سيباستيان) .

- ألا نستطيع أن نذهب معاً ؟

- لن تكون سوى فكرة فاشلة ، بعد كل ما ذكرناه الآن .

- إننا دوماً على غير اتفاق .

- أوه إنك لتعرف مثل ما أعرف ، لا تكن عنيداً ، يا عزيزي .

وقلت :

- أوه ، طبعاً أعلم أنك على صواب ، أشعر بصداق ليس غير ، وحين

أشكو صداقاً فإنني أتحدث كمجنون .

وجلست على السرير ، وانحنيت لأمسك بحذائي ، وبعد أن انتعلتهما

نهضت .

- لا تصطنع هذه السحنة يا عزيزي .

- أي سحنة تريد أن أصطنع ؟

- لا تفه بهذه الحماقات ، سأسافر غداً .

- إذن فلنشرب قدحاً ، إن الكونت يوشك أن يعود .

- بلى إنه قادم وشيكاً . أتدري ؟ إنه لمدersh حين يكون الأمر متعلقاً

بالشمبانيا . إنها كل شيء ، بالنسبة إليه .

ومضينا الى حجرة الطعام ، وتناولت زجاجة البراندي وصببت منها لي

ولد «بريت» . ورن جرس الباب ، وذهبت لأفتح ، فإذا هو الكونت ، وخلفه

السانق يحمل سلة ملأى بالشمبانيا .

وسألني الكونت :

- أين ينبغي أن أطلب إليه وضعها يا سيدي ؟

وقالت «بريت» :

- في المطبخ .

وقال الكونت مشيراً بيده :

- ضعها هنا يا «هنري» . والآن اذهب وإيت بالجليد (وكان ينظر الى

السلة ، من باب المطبخ) أعتقد بأنكما ستجدان هذه الخمر جيدة جداً ، إنني أدري أنه ليس ثمة حظ كبير في أن نحكم على خمر بأنها جيدة في الولايات المتحدة ، حالياً ، غير أنني حصلت على هذه الزجاجات بفضل صديق يعمل في تجارة الخمر .

وقالت «بريت» :

- أوه . إن لك دوماً معارف في ميدان التجارة .

- يُعنى هذا الشخص بزراعة الكرمة . إن لديه آلاف الأكرات (١) من

الأراضي .

- ماذا يدعى ؟ «فوف كليلو» ؟

وأجاب الكونت :

- لا ، بل «مامس» ، إنه بارون .

وقالت «بريت» :

- أليس هذا رائعاً ؟ إن لنا جميعاً ألقاباً كريمة . لم لا يكون لديك لقب ،

يا «جاك» ؟

وقال الكونت :

- أؤكد لك يا سيدي ، (ووضع الكونت يده في ذراعي) ، أن هذا لا يعود

بالنفع على أحد ، إنه في أغلب الأحيان ، مجلبة لصرف المال .

وقالت «بريت» :

- أوه ، لا أدري ، إنه ، أحياناً ، ضروري جداً .

- أما أنا ، فإنني لم أفد منه شيئاً .

- إنك لم تعرف كيف تفيد منه ، أما لقبي فقد أعطاني رصيذاً جهنمياً .
وقلت :

- تفضل بالجلوس ، سيدي الكونت ، دعني آخذ عنك عصاك .

وكان الكونت يرامق «بريت» عبر الطاولة ، تحت المصباح . وكانت
تدخن سيكارتها وتدع رمادها يقع على السجادة ، ولمحتني وأنا ألحظها .
- «جاك» لا أريد أن أتلّف سجادتك ، ألا تستطيع أن تجلب لي منفضة
سكاير ؟

وعثرت على بعض المنافض ، فوزعتها حولنا ، وصعد السائق يحمل
سطلاً مليئاً بالجليد المملّح .

وقال الكونت بصوت عال :

- ضع زجاجتين في السطل يا «هنري» .

- أتريد شيئاً آخر ، يا سيدي ؟

- لا ، انتظر في السيارة (والتفت إلي وإلى «بريت») هلاً قمنا بجولة في
الغابة قبل أن نتناول الطعام ؟

وقالت «بريت» :

- إذا شئت ، فقد لا أكون قادرة على أن أطعم شيئاً .

وسأل السائق :

- هل يرغب سيدي في أن آتي بالخمير ؟

وقال الكونت :

- أجل ، إيت بها يا «هنري» .

وأخرج علبة سكاير ثقيلة مصنوعة من جلد الخنزير ، وبسطها لي :

- هل تود أن تجرب تدخين سيجار حقيقي أمريكي ؟

وقلت :

- شكراً سوف أنهي هذه السيكارة .

وقرط طرف سيجاره بموسى مذهبة كان يحملها ، منوطةً بطرف سلسلة
ساعته .

- أحب السيجار الذي يمتص دخانه ، في يسر . إن نصف ما يدخن من
أصناف السيجار يمتص دخانه في مشقة .

وأشعل سيجاره . وسحب منه نفساً ، فيما كان يرامق « بریت » عبر
الطاولة .

- وحين تحصلين على الطلاق ، يا لادي « اشلي » ، فلن تتمتعني بأي
لقب .

- لا ، وأأسفاه .

وقال الكونت :

- لا ، لست بحاجة الى لقب فإنك كريمة النسب ، من رأسك الى أخمص
قدميك .

- شكراً ، هذا لطف منك .

- أنا لا أمزح (ونفث الكونت غمامة من الدخان) إنني لم أر أكرم نجاراً
منك . هذا كل ما هنالك .

وقالت « بریت » :

- إنه لطف كريم منك . إن هذا ليجعل أُمي مسرورة جداً ، أفلا تستطيع
أن تكتبه لي ، لأبعثه إليها في رسالة ؟

وقال الكونت :

- سوف أقوله لها أنا أيضاً ، أنا لا أمزح ، أنا لا أمزح أبداً . إن اصطناع
المزاح مع الناس ، هو خير وسيلة لخلق الأعداء . هذا ما أردده دوماً .

وقالت « بریت » :

- إن ما تقوله لصحيح ، لصحيح ، بصورة مذهشة ، إنني أمزح دائماً مع
الناس كافة ، وليس لدي صديق واحد ، فيما « عدا جاك » .

- لأنك لا تمازحينه .

- حقاً .

قال الكونت :

- والآن ، ألا تمازحينه ؟

ونظرت إلي « بریت » ثم غمزت بعينيها وقالت :

- لا ، لا أريد أن أمازحه هو .

وقال الكونت :

- ألا ترين ؟ إنك لا تمازحينه .

وقالت « بریت » :

- إن هذا الحديث متعب جداً ، ما رأيكم في تذوق شيء من الشمبانيا ؟

وغمس الكونت يده في الماء وجعل يدير الزجاجتين في السطل البراق .

- لم تبترد بعد ، إنك لا تفكرين إلا في الشراب يا عزيزتي ، لم لا

تقتصرين على الكلام فحسب ؟

- لقد تكلمت كثيراً جداً . وقلت ما يتعين علي قوله لـ « جاك » .

- لكم أحب أن أرى إليك تتحدثين حقاً يا عزيزتي ، فإنك حين تتحدثين

إلي لا تنهين جملتك البتة .

- إنني أدع لك العناية بإنهائها ، ذر كل إنسان ينه جملة كما يهوى .

- إنه لنهج حقيقي بالاهتمام (وانحنى الكونت وجعل يدير الزجاجتين) ،

ومع هذا فكم أود أن أسمعك تتكلمين أمداً ما .

وسألت « بریت » :

- تراه مجنوناً ؟

- آه (وأخرج الكونت زجاجة) أحسب أن هذه باردة .

وأحضرت منشفة مسح بها الزجاجات ثم شالها بيده عالياً .

- أحب شرب الشمبانيا ذات القارورة الكبيرة ، إن خمرها ألذ مساعاً .

ولكن يصعب كثيراً تبريدها .

وكان يمسك بالزجاجة ، متأملاً فيها ، ووضعت الأقداح ، وقالت
« بریت » مقترحة :

- إن في استطاعتك فتحها إذن .

- أجل يا عزيزتي سأفتحها الآن .

كانت الشمبانيا مدهشة .

- هذه هي الخمر ، (ورفعت « بریت » قدحها) هلا شربناها على نخب

شيء ما... على نخب الملكية .

- إن هذه الخمر هي أكبر من أن تشرب على نخب شيء ما ، يا

عزيزتي ، لا ينبغي أن نحشر العواطف مع خمر كهذه وإلا فقدت طيب

مذاقها... وأضحى قدح « بریت » فارغاً .

وقلت :

- ينبغي أن تؤلف كتاباً عن الخمر يا سيدي الكونت .

وأجاب الكونت :

- يا سيد « بارنس » ، إن كل ما أبتغيه هو التمتع بمذاقها .

- دعنا نتمتع بمزيد يسير من هذه الخمر .

ومدت « بریت » قدحها ، وصب الكونت الخمر ، في عناية ظاهرة .

- ها هي ذي ، يا عزيزتي . تمتعي بمذاقها ، على مهل ، وبعد هذا

يضحي في ميسورك أن تسكري منها .

- أن أسكر! أن أسكر!

- إنك فاتنة حين تكونين سكرى يا عزيزتي .

- اصغ الى ما يقول هذا الرجل .

- يا سيد « بارنس » (وملاً الكونت قدحي) إنها السيدة الوحيدة التي

أعرف أنها فاتنة حين تكون سكرى وحين تزهد في الشرب .

- لقد سحت كثيراً ، أليس كذلك ؟

- بلى يا عزيزتي ، لقد سحت كثيراً ، وتجولت تجوالاً موصولاً مديداً .

وقالت «بريت» :

- اشرب خمرك ، لقد تجولنا كلنا ، إنني لأجرؤ على القول إن « جاك »
قد رأى مثل ما رأيت أنت .

- يا عزيزتي ، إنني لوائق بأن السيد « بارنس » قد رأى أشياء جمّة ، لا
تحسب أنني أشك في ذلك يا سيدي ، لقد رأيت أنا أشياء كثيرة .
وقالت «بريت» :

- طبعاً يا عزيزي لم أكن أقصد سوى الثرثرة .

وقال الكونت :

- لقد خضت سبع حروب ، واشتركت في أربع ثورات .

وسألت «بريت» :

- كجندي .

- أحياناً يا عزيزتي ، وقد أصبت بجراح سهام ، هل رأيتما جراح سهام
من قبل ؟

- أرنا إياها .

ونفض الكونت وفك أزرار صدره وفتح قميصه ورفع صدره عن حقويه ،
حاسراً عن صدره الأسمر ، وعضلات بطنه الصلبة التي كانت بارزة في الضوء .
- هل رأيتماها ؟

وتراءت تحت أضلعه ندبتان بيضاوان .

- انظرا إلى المكان الذي خرج منه السهم في الظهر .

وتراءت ندبتان متماثلتان كبيرتان في حجم الإصبع ، في أسفل الظهر .

- إيه ، إن هذا ليس بالشيء اليسير .

- نفذ السهم من طرف الى طرف .

وأدخل الكونت قميصه ، وسأله :

- أين حدث لك هذا ؟

- في الحبشة ، وكنت في الحادية والعشرين من عمري .

وسألت «بريت» :

- ماذا كنت تفعل ثمة ؟ هل كنت في الجيش ؟

- كنت في رحلة أعمال يا عزيزتي .

وقالت «بريت» ملتفتة إليّ :

- لقد قلت لك إنه من زمرتنا ، إنني أحبك يا كونت ، إنك لحبيب عزيز .

- إنك تغمريني بالسعادة ، يا عزيزتي ، ولكن هذا ليس بصحيح .

- لا تكن حماراً .

- أفلا ترى يا سيد «بارنس» أن في مكنتي أن أتمتع جيداً بكل شيء ،

لأنني عشت حياتي على نحو عنيف خصب .

- أجل بكل تأكيد .

وقال الكونت :

- إنني أعلم أن هنا يكمن السر : ينبغي عليك أن تقدر القيم حق قدرها .

وسألت «بريت» :

- أفلا يطرأ شيء ما على قيمك هذه ؟

- لا . أبداً .

- ألم تكن عاشقاً ، يوماً ما ؟

وأجاب الكونت :

- دوماً ، إنني دوماً عاشق .

- وماذا يفعل الحب بقيمك هذه ؟

- إن للحب أيضاً مكاناً بين قيمي .

- ليس لك قيم البتة ، أنت ميت ليس غير .

- لا يا عزيزتي ، أنت مخطئة لست بميت أبداً .

وشربنا ثلاث زجاجات من الشمبانيا ، وترك الكونت السلة في مطبخي ،

وتناولنا طعام العشاء في مطعم بالغاثة . وكان عشاء ممتازاً شهياً . فقد كان

الطعام يشغل مكاناً ملحوظاً بين قيم الكونت ، مثل المكان الذي تشغله

الخمر . وكان الكونت ملتزماً جانب اللياقة والكياسة مع النساء ، وكذلك كانت «بريت» وكان هذا أبعث على البهجة .

وسأل الكونت عقيب العشاء :

- إلى أين تودان أن نذهب ؟

وكنا الأشخاص الوحيدين في المطعم ، وكان الخادمان يقفان قريباً من الباب . كان يبدو أنهما يرغبان في الذهاب الى بيتهما .

وقالت «بريت» :

- في ميسورنا الآن أن نذهب الى (الرابية)^(١) . أرايت ما أطيب هذا العشاء ؟

وشاع السرور في محيا الكونت ، كان سعيداً جداً ، وقال :

- إنكما لطيفان جداً (وكان يدخن سيكاراً آخر) لم لا تتزوجان ؟
وقلت :

- كلانا يريد أن تكون حياته مستقلة .

وقالت «بريت» :

- لكل منا أوضاعه ، هيا بنا ، لنذهب من هنا .

وقال الكونت :

- لنشرب قدحاً آخر من البراندي .

- اشربه هناك على (الرابية) .

- لا . لنشرب هنا ، حيث يتوفر الهدوء .

وقالت «بريت» :

- إيه! دعنا منك ومن هدوئك! ما هذا الذي يلتمسه الرجال في الهدوء ؟

وقال الكونت :

- إننا نلتمسه كما تلتمسين أنت الضجة يا عزيزتي .

(١) يعني المؤلف بها (مونمارتر) القائمة على رابية . (المعرب)

وقالت «بريت» :

- حسناً ، اطلب لنا قدحاً آخر .

ونادى الكونت :

- يا غلام!

- نعم يا سيدي!

- ما هي أعتقد براندي لديكم ؟

- ١٨١٢ يا سيدي .

- إيت لنا بزجاجة .

- ما هذا ، لا تكن متلافاً ، امنعه يا « جاك » .

- اصغي إلي يا عزيزتي . إنني أهب لمالي ، حين أبذله في خمر معتقة

قديمة ، قيمة تربو على قيمته حين أبذله في شراء قنية من الآثار القديمة .

- أ يوجد لديك كثير من الآثار القديمة ؟

- لدي بيت مليء بها .

وأخيراً مضينا صعداً الى (مونمارتر) . وكان ملهى (زيلي) غاصاً

بالناس ، وكان مشحوناً بالدخان ، صاخباً ، وكانت الموسيقى تضربك

بنغماتها من وصيد الصالة . ورقصت مع «بريت» . وكان حشد الراقصين من

الكثرة بحيث لم يكن في ميسورنا أن نتحرك إلا في مشقة . ولوح الطبال

الزنجي بيده لـ«بريت» . وألفينا أنفسنا في الزحام ، أمامه ، ونحن نرقص في

مكان واحد لا نكاد نريم .

- كيف الحال ؟

- جيدة .

- هذا حسن .

- وبدا كأنه كتلة من الأسنان والشفاه . وقالت لي «بريت» :

- إنه صديق حميم لي . وإنه لقارع طبل لعين .

وتوقفت الموسيقى ، فاتخذنا سمتنا نحو الطاولة التي كان يجلس إليها

الكونت ثم استأنفت الموسيقى عزفها ، فرقصنا . ونظرت الى الكونت ، وكان جالساً الى الطاولة يدخن سيجاره . وتوقفت الموسيقى كرة أخرى .
- هيا بنا نجلس .

واتجهت «بريت» الى الطاولة ، وعادت الموسيقى الى العزف ، فرقصنا أيضاً ، مضغوطين في الزحام .

- إنك لراقص رديء يا «جاك» . إن «ميشيل» أحسن راقص عرفت .
- إنه لرائع .

- إن له مزاياء .

وقلت :

- إنني أضمر له الود وأحبه كثيراً .

وقالت «بريت» :

- سوف أتزوجه ، إنه لشيء طريف أن لم أفكر فيه البتة منذ أسبوع .

- ألا تكتبين إليه ؟

- لا . أنا لا أكتب رسائل أبداً .

- أراهن بأنه يكتب إليك .

- طبعاً ، إن رسائله رقيقة جداً .

- متى ستزوجينه ؟

- كيف تريد مني أن أعرف ؟ حالما أحصل على الطلاق . إن «ميشيل»

يحاول أن يقنع أمه لتساعده في تسديد النفقات .

- هل يمكنني أن أساعدك في شيء ؟

- لا تكن حماراً ، إن أسرة «ميشيل» تملك أموالاً طائلة .

وتوقفت الموسيقى ، ومضينا الى الطاولة ، ونهض الكونت قائماً وقال :

- لطيف جداً ، إنكما تبدوان لطيفين جداً جداً .

وسألت :

- ألا ترقص يا سيدي الكونت ؟

- لا ، إنني شيخ هرم .

وقالت «بريت» :

- إيه ، على رسلك .

- يا عزيزتي ، إنني لأرقص لو أنني ألفيت في الرقص متعة لي ، ولكنني أجتزئ متعة مشاهدته .

وقالت «بريت» :

- بديع جداً! سوف أرقص ، من جديد ، من أجلك . قل لي ، بالمناسبة ، كيف حال صديقك الصغير «زيزي» ؟
- دعيني أقل بصراحة . إنني أنفق على هذا الفتى ولكنني لا أسيغ صحبته .

- إنه ، على الجملة ، شخص مضايق .

- أتدريين ؟ أعتقد بأن له مستقبلاً ، ولكنني لا أرغب ، شخصياً ، في أن يلازمني .

- إن «جاك» يرى رأيك تقريباً .

وقلت :

- إنه يثير أعصابي .

- أجل (وهز الكونت كتفيه) ، أما ما يتعلق بمستقبله ، فلا يمكن التنبؤ بشيء ، على أي حال ، فإن أباه كان صديقاً حميماً لأبي .

وقالت لي «بريت» :

- هيا بنا نرقص .

ورقصنا ، وكان ثمة حشد من الراقصين . وكان الهواء خائناً . وقالت لي «بريت» :

- أوه يا حبيبي ، إنني جد بائسة .

وجاذبني شعور بأنني سأمرّ بشيء كان قد حدث لي من قبل .

- لقد كنت سعيدة منذ دقيقة .

وكان الطبال يزعم :

- « إنك لا تقدر مرتين... » .

- لقد انتهى كل شيء .

- ماذا جرى لك ؟

- لا أدري ، أشعر بضيق رهيب .

- « ... » .

كان يردد الطبال منشداً ، ثم استدار وأمسك بعصويه .

- هل تريد أن نذهب ؟

ولزممني شعور ، كما لو كنت أرى كابوساً يتكرر فيه كل شيء ، وأنني قد مررت بذلك ، وأن عليّ أن أمرّ به كرة أخرى .

- « ... » .

كان الطبال ينغم لحنه في بطنه .

وقالت « بريث » :

- لنذهب ، أليس لديك مانع ؟

- « ... » .

وجعل الطبال يزعم في غنائه مكشراً لـ « بريث » عن أسنانه .

وقلت :

- حسناً ، فلنذهب .

وخرجنا من زحمة الراقصين ، ومضت « بريث » الى حجرة الملابس .

وقلت للكونت :

- إن « بريث » ترغب في الذهاب...

وهز رأسه :

- حقاً ؟ حسناً . اذهبا بسيارتي ، سأبقى قليلاً هنا ، يا سيد « بارنس »

وتصافحنا ، وقلت :

- سهرة ممتعة ، أود لو تسمح لي بأن أدفع أنا الحساب .

وقال الكونت :

- لا تكن مضحكاً ، يا سيد « بارنس » .

وقدمت « بریت » وقد تلفعت بمعطفها وباست الكونت ثم أراحت يدها على كتفه لتحول دون نهوضه من مجلسه . وفيما كنا نتخطى الباب خارجين ، التفت فإذا بي أرى ثلاث فتيات جالسات الى طاولته . وركبنا السيارة الكبيرة ، وذكرت « بریت » للسائق عنوان فندقها .

وقالت لي أمام الفندق :

- لا ، لا تصعد .

ورننت الجرس وفتحت الباب .

- حقاً ؟

- لا ، أرجوك .

وقلت :

- ليلة سعيدة يا « بریت » . إنه ليزعجني أن تكوني مريضة .

- ليلة سعيدة يا « جاك » ، ليلة سعيدة يا عزيزي ، لا أود أن أراك بعد الآن .

وتعانقنا ، واقفين ، أمام الباب . ودفعني ، ثم عاودنا التقييل . وقالت « بریت » :

- أوه ، لا ، أرجوك .

وانفلتت مسرعة ودخلت الفندق ، وعاد بي السائق الى شقتي ، ومنحته عشرين فرنكاً ، وأمسك بقبعته وقال :

- ليلة سعيدة يا سيدي .

ومضى ، ورننت الجرس ، وفتحت الباب ، وصعدت ثم فزعت الى السرير .

الجزء الثاني

الفصل الثامن

لم يتح لي أن أرى «بريت» إلا عقب عودتها من (سان سيباستيان) وكانت قد أرسلت إليّ صورة تجلو منظر (الكونشا) . وخلفها خطت هذه الكلمات : «عزيزي : إنني بصحة جيدة ، تحياتي الودية الى جميع الرفاق - «بريت» .

ولم أرَ «روبرت كون» أيضاً . وقد تناهى إليّ أن «فرانسيس» سافرت الى (انكلترا) ، وتلقيت رسالة وجيزة من «كون» ذكر فيها أنه سيمضي أسبوعين في الريف ، لا يدري أين . وأنه يوصيني بأن أتمسك برأيي في القيام برحلة صيد الى (اسبانيا) ، وكنا تحدثنا بهذا الموضوع في الشتاء الماضي ، وأنتني أستطيع أن أتصل به ، دوماً ، بواسطة مصرفه .

وكانت «بريت» قد سافرت ، ولم تعد تزعجني مشاكل «كون» البتة ، وكنت في الحق ، مسروراً إن لم يتح لي أن ألعب التنس ، إذ كان علي أن أنهى أعمالاً شتى . وكنت أتردد ، غالباً ، على ميدان السباق ، وأتناول طعام الغداء مع أصدقاء لي . وكنت أعمل ساعات إضافية لأتمكن من الاعتماد على سكرتيري حين أسافر الى اسبانيا مع «بيل غورتون» في نهاية حزيران (يونيو) . وقدم «بيل غورتون» وأمضى يومين في شقتي ثم سافر الى (فيينا) . وكان يردد لي أن (الولايات المتحدة) رائعة وأن (نيويورك) رائعة . وأنه قد مر موسم مسرحي رائع ، وأنه قد تألقت أسماء شباب ملاكمين من

الوزن الخفيف الثقيل ، وأنه يؤمل بأن يكبر كل واحد منهم ، ويضخم ويطوح بـ«دامبسي» . وكان «بيل» بادي الغبطة ، فقد عاد عليه كتابه الأخير بمال وفير ، وكان يتوقع أن يظفر منه بمزيد من الربح ، وكان عليه أن يعود بعد ثلاثة أسابيع ، ثم نسافر ، بعدئذ ، الى (اسبانيا) للصيد وحضور حفلات الأعياد (الفيسستا)^(١) في (بامبلونة) . وقد كتب إليّ : إن (فيينا) مدينة رائعة ، وأرسل إليّ بطاقة من (بودابست) تتضمن ما يلي : «جاك» : إن (بودابست) رائعة . ثم بعث ببرقية تقول : سوف أصل الاثنين .

وفي مساء يوم الاثنين ، عاد الى شقتي ، فقد سمعت أطيّط سيارة التاكسي تقف ، ومضيت الى النافذة وناديت ، فلوح لي بيده ، وصعد الى عليّ ، حاملاً حقائبه . والتقيت به على الدرج ، وحملت إحدى حقائبه ، وقلت : - حسناً . هكذا قمت برحلة رائعة .

وقال :

- رائعة ، إن (بودابست) رائعة جداً .

- و(فيينا) ؟

- ليست مثلها في الروعة يا «جاك» ، ليست مثلها البتة ، إنها تتراءى

أجمل مما هي في الواقع .

- ماذا تعني بذلك ؟

وكنّت بسبيل إحضار قدحين وسيفون .

- لقد تلقيت فيها الشيء العجيب .

- إنه لعجيب ، من الأفضل أن تحتسي قدحاً .

وحك «بيل» جبهته ، وأردف يقول :

- إنه لشيء غريب فريد ، لا أدري كيف جرى ذلك ، لقد جرى فجأة...

- وهل دام ذلك أمداً طويلاً ؟

(١) الفيسستا : Fiesta تعني العيد في الاسبانية .

- أربعة أيام ، يا « جاك » دام أربعة أيام .

- وأين ذهبت ؟

- لا أذكر ، لقد أرسلت إليك بطاقة ، أتذكر ذلك جيداً .

- وهل فعلت شيئاً آخر ؟

- لست متأكداً . إنه ممكن .

- قص علي ما جرى لك .

- ليس في ميسوري أن أتذكر ، لقد ذكرت لك كل ما أتذكره .

- هلاً شربت قدحاً ، لعلك أن تتذكر .

وقال « بيل » :

- في وسعي أن أتذكر شيئاً يسيراً . أتذكر شيئاً ما أشبه بحفلة ملاكمة ، حفلة ملاكمة هائلة في (فيينا) . كان هناك ، زنجي ، إنني أتذكر الزنجي جيداً .

- أكمل .

- زنجي رائع ، كان يشبه « تيجر فلاورس » ، ولكنه أضخم منه بأربعة أضعاف ، وعلى حين غرة ، أخذ الناس يقذفون بأشياء دون أن أشاركهم في ذلك ، فقد طرح الزنجي مواطناً من بلدهم على الأرض . ورفع الزنجي قفازه ، وهمّ بإلقاء خطاب ، غير أن المواطن الأبيض لكمه ، فطوّح به الزنجي ، وعندئذ ، شرع الجميع يقذفون المقاعد . وعاد الزنجي الى البيت بسيارتنا ، ولم يتح له أن يرتدي ثيابه ، فتلفع بمعطفي . إنني أتذكر ، اللحظة ، كل شيء ، كانت أمسية رياضية كبيرة .

- وماذا حدث بعد ذلك ؟

- لقد أعرت الزنجي بعض الثياب ثم ذهبت معه ، نحاول أخذ ما يستحق من مال . فادّعوا بأن الزنجي مدين لهم ، لما أصاب الصالة من أضرار . إنني أتساءل عنم كان يترجم له آنذاك ، أترى كنت أنا ؟

- على الأرجح ، لم تكن أنت .

- أصبت ، لم أكن أنا ، كان ثمة شخص آخر ، أحسب أننا كنا ندعوه بمواطن (هارفارد) . إنني أتذكره الآن ، كان يدرس الموسيقى .
- وكيف مضيت من هناك ؟

- لم ينته الأمر على نحو حسن جداً يا « جاك » ، الجور سائد في كل مكان .

لقد ادعى المدير بأن الزنجي خالف العقد ، فليس مسموحاً بأن يطوح على الأرض (نوك آوت) في الملاكمة ، في فيينا ، بمواطن منها . وقال لي الزنجي : « يا إلهي ، إنني لم أفعل شيئاً ، في مدى أربعين دقيقة ، سوى أنني كنت أدعه واقفاً ، ولكن لا بد أن الفتى الأبيض قد أصيب بشيء ما ، وهو يندفع نحوي . إذ لم ألكمه لكمة واحدة .

- وهل حصلتما على شيء من المال ؟

- لم نحصل على شيء ، وكل ما فزنا به هو ثياب الزنجي ، بل إن أحدهم ظفر بساعته ، يا له من زنجي رائع! إنه خطأ فاحش ، أن تسافر الى (فيينا) فليست جميلة رائعة يا « جاك » . ليست رائعة .

- ماذا جرى للزنجي ؟

- لقد عاد الى (كولونيا) ، حيث يقيم . إنه متزوج ورب عائلة ، وسوف يكتب لي رسالة ويعيد إلي المال الذي أقرضته إياه . إنه زنجي رائع ، أرجو أن أكون قد أعطيته عنواني الصحيح .
- على الأرجح أنك فعلت ذلك .

وقال « بيل » :

- حسناً ، لنذهب ، على أي حال ، وتتناول طعام العشاء . إلا إذا رغبت في أن أورد لك قصصاً أخرى عن رحلتي .

- تابع حديثك .

- دعنا نطعم شيئاً .

ونزلنا ، ثم خرجنا الى شارع (سان ميشيل) . كانت أمسية رائعة من

أماسي حزيان (يونيو) .

- إلى أين سنذهب ؟

- هل تود أن تتعشى في الجزيرة ؟

- بكل تأكيد .

ومشيئنا في الشارع ، وكان ينتصب ، عند التقاء هذا الشارع بشارع
(دانفير روشيرو) تمثال لرجلين بثياب متموجة .

- إنني أعلم من هما (وكان « بيل » يتطلع الى التمثال) . إنهما السيدان
اللذان أوجدا علم الصيدلة . لا تحاول أن تشدني الى « باريس » .
وتابعنا السير ، وقال « بيل » :

- ها هو ذا بائع الحيوانات المحنطة ، هل تريد أن تشتري شيئاً ما : كلباً
جميلاً محنطاً ؟
قلت :

- هيا بنا ، يخيل إلي أنك سكران .

- إن الكلاب المحنطة لطيفة ، إنها تؤنس شقتك .

- تعال .

اشتري كلباً محنطاً واحداً ، لك أن تأخذ واحداً أو أن تتركه . اصغ إلي يا
« جاك » كلباً واحداً فحسب .
- هيا بنا .

- إنه يفسر ، بعد شرائك له ، كل شيء في الدنيا ؛ إنه يمثل تبادل
المنافع ليس غير . أنت تعطي مالاً ؛ لتنال كلباً محنطاً .
- سوف نشترى واحداً عند عودتنا .

- حسناً ، لك ما تشاء ، إن طريق الجحيم ممهدة بالكلاب المحنطة غير
المبيعة . ليس هذا خطأي .
ومضيئنا في السير .

- ما الذي حملك على التفكير في الكلاب ، هكذا فجأة ؟

- إنني أحمل دوماً هذا الشعور نحو الكلاب ، وأحب دوماً الحيوانات المحنطة .

وتوقفنا لنشرب شيئاً ما . وقال « بيل » :

- ليس من شك في أنني أحب أن أشرب . عليك أن تجرب الشرب قليلاً يا « جاك » .

- إنك تسبقني بمئة وأربعة وأربعين قدحاً .

- ينبغي عليك ألا يطرحك السكر . أنا لم أنطرح أبداً ، هذا سر نجاحي ، لم أنطرح البتة أمام الناس...
- أين كنت تشرب ؟

- لقد توقفت في (الكريون) وأعطاني « جورج » قدحين من خمر (جاك روز) . إن جورج لرجل عظيم ، هل تعلم سر نجاحه ، إنه لم ينطرح من السكر أبداً .

- سوف تنطرح أنت ، بعد ثلاثة أقداح تقريباً ، من البرنود .

- ليس أمام الناس . حين أشعر بأنني أوشك أن أنطرح فإنني أتوارى وحدي . وفي هذا المجال أنا شبيه بالهر .

- متى رأيت « هارفي ستون » ؟

- في (الكريون) كان « هارفي » على وشك أن ينطرح ؛ فلم يكن قد طعم شيئاً من ثلاثة أيام . إنه لا يأكل أبداً ، ثم توارى وشيكاً مثل هر . يا له من محزون لطيف!

- إنه في صحة جيدة .

- عظيم . ولكنني أؤثر ألا يتوارى هكذا ، مثل هر . إنه يثير أعصابي .

- ماذا نفعل هذا المساء ؟

- سيان عندي . بيد أنه ينبغي ألا يتعتعنا السكر ويطرحنا . أتظن أنه يوجد هنا بيض مسلوق ؟ إذا كان يتوفر ، هنا ، بيض مسلوق ، فليس من حاجة الى ذرع هذه الطريق كلها ، حتى نصل الى الجزيرة .

وقلت :

- لا ، سندهب لتتناول عشاء حقيقياً .

وقال « بيل » :

- إنه اقترح ، ليس غير ، أتود أن نذهب على التو ؟

- هيا بنا .

ومضينا نسير ، منحدرين ، في الشارع ، ومرت عربة ، بالقرب منا ،

وحدجها « بيل » بنظره .

- رأيت الى هذه العربة ، سوف أحنط حصان هذه العربة ، من أجلك ،

وأقدمه هدية ، في عيد الميلاد . إنني أهدي جميع أصدقائي ، حيوانات

محنطة ، أنا كاتب طبيعة .

ومرت سيارة تاكسي ، ولوح شخص بيده ، داخلها ، ثم أشار الى السائق

بالوقوف ، وتراجعت السيارة ودانت الرصيف ، وكان داخلها « بریت » .

وقال « بيل » :

- إنها سيدة حسناء تهم بأن تخطفنا .

وقالت « بریت » :

- هالو! هالو!

- إنه « بيل غورتون » ... « لادي أشلي » .

وابتسمت « بریت » لـ « بيل » .

- لقد عدت الآن . ولم يتح لي أي وقت لأغتسل ، إن « ميشيل » قادم

الليلة .

- حسناً ، تعالي نتناول طعام العشاء معاً ، ثم نذهب لاستقباله سوية .

- علي أن أغتسل .

- أوه ، تعالي .

- يجب أن أغتسل ، إنه لا يصل إلا في التاسعة .

- تعالي إذن . لنشرب معاً شيئاً ما ، قبل أن تغتسلي .

- هذا ممكن ، إنك تتكلم ، الآن ، كلاماً معقولاً .
وركبنا سيارة تاكسي ، والتفت السائق نحونا . فقلت له :
- قف بنا أمام أول مشرب .
وقالت «بريت» :
- ولعله من الأفضل أن نذهب الى (الكلوزوري) فلا أستطيع أن أشرب هذه
البراندي الرديئة هنا .

- الى (الكلوزوري دي ليلاس) .
والتفتت «بريت» نحو «بيل» وقالت :
- هل مضى عليك زمن طويل في هذه المدينة الطاعونية ؟
- لقد وصلت من (بودابست) ، اليوم .
- كيف وجدت (بودابست) ؟
- رائعة ، كانت (بودابست) رائعة .
- سليه إذن عن حال (فيينا) .
وقال «بيل» :

- إن (فيينا) مدينة عجيبة .
- إنها تماثل (باريس) تماماً .
وابتسمت له وهي تغمز بعينيها .
وقال «بيل» :

- تماماً . إنها تماثل (باريس) حالياً .
- إنها بداية جيدة .

ولما اتخذنا مجلسنا فوق سطحية مشرب (الليلاس) طلبت «بريت»
كأس ويسكي بالصودا ، وأخذت مثلها . وتناول «بيل» قدح برنود .
- كيف حالك يا «جاك» ؟
قلت :

- جيدة ، لقد مر علي وقت طيب .

ورنت إلي «بريت» وقالت :

- كنت أتحرق شوقاً الى السفر . إن من يغادر (باريس) لهو حمار .

- هل تمتعت بوقت طيب هناك ؟

- أوه . لا بأس . كان ذلك مشوقاً . دون أن يكون مسلياً بصورة مذهلة .

- هل اجتمعت بأحد ؟

- لا . لم أجمع بأي إنسان . لم أكن أخرج البتة .

- ألم تسبحي ؟

- لا ، لم أفعل شيئاً .

وقال «بيل» :

- إن هذا لأشبهه بـ(فيينا) .

وغمرت «بريت» بطرف عينها .

- إذن ؟ فالحال هكذا في (فيينا) .

- إنها تماثل كل شيء في (فيينا) .

وابتسمت له «بريت» ثانية .

- إن لك رفيقاً لطيفاً يا «جاك» .

وقلت :

- لا بأس به . إنه محنط حيوانات .

وقال «بيل» :

- كان ذلك في بلد آخر ، أضف الى ذلك أن حيواناته كلها كانت ميتة .

وقالت «بريت» :

- كأساً أخرى ، ثم أمضي سريعاً ، ابعث بالنادل ليبحث عن سيارة

تاكسي .

- ثمة رتل طويل من السيارات قبالتنا تماماً .

- حسناً .

وشربنا ما في كؤوسنا . وأركبنا «بريت» في سيارة التاكسي .

وقالت «بريت» لـ«بيل» :

- احرصا على أن تقدا الى (السييلكت) حوالي الساعة العاشرة ، واحمله على المجيء . سيكون «ميشيل» هناك .

وقال «بيل» :

- سنكون هناك .

ومضت سيارة التاكسي . ولوحت «بريت» بيدها ، وقال «بيل» :

- إنها فتاة كاملة غاية في اللطف . من هو «ميشيل» ؟

- إنه الرجل الذي تنوي أن تتزوجه .

- حسناً ، حسناً ، إنني في مثل هذا المجال ، تتوثق معرفتي بالناس ،

ماذا سأبعث إليهما ؟ هل تظن أنهما يرغبان في جوادي سباق محنطين ؟

- من الأفضل أن نتعشى .

وسألني «بيل» ونحن في سيارة التاكسي التي كانت تسعى بنا الى

جزيرة (سان لويس) :

- هل هي لادي حقيقية ؟ أو شيء آخر ؟

- أوه ، أجل ، إنها مذكورة في سجل الأجواد .

- حسناً ، حسناً .

وتناولنا طعام العشاء في مطعم السيدة «لوكونت» القائم في أقصى طرف

من الجزيرة . وكان يعج بالأميركيين ، فكان علينا أن ننتظر ، واقفين ، قبل

أن نعثر على محلات .

لقد نوه أحدهم بهذا المطعم في دليل النادي النسائي الأمريكي . وأشار

الى أنه أكثر مطاعم (باريس) طرافة ، وكان من قبل مجهولاً من الأمريكيين .

وهكذا ، فقد كان علينا أن ننتظر خمساً وأربعين دقيقة قبل أن تفرغ

طاولة . لقد تناول «بيل» الطعام في هذا المطعم عام ١٩١٨ ، وعقيب إعلان

الهدنة .

واستقبلته السيدة «لوكونت» بترحيب صاخب حين رآته .

- إن ترحيبها لا يتيح لنا ، مع ذلك ، طاولة . ولكنها ، على أي حال ، امرأة طيبة .

وطعمنا عشاء جيداً : دجاجة مقلية ، وفاصولياء ، وهريس البطاطا ووليفة تفاح وجبناً .

وقال «بيل» للسيدة «لوكونت» :

- لقد ضمنت العالم كله ، لديك ، هنا .

ورفعت يدها وقالت :

- أوه يا إلهي .

- ستصبحين امرأة غنية .

- آمل ذلك .

وبعد أن ارتشفنا القهوة ، قدم إلينا الحساب مكتوباً ، كما هي العادة في هذا المطعم ، على لوح (إنها ، لا شك ، إحدى طرائف هذا المطعم المنوّه به في الدليل) وسددنا الحساب ، وصافحنا صاحبة المطعم وتهياًناً للذهاب . وقالت السيدة «لوكونت» :

- إنك لا تأتي الى هنا أبداً يا سيد «بارنس» .

- يوجد هنا كثير من مواطني .

- تعال لتناول طعام الغداء ، هنا ، فلا يوجد في هذا الوقت كثير من

الناس .

- حسناً سأتي قريباً .

وتمشينا تحت أغصان الأشجار الحانية فوق النهر ، على ضفة (أورليان) من الجزيرة . وتراءت ، عبر النهر على الضفة المقابلة ، جوانب جدران من بيوت قديمة متهدمة .

- سوف يمد هناك شارع .

وقال «بيل» :

- طبعاً .

وتابعنا السير ، فدرنا حول الجزيرة ، وكان النهر مظلماً . ومر قارب صغير يتلأل بالأضواء ويسعى في سرعة وصمت ، ثم توارى عن النهر تحت الجسر . وكانت كنيسة (نوتردام) تبدو في سافلة النهر ، مقعبة قبالة السماء الحالكة . واتخذنا أدراجنا الى ضفة (السين) اليسرى ، من رصيف (بيتون) . ومضينا فوق جسر خشبي ، فتوقفنا في منتصفه ، وحدرنا النظر الى النهر ، في اتجاه (نوتردام) . ومن مكاننا على الجسر حيث كنا نقف ، تراءت لنا الجزيرة سوداء وظهرت البيوت سامقة ذاهبة في الفضاء . وبدت الأشجار كأنها الأشباح .

وقال «بيل» :

- إنه لرائع ساحر! يا إلهي . كم أود أن أعود الى هنا .

واستندنا الى الحاجز الخشبي ، وسرّحنا النظر في اتجاه منطلق النهر الى أضواء الجسور الكبرى وكان ماء النهر ، يترقرق ، من أسفل ، مليساً أسود . لم يكن يخلص منه ، وهو ينساب بين عمد الجسر أي صوت . ومر بنا رجل وفتاة كانا يسيران وذراع كل منهما تطوق خصر الآخر .

وعبرنا الجسر ، وسلكنا شارع (الكردينال لوموان) وكانت الطريق صاعدة ، وواصلنا السير حتى ساحة (كونتر سكارب) ، وكانت المصاييح المقوسة تتلأل من ثنايا أغصان الأشجار . وتحت أفرع شجرة ، كان يقف أوتوبوس ذو الحرف (S) متحفزاً للسير . كانت تهفو موسيقى من باب حانة (الزنجي المرح) ، ورأيت من خلال نافذة مقهى (الأماتور) المشرب التوتياي الطويل . وكان على السطيحة ، في الخارج ، عمال يشربون ، وفي داخل مطبخ (الأماتور) المفتوح ، بدت فتاة تقلّي البطاطا ، في الزيت ، وكان ثمة قدر حديدي من اليخنة ، وكانت الفتاة تغرف منه وتملاً صحن رجل هرم كان ينتظر واقفاً ويده ممسكة بزجاجة حمراء .

- هل تود أن تشرب شيئاً ما ؟

وقال «بيل» :

- لا ، لا أشعر بظماً الى الشراب .

وغادرنا ساحة (كونتر سكارب) من طرفها الأيمن ، وسرنا في شوارع ضيقة هادئة توزعت على أطرافها دور قديمة منيفة . كان بعض هذه الدور يبرز متقدماً ، على استقامة الشارع ، ويبدو بعضها متأخراً ، وأفضينا الى شارع (يودوفير) ، وتابعنا السير فيه حتى شمال شارع (سان جاك) ثم انحدرنا في اتجاه الجنوب ، مارين بـ(الفال دوغراس) القائم خلف باحة وسور حديدي ، حتى وصلنا الى شارع (بور رويال) .
وسألت :

- ماذا تود أن تفعل ؟ أتود أن نذهب الى المقهى لنرى «بريت» و«مايك» ؟
- ولم لا ؟

ومشينا في شارع (بور رويال) حتى المكان الذي يحور فيه الى شارع (المونبارناس) . ومررنا بمقهى (الليلاس) فـ(لافيني) فكل المقاهي الصغيرة فمقهى (داموي) ثم عبرنا الشارع الى (الروتوند) وجاوزنا أضواءه وطاولاته لنصل الى (السيليكت) .

واندفع نحونا «مايك» من بين الطاولات ، وكان يبدو برونزي السحنة وافر الصحة .

- هالو ، هالو ، «جاك» ، كيف حالك يا عزيزي ؟

- إنك تبدو ، في صحة جيدة يا «مايك» .

- أتمتع بصحة جيدة الى درجة مخيفة ، إنني لا أفعل شيئاً سوى المشي ، المشي ، طول النهار ، ولا أشرب الشاي إلا مرة واحدة مع أمي .

وكان «بيل» قد ذهب الى المشرب ، وكان يتحدث الى «بريت» وهي جالسة على مقعد صغير ، واضعة ساقاً على ساق ، دون أن تلبس جوربيها .
وقال «ميشيل» :

- إنني سعيد برؤيتك يا «جاك» أنا سكران ، بعض الشيء ، كما تعلم .

إنه لشيء عجاب ، أليس كذلك ؟ أرأيت الى أنفي ؟

وكان يظهر على أرنبه أنفه ندبة .

- لقد أحدث هذا الخمش حقائب سيدة عجوز كنت أحاول أن أساعدها

على إنزال الحقائب ، فسقطت علي .

وأشارت إليه « بریت » بفم دخينتها وغمزت بعينها . واستطرد مايك

يقول :

- امرأة عجوز ، سقطت حقائبها علي . هلم ندخل ، لنرى « بریت » ، يا

لها من امرأة! « بریت »! أنت امرأة فاتنة ، أين عثرت على هذه القبعة ؟

- شراها لي شخص ، ألا تروق لك ؟

- إنها قبعة مخيفة ، هلا اشتريت قبعة مناسبة لك .

وقالت « بریت » :

- ايه ، لدينا الآن نقود جمعة . بالمناسبة ، ألم تتعرف على « بيل » حتى

الآن ؟ إنك ، في الحق ، لمضيف مثالي يا « جاك » .

والتفتت نحو « مايك » وقالت :

- أقدم لك « بيل غورتون » وهذا العرييد : إنه « مايك كاميبيل » .

والسيد « كاميبيل » مفلس دائم .

- أنا كذلك ؟ إنك تعلمين بأنني التقيت بشريكي السابق ، أمس ، في

(لندن) ، وهو الذي دفع أجرة منامي .

- ماذا قال لك ؟

- لقد دفع عني ثمن المشروب . وقد رأيت من المناسب أن أقبل ، إنك

يا « بریت » في الحق امرأة فاتنة . ألا تجدها جميلة ؟

- جميلة! مع هذا الأنف!

- على رسلك ، إنه أنف رائع ، هل لك أن تديره نحوي... إنها فاتنة .

- أفما كان بالإمكان ترك هذا الرجل في اسكتلندا!

- هيه ، « بریت » ، ينبغي أن نفيء الى النوم مبكرين .

- لا تكن بذيئاً يا «ميشيل» ، لا تنس أن في المشرب سيدات .
- إنها فاتنة ، ألا تجدها كذلك يا «جاك» ؟
وقال «بيل» :

- توجد حفلة ملاكمة ، هذا المساء . فهل لك أن تذهب إليها ؟
وقال «مايك» :

- ملاكمة! من الذي سيلاكم ؟

- «لودو» وشخص آخر .

وقال «مايك» :

- إن «لودو» ملاكم جيد . كم أود أن أشاهده (وكان يبذل جهداً
ليتماسك) ولكنني لا أستطيع ، لدي موعد مع هذه . اصغي إلي يا «بريت» .
اشتري قبعة جديدة أخرى .

وجذبت «بريت» قبعتها اللبادية الى أسفل حتى غطت عيناً ، وابتسمت
من تحت القبعة وقالت :

- اذهبا كلاكما لمشاهدة حفلة الملاكمة . أما أنا ، فيتعين علي أن أعود
رأساً بالسيد «كاميبييل» الى البيت .

وقال «مايك» :

- لست سكران ، لعلي أن أكون سكران بعض الشيء ، حقاً يا
«بريت» . إنك لفاتنة . وقالت «بريت» :

- اذهبا لمشاهدة الحفلة . لقد غدا السيد «كاميبييل» صعباً . ماذا تعني .
هذه العواطف المتدفقة المفاجئة يا «مايك» ؟

- يا لك من امرأة فاتنة حقاً!

وتمنيا لهما ليلة سعيدة . وقال «مايك» :

- آسف . إنني لا أستطيع مرافقتكما .

وأغربت «بريت» في الضحك .

والتفت نحو الباب . كان «مايك» يتحدث الى «بريت» وهو منحني .

ويده على الخوان ، فيما كانت « بریت » تنظر إليه ، في فتور ، ولكن طرفي عينيها كانا يبتسمان .

وقلت ونحن على الرصيف في الخارج :

- هل تود الذهاب الى حفلة الملاكمة ؟

فأجاب « بيل » :

- طبعاً ! إلا إذا كان علينا أن نذهب مشياً .

وقلت ونحن في سيارة التاكسي :

- إن « مايك » يبدو متوفز الأعصاب هائجاً مع صديقه الصغيرة .

وقال « بيل » :

- هيه . ولكن ، ليس في وسعك أن تلومه على ذلك أبداً .

الفصل التاسع

جرت حفلة الملاكمة بين «لودو» و«كيد فرانسيس» مساء ٢٠ حزيران ، وكانت حفلة ملاكمة ناجحة . وتلقيت في اليوم التالي ، رسالة من «روبرت كون» بعث بها إلي من (هندي) وذكر فيها أنه يتمتع بحياة هادئة ، فيسبح ويلعب الغولف ، قليلاً ، والبريدج كثيراً ، وأن شاطئ (هندي) جميل ، ولكنه يتحرق شوقاً الى رحلة صيد سمك . ويسألني متى سأذهب ليلحق بي ، ويطلب إلي أن أشتري له عصا سمك ذات قصبتين وسيسد ثمنها إلي ، حين قدومي .

وفي الصباح ، سطرت ، في مكثبي ، رسالة الى «كون» . وذكرت له أنني مسافر أنا و«بيل» من (باريس) في ٢٥ من هذا الشهر ، إلا إذا وصله مني إعلام مخالف لذلك ، وأنا سنلتقي به في (بايون) حين نستقل الأوتوبوس للذهاب الى (بايرنه) ، بطريق الجبال .

وفي مساء اليوم نفسه توقفت بالسيارة أما (السليكت) حوالي الساعة السابعة ، لأرى «ميشيل» و«بريت» فلم أجدهما ، ومضيت الى (الدينكو) فألفيتهما في المشرب .

وقالت «بريت» مادة يدها إلي :

- هالو... يا عزيزي .

وقال «مايك» :

- هالو « جاك » ، في الظاهر إنني كنت ثملاً جداً ، مساء أمس .

وقالت « بریت » :

- وأي ثمل ! إنه لشيء معيب .

وقال « مايك » :

- اسمع ، متى ستذهب الى اسبانيا ؟ ألا يضايقتك كثيراً إذا ذهبنا سوياً ؟

- إنه لشيء ممتع لي .

- ألا يضايقتك حقاً ؟ لقد كنت في (باميلونه) . أتعلم ذلك ؟ إن « بریت »

تحن رغبة في الذهاب الى هناك . أنت متأكد بأننا لن نضايقتك ؟

- لا تفه بهذا الهراء .

- إنني ثمل بعض الشيء ، كما تعلم ، ولولا ذلك لما طلبت إليك ذلك .

وقالت « بریت » :

- ايه . صه يا « ميشيل » ! كيف يكون في وسع الرجل أن يقول لك الآن

إن هذا يضايقه ، سأطلب إليه إبداء رأيه فيما بعد .

- ولكن . أحقاً أن هذا لن يضايقتك ؟

- إياك أن تطلب إلي ذلك كرة أخرى ، إذا كنت تريد مني ألا أستاء .

سوف أسافر مع « بيل » صباح الخامس والعشرين من هذا الشهر .

وسألت « بریت » :

- بهذه المناسبة ، أين « بيل » ؟

- لقد ذهب لتناول طعام العشاء مع بعض الأشخاص في (شانتيني) .

- إنه رجل لطيف .

وقال « مايك » :

- إنه شخص رائع ، أليس كذلك ؟

وقالت « بریت » :

- إنك لا تتذكره .

- بلى . إنني أتذكره جيداً . اسمع يا « جاك » : سوف نسافر في مساء

الخامس والعشرين ، فليس في استطاعة «بريت» أن تستيقظ مبكرة .
- في الحقيقة لا أستطيع أن أستيقظ مبكرة .
- وذلك إن وصلت نقودنا وكنت واثقاً بأننا لن نضايقك .
- سوف تصل . وسوف أهتم في تأمينها .
- قل لي ماذا يتعين علي أن آخذ معي ؟
- خذ معك قبعتين أو ثلاث قبعات بملفاف ، وقبعات أخرى . وبعض
الذباب .

وقالت «بريت» :

- أنا لن أصيد .

- إذن خذ معك قصبتين . ولن يكون «بيل» بحاجة الى شراء قصبه .
وقال «مايك» :

- حسناً ، سوف أبعث ببرقية الى وكيلتي .

وقالت «بريت» :

- يا لسحر المناظر! اسبانيا ، سوف لن نمل هناك أبداً .

- الخامس والعشرون ، أي يوم يصادف ؟

- يوم السبت .

- علينا أن نكون متهيئين .

وقال «مايك» :

- مهلاً ، أنا ذاهب الى الحلاق .

وقالت «بريت» :

- وأنا ذاهبة الى الحمام ، «جاك» كن إنساناً طيباً ورافقني الى الفندق .

وقال «مايك» :

- لقد نزلنا في فندق مدهش ، أحسب أنه مكان بغاء .

- حين وصلنا ، تركنا حقائبنا ، في (الدينغو) وقد سألونا ، ثمة ، عما

إذا كنا نرغب في غرفة لقضاء الظهيرة فحسب ، وبدأ عليهم الارتياح حين

عرفوا أننا سننقضي فيها الليل كله .

وقال «مايك» :

- أعتقد بأنه مكان بغاء ، كان علي أن أعرف .

- أوه ، اسكت وامض لحلق شعرك .

وذهب «مايك» ومكثت أنا و«بريت» في المشرب . وقالت :

- هلا شربنا كأساً أخرى .

- حسناً .

وقالت «بريت» :

- أشعر بظماً إلى الشرب .

ومشياً صُعداً ، في شارع (دولامبر) .

وقالت «بريت» :

- لم أرك منذ عودتي .

- لا .

- كيف حالك يا «جاك» ؟

- جيدة .

ورنت «بريت» إلي وقالت :

- هل سيشترك «روبرت كون» في هذه الرحلة ؟

- أجل ، لماذا ؟

- ألا تعتقد بأن ذلك سيكون مؤلماً له بعض الشيء ؟

- ولماذا يكون ذلك مؤلماً له ؟

- مع أي شخص تحسب أنني سافرت الى (سان سيباستيان) ؟

- تهنئتي الخالصة .

وكننا لا نأتلي نسير . وقالت :

- لماذا قلت هذا ؟

- لا أدري . ماذا كنت تودين أن أقول ؟

وظللنا نسير ، ثم انعطفنا الى شارع آخر .
- لقد كان مسلكه معي حسناً ، غير أنه يضحى ، أحياناً ، مملأ بعض
الشيء .

- حقاً ؟

- اعتقدت بأن صحبتي له قد تنفعه وتفيده .

- أرى أنك قد تكرسين نفسك للخدمة العامة .

- لا تكن قذراً .

- لا تخافي .

- ألم تكن تعلم ذلك ، حقاً ؟

وقلت :

- لا ، لم يدر ذلك في خلدي البتة .

- والآن ، ألا تخشى أن يكون وجوده معنا مؤلماً له ؟

- هذا يخصه وحده ، قلبي له إنك ستذهيين ، إن في ميسوره دوماً ألا

يأتي .

- سأكتب له ، لأفسح له المجال بأن يتجنب ذلك .

ولم أر «بريت» ، بعدئذ ، إلا مساء ٢٤ حزيران (يونيو) ، وسألتها :

- هل تناهى إليك خبر ما من «كون» ؟

- يبدو أنه مغتبط جداً .

- يا إلهي .

- أنا أيضاً وجدت ذلك عجباً ، إنه يقول في رسالته إنه لا يطيق الانتظار

مشوقاً الى رؤيتي .

- ثراك ذكرت له أنك قادمة وحدك .

- لا ، لقد جلوت له أننا سنكون جميعاً ، «ميشيل» والآخرين .

- إنه لرائع!

- أليس كذلك ؟

وكانا ينتظران ورود النقود في الغد ، واتعدنا أن نجتمع في (بامبليونه) ، فيذهبا رأساً الى (سان سيباستيان) ويغادراها بالقطار . وكان علينا أن نلتقي في فندق (مونتويا) في (بامبليونه) . فإذا لم يصلا يوم الاثنين - على أبعد تقدير - فإننا سوف نسبقهما في السفر الى (بورغيت) في الجبل ، لنبدأ الصيد . وكان ثمة أوتوبوس يذهب الى (بورغيت) . ووضعت لهما مخططاً للسفر يعينهما على اللحاق بنا .

وركبت مع «بيل» قطار الصباح ، من محطة (أورسي) وكان الجو مائعاً معتدل الحرارة . وتجلّى لنا الريف في رونقه منذ بدء جلستنا . وقعدنا في حجرة المطعم ، فتناولنا طعام الفطور . وفيما كنت خارجاً من حجرة المطعم ، طلبت إلى المستخدم بطاقتين لأول دور من تقديم وجبات طعام الغداء .

- لا يوجد محلات قبل الدور الخامس .

- وكيف ؟

وكنت أعلم أنه لم يكن في هذا القطار أكثر من دورين لتقديم طعام الغداء ، وكانت أكثر المحلات مع ذلك ، خالية ، في هذين الدورين . وقال المستخدم :

- كل المحلات محجوزة يا سيدي ، وسيكون وقت الدور الخامس في الساعة الثالثة والنصف .

وقلت لـ «بيل» :

- لقد أضحى الأمر جدياً .

- أعطه عشرة فرنكات .

وقلت :

- خذ هذا ، نود أن نتناول طعام الغداء في الدور الأول .

ودس المستخدم الفرنكات العشرة في جيبه وقال :

- شكراً يا سيدي ، انفتحكهما بأخذ قطار (ساندوتش) . إن جميع

المحلات في الأدوار الأربعة قد حجزت من قبل ، في مكتب الشركة . وخاطبه
« بيل » بالانكليزية :

- أنت تسلك طريقاً طويلاً يا أخي ، أحسب لو أننا أعطيناك مئة فرنك
لنصحتنا بأن نقفز من باب القطار الى الخارج .
وأجاب المستخدم بالفرنسية :
Comment كيف ؟

وتابع « بيل » :
- اذهب الى الجحيم ، اذهب وأحضر لنا فطائر (الساندوتش) وزجاجة
خمر . اطلب ذلك يا « جاك » .
- واجلب لنا ذلك الى حجرة القطار المجاورة .
وأشرت الى حجرتنا .
وكان يجلس في حجرتنا من القطار ، رجل وزوجته وابنهما الصغير .
وسألنا الرجل :
- أتما أمريكيان . أليس كذلك ؟ هل تقومون برحلة ممتعة ؟
وقال « بيل » :
- رائعة .

- هذا ما ينبغي أن يقوم به الإنسان : أن يسيح وهو لا يزال في ريق
صباه . كنت أتمنى أنا وزوجتي دائماً أن نساfer الى أوروبا ، ولكن كان علينا
أن ننتظر بعض الشيء .
وقالت زوجته :

- كان في ميسورك أن تأتي منذ عشر سنوات لو أنك كنت ترغب في
ذلك حقاً . بيد أنك كنت لا تني تردد دوماً : « لنرأمريكا أولاً » . إن في
وسعي أن أقول إننا شاهدنا قدراً كبيراً من الأشياء ، على أي حال .
وقال الزوج :

- إيه ، إن في هذا القطار كثيراً من الأمريكيين ، لقد غصت بهم سبع

حجرات من القطار ، إنهم من (دايتون) ، (أوهيو) ، وهم عائدون من حجهم في روما . وذهبون الى (بياريتز) و(لورد) .

وقال « بيل » :

- هكذا ؟ إنهم حجاج ، يا للمطهرين المقدسين !
- من أي إقليم من الولايات المتحدة أنتم أيها الشبان ؟
وقلت :

- أنا من (كانساس سيتي) وهو من (شيكاغو) .
- أتذهبان الى (بياريتز) ؟

- لا ، نحن ذاهبان الى اسبانيا ، لصيد السمك .

- صيد السمك ؟ إنني لم أهتم به البتة . ومع ذلك ، فإن الناس مشغوفون بالصيد ، هناك ، في البلد الذي جئت منه . إن ولاية (مونتانا) مشهورة بصيد السمك . وقد ذهبت إليها مع الرفاق ، ولكنني لم أهو الصيد أبداً .
وقالت السيدة :

- في الواقع ، إنك لم تفرغ للصيد ، في تلك الرحلة .
وطرف بعينه وقال :

- إنكما تعرفان من أي جيلة فطرت النساء . فإما جلبت لنا زجاجة أو ظفرنا بصندوق بيرة ، حسب أن ذلك جسيم ولعنة .
وقالت لنا السيدة :

- هكذا هم الرجال (وملست ثوبها على ركبتيها) . لقد صوتَ ضد قانون
تحريم الخمر لأسره بذلك . ولأنني أود أن يكون في البيت قليل من البيرة
فأصغوا إليه الآن وهو يتكلم . إنني أسألك نفسي كيف يعشرون على من يرضين
الزواج بهم .

وقال « بيل » :

- ألا تعلمان أن هذه العصابة من الآباء والحجاج قد استولت على حجرة
المطعم حتى الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر .

- ماذا تعني ؟ لا يمكن أن يفعلوا شيئاً مثل هذا .

- حاول أن تجد محلات .

- في هذه الحال ، يا أم ، يخيل إلي أنه من الأفضل أن نعود لتناول طعام الفطور مرة ثانية .

- هل تسمحان أيها الشابان ، بأن تراعيان بنظركما ، حقائبنا ؟ هلم ، تعال يا « هوبير » .

ومضى ثلاثتهم الى مطعم القطار . وبعد ذهابهم بأمد قصير ، أقبل النادل معلناً عن الدور الأول من تقديم وجبة الغداء . وتدافع الحجاج مع رهبانهم الى الممر ، ولم يرجع صديقنا مع أسرته . وجاز الممر نادل يحمل إلينا فطائر (السندوتش) وزجاجة من خمر (الشابلي) فناديناه . وقلت له :

- أمامك عمل متصل ، اليوم .

وهز رأسه وقال :

- لقد بدأ العمل ، منذ الآن ، في الساعة العاشرة والنصف .

- ومتى سنأكل نحن ؟

- هممم . وأنا ، متى تظنان أنني سأكل ؟

ووضع لنا قدحين مع الزجاجة ، ودفعنا له ثمن فطائر (السندوتش) ومنحناه رضيخة^(١) فقال :

- سآتي لأخذ الصحون . إن في ميسوركما جلبها معكما .

والتهمنا فطائر (السندوتش) وشربنا زجاجة (الشابلي) وجعلنا نتأمل في مجالي الطبيعة من النافذة . وكان القمح قد استوفى نضجه وبدأت الحقول مكسوة بزهر المنثور وتراءت المراعي مخضرة . وكان ثمة أشجار جميلة ، وكانت تظهر ، أحياناً ، أنهار كبيرة مناسبة ، وتتبدى قصور من فوق عذبات أغصان الأشجار .

(١) الرضيخة : العطاء القليل وهو يقارب معنى البقشيش . (المعرب)

وفي مدينة (تور) نزلنا نشترى زجاجة خمر أخرى . ولما صعدنا الى حجرتنا في القطار ، ألفينا السيد القادم من (مونتانا) مع زوجته وابنه « هوبير » جالسين في دعة .

وسأل « هوبير » :

- تُرى أتوجد مسابح جيدة في (بياريتز) ؟

وقالت أمه :

- ليس في وسع هذا الطفل أن يهدأ حتى يظفر بالماء . إنه ليشق على هذا الجيل أن يتمتع بالسباحة .

وقلت :

- توجد مسابح جيدة جداً ، ولكنها لا تخلو من خطر حين يسوء الجو .

وسأل « بيل » :

- هل تمكنتم من تناول الطعام ؟

- طبعاً ، ولم نغادر أمكنتنا حين بدأوا يفدون ، لا ريب أنهم حسبوا أننا من ضمن الجماعة ، فقد خاطبنا أحد النادل بالفرنسية ، بكلام ما ، وأعادوا ثلاثة من القادمين .

وقال الرجل :

- لقد حسبوا بأننا منهم . إن هذا ليثبت سلطان الكنيسة الكاثوليكية . إنه لمن المؤسف ألا تكونا كاثوليكين ، أيها الشابان . فلو كنتما كاثوليكين لتيسر لكما تناول طعام الغداء .

وقلت :

- إنني كاثوليكي ، وهذا هو بالضبط ما يثير استيائي .

وتمكنا ، أخيراً ، من تناول طعام الغداء في الساعة الرابعة والربع ، وأضحى « بيل » على الجملة ، مضيقاً . فقد أمسك بطرف مسيح راهب عائد مع نفر من الحجاج وقال له :

- متى تسنح لنا ، نحن البروتستانتين ، فرصة بأن نأكل ؟

- لا أدري . ألم تحصل على بطاقة ؟

وقال « بيل » :

- إن هذا وحده كاف لأن يحمل المرء على الانخراط في عصابة (الكوكلوكس كلان) .

ورشفه الراهب بنظرة ، وهو يتحول عنه .

وفي مطعم القطار ، كان الندل يعدون الدور الخامس لتقديم الطعام ، وكان النادل الذي يخدمنا ، ينتضح العرق منه غزيراً . وبدت سترته البيضاء ، ذات لون بنفسجي تحت الذراعين .

- لا بد أنه يشرب مقداراً وافياً من الخمر .

- لعله يرتدي قميصاً بنفسجياً من الصوف .

- هلا استوضحنا منه ؟

- دعه ، إنه يبدو متعباً .

وتوقف القطار نصف ساعة في (بوردو) ، وخرجنا من القطار لنقوم بجولة صغيرة ، ولكن لم ينفصح لنا الوقت لنذهب حتى المدينة .

وجاز بنا القطار (الآند) ، وجعلنا نتأمل في مغرب الشمس ، وكانت تبدو بين أشجار الصنوبر فجوات عريضة خلفتها الحرائق فكأنها الشوارع الوسيعة ، وكانت تتراءى في نهاياتها ربي مشجرة .

وحوالي الساعة السابعة والنصف تعشينا فيما كنا نجيل أبصارنا في مناظر الطبيعة من النافذة المشرعة .

وامتدت أمامنا منطقة مرملة ، محرجة بالصنوبر ومكسوة بنبات الخلنج . وكان ثمة مساحات صغيرة تتوسطها الدور .

وجزنا بعد أمد قصير منشرب خشب . وأرخى الليل سدوله : وكان في مكنتنا أن نشعر بأن المنطقة حارة ، رملية ، مظلمة ، من خلف زجاج النافذة . وكانت الساعة تقارب التاسعة ، حين وصلنا الى (بايون) . وصافحنا الرجل وزوجته و« هوبير » ، مودعين ، فقد كان عليهم أن يبقوا ويتابعوا السفر الى (نيغريس)

حيث يستبدلون بهذا القطار ، القطار الذاهب الى (بياريتز) . وقال الرجل :

- حسناً ، أتمنى لكما حظاً طيباً .

- خذوا حذرکم من الثيران .

وقال « هوبير » :

- لعلنا نلتقي بكما في (بياريتز) .

ونزلنا مع حقائبنا ، وقصباتنا ، ومضيئنا في محطة معتمة حتى أفضينا الى

الأضواء ، الى صف من سيارات التاكسي وأوتوبوسات الفنادق . وكان يقف هناك

« روبرت كون » في حلقة من أدلاء الفنادق . ولم يلمحنا أول الأمر ثم سعى إلينا .

- هالو « جاك » ، تراك قمت برحلة ممتعة ؟

وقلت :

- ممتازة ، أقدم لك « بيل غورتون » .

- أهلاً بك .

وقال « روبرت » :

- تعال . لدي مركبة .

وبدا لي ضعيف البصر ، بعض الشيء . ولم ألمح ذلك من قبل . وكان

ينظر الى « بيل » متفرساً في محياه ، وخيل إلي ، أنه خجول .

- سنمضي الى فندقتي فهو جيد ومناسب جداً .

وصعدنا المركبة ، ووضع الحوذي الحقائق فوق مقعد الى جانبه ، وعلا

مركبته وفرقع سوطه ، وجاز بنا الجسر المعتم ثم دخلنا المدينة .

وقال « روبرت » لـ « بيل » :

- إنني سعيد جداً بالتعرف عليك . كان « جاك » يتحدث إلي دوماً عنك ،

كما أنني قرأت كتبك . هل جلبت لي قصبة الصيد يا « جاك » ؟

وتوقفت المركبة قبالة الفندق ، وهبطنا ، ودلفنا الى الفندق .

وكان فندقاً لطيفاً جداً ، وكان موظفو مكتب الفندق ظاهري البشاشة ،

وقد أعطوا كل واحد منا غرفة صغيرة جيدة .

الفصل العاشر

وفي الصباح كانت السماء صافية ، وكانت شوارع المدينة ترش بالماء .
وتناولنا نحن الثلاثة طعام الفطور في مقهى .

إن (بايون) مدينة جميلة تشبه مدينة اسبانية نظيفة جداً ، وتقع على
سيف نهر كبير . ورغم الصباح الباكر ، فقد كان الحر قائظاً على الجسر
الممتد فوق النهر ، ومشينا فوق الجسر ثم قمنا بجولة في المدينة .

ولم أكن متأكداً من أن قصبات صيد «مايك» ستوافيه من (اسكتلندا) في
حينه ، فجعلنا نبحث في مخزن أدوات الصيد . وتمكنا ، بعد لأي ، من شراء
قصبة لـ«بيل» في دكان قائمة فوق مخزن أقمشة . وكان البائع حين دخلنا
غائباً ، فكان علينا أن ننتظر عودته . وآب أخيراً ، واشترينا بثمن بخس قصبة
جيدة وشبكتين لصيد السمك .

وخرجنا الى الشارع حيث ألقينا نظرة على الكنيسة . ولاحظ «كون»
أنها نموذج رائع لشيء ما ، لم أعد أذكره ، على أنها كانت تتبدى لي كنيسة
جميلة ، جميلة ومعتمدة ، كالكنائس الاسبانية . ثم مشينا صعوداً فمررنا بالقلعة
القديمة ، حتى وصلنا الى مقر نقابة المشروعات ، حيث كان يتعين على
الأوتوبوسات أن تنطلق . وقيل لنا ، هناك ، إن سيرها لن يبدأ قبل أول تموز
(يوليو) . وفي مكتب السياحة ذكر لنا أن علينا أن نستأجر سيارة إن شئنا
الذهاب الى (بابلونة) . واستأجرت بأربعمئة فرنك سيارة من كراج كبير قائم

في ركن من مبنى المسرح البلدي . وكان على السيارة أن تقدم لنقلنا من الفندق بعد أربعين دقيقة .

وتوقفنا في مقهى الساحة الذي طعمنا فيه صباحاً ، وشرينا بيرة . وكان الجو حاراً ، بيد أن المدينة كانت عابقة بشذا صباحي رطيب . وكان الجلوس في المقهى ممتعاً ، إذ هيمن نسيم عليل . كان في ميسورك أن تشعر أنه يهب من البحر ، وكانت في الساحة طيور الحمام ، وبدت البيوت متشحة بلون أصفر ملوح بأشعة الشمس . ولم أكن أحب مغادرة المقهى ، لولا أنه كان علينا أن نذهب الى الفندق لنحزم حقائبنا ونسدّد أجرة إقامتنا . وأجرينا القرعة على من يدفع ثمن البيرة ، وأحسب أن « كون » هو الذي دفع ، ثم عدنا الى الفندق . ولم تكن الأجرة تتجاوز ستة عشر فرنكاً ، دفعها كلُّ منا ، أنا و« بيل » ، يضاف إليها ستة بالمائة لقاء الخدمة .

وانزلنا حقائبنا ، وانتظرنا « روبرت كون » . وفيما كنّا ننتظر ، بصرت بحشرة بنت وردان^(١) على الأرض الخشبية ، وكان طولها ثلاث إنشات^(٢) تقريباً ، وأريتها لـ« بيل » قبل أن أدوسها بقدمي . وقد قدرتها أنها دخلت من الحديقة فقد كان الفندق ، في الحق ، غاية في النظافة .

وأقبل « كون » أخيراً ، واتجهنا الى السيارة . وكانت سيارة كبيرة مغلقة وكان السائق يرتدي متراباً^(٣) أبيض وكانت ياقته وحاشية كميّه بيضاوين . وطلبنا اليه أن يضع غطاء السيارة ، وينضد الحقائق في أمكنتها .

وغادرنا الشارع . . خرجنا من المدينة ، ومررنا الى جانب حدائق ناضرة . ولما التفتنا الى خلف ، نفطنا المدينة كلّها بنظرة شاملة ، ثم أوغلنا في الريف ، وكان ينبسط أمام منسرح بصرنا أخضر مائجاً . كانت الطريق تلتوي ، في صعود موصول ، وصادفنا كثيراً من الباسكيين ، بأبقارهم

(١) بنت وردان : دويبة كريبية الريح تألف الأماكن القذرة في البيوت .

(٢) الأنش أو البوصة : مقياس للطول يساوي ٢٧ ميلمتراً .

(٣) المتراب : Duster سترة تقي من الأتربة والغبار .

وقطعانهم التي تجر عربات على طول الطريق . وصافت أبقارنا بيوت مزارع جميلة مبيضة بالكلس ، واطنة السطوح . إنّ الأرض في بلاد الباسك تتراءى خصبة خضراء ، كما تتراءى البيوت والقرى في حال جيّدة ونظيفة . إنّ في كل قرية ميداناً للعب كرة (البيلوته) . ولقد لاحظنا في بعض منها أطفالاً يلعبون تحت أشعة الشمس . وكان معلقاً على جدران الكنيسة ، لوحة تمنع لعب كرة (البيلوته) في باحة الكنيسة ، وكانت سطوح البيوت في القرية من الآجر الأحمر .

وتلوّث الطريق مرتفعة ، وصعدنا في كنف تلة ذات وادٍ عميق ، تتصل بها ربي ممتدة خلفها حتّى تشارف البحر . ولم يكن في ميسورك أن ترى البحر فقد كان بعيداً . ولكن كان في مكنتك أن ترى الى الربى ثم الى مزيد من الربى ، وأنت تعلم ، مع ذلك ، أين يوجد البحر .

ومررنا بالحدود الاسبانية : وكان ثمة نهر وجسر ، وقف الى جانب منه جنود اسبانيون ، بقبعاتهم الجلدية البونابرتية وشواربهم . ولم يفتحوا سوى حقيبة واحدة . ثم أمسكوا بجوازات سفرنا ونظروا فيها . وكان قائماً على طرفي الحدود مخزن وفندق صغير ، وكان يتعيّن على السائق أن يمضي ليملاً في بعض الأوراق بيانات خاصة بسيارته .

وخرجنا من السيارة واقتربا من النهر لنرى ما إذا كان فيه سمك . وحاول «بيل» أن يتكلّم الاسبانية مع أحد الجنود فلم يفلح في ذلك . واستوضح «روبرت كون» وهو يشير بإصبعه ، عما إذا كان يوجد سمك في النهر فقال له الجندي : نعم ولكن ليس بقدر وفير .

وسألته عما إذا كان يصيد ، من قبل ، فقال لي : لا ، وإنه لم يهتم بالصيد البتّة .

في تلك اللحظة ، دنا من الجسر رجل شيخ لوحت الشمس شعره ولحيته . وكانت ثيابه تتبدّى وكأنّها مصنوعة من الجلد . وكان يتوكأ على عصا طويلة ويحمل غلّيّ ظهره ، جدياً شكّلت قوائمه الأربع وتدلى رأسه .

ونحّاه الجندي بسيفه ، دون أن ينبس ببنت شفة وقفل الرجل عائداً ،
سالكاً طريق اسبانيا :

وسألت :

- لمّ عاد الرجل ؟

- ليس لديه جواز سفر .

وقدّمت سيكارة الى جندي المرور ، فتناولها شاكراً .

وسألت :

- ماذا سيفعل ؟

وبصق الجندي على الأرض .

- اوه سوف يعبر الحدود من مخاضة النهر .

- أيوجد لديكم كثير من حوادث التهريب ؟

وقال :

- اوه ، يتخطى كثيرون الحدود .

وعاد السائق طاوياً أوراقه ، ثمّ وضعها في جيب سترته من الداخل .

وركبنا السيارة ومضينا في الأرض الاسبانية فوق طريق بيضاء مغبّرة . ولم

يتغيّر منظر الطبيعة عن ذي قبل ، الى مدى قصير ، ثمّ أخذنا في الصعود حتّى

وصلنا الى شعب جبل . وكانت الطريق تتلوّى ، متداخلة ، والفينا أنفسنا حقاً

في اسبانيا .

كان ثمّة سلسلة من الجبال الشامخة السمراء وقليل من أشجار الصنوبر .

وفي المدى الأبعد ، امتدّت على بعض السفوح ، غابات من شجر الزان .

وحاذت الطريق ، في البدء ، قمّة الشعب ، ثمّ انحدرت . واضطرّ السائق الى

التزمير والتمهّل والانحراف ليتحاشى أن يدوس حمارين نائمين على الطريق .

وغادرنا الجبال لنضرب في غابة سنديان . كان في الغابة قطع أبيض يرعى

العشب . وكانت تنفسح ، في المدى المتطامن الواطى ، سهول معشوشبة

وجداول نميرة . ثمّ عبرنا نهراً . وبعد أن قضينا ليلة في قرية صغيرة مظلمة

تابعنا السير الى علٍ ومضيّنا نصعد مسافة طويلة . وجزنا بشعب جبل آخر مرتفع ، ودرنا حوله ، ثمّ عادت الطريق الى الإنحدار نحو اليمين ، ورأينا سلسلة أخرى من الجبال ، في الجنوب . وكانت تتراعى كلّها ، سمراء متكلسة ذات صدوع غريبة الشكل .

وابتعدنا عن الجبال بعد فترة قصيرة ، فإذا بأشجار توزّع على عذاري الطريق ، وينهر ينساب أمامنا ، وبحقول من القمح تنبسط على مرمى أبصارنا . غير أنّ الطريق ماعتمت أن استقامت ، بيضاء ، ثمّ فرعت تلة صغيرة .

واشرأبت ، على الناحية اليسرى ، الى مسافة قريبة ، رابية يعلوها قصر قديم ذو أبنية محيطة ، وحقل من القمح النامي المتطاوّل الى الجدران ، المتموّج على هينة الريح .

وكنّت أجلس الى جانب السائق ، واستدرت الى خلف ، فرأيت « روبرت كون » يغطّ في نومه ، ولكنّ « بيل » كان ينظر ويهزّ رأسه . ثمّ جزنا سهلاً وسيعاً كان على الجانب الأيمن منه يتألّق نهر كبير تحت أشعة الشمس ، بين صفّين من الأشجار .

كان في ميسورك أن ترى ، في المدى البعيد ، هضبة (بامبيلونه) تنتصب مرتفعة فوق السهل ، وجدران المدينة العالية ، والكنيسة الكبيرة السمراء ، وخيال الكنائس الآخر غير المتناسق .

وبدت خلف الهضبة جبال متعالية ، وكان في وسعك أن ترى أثنى سرحت طرفك ، جبلاً .

وتلوّت الطريق عبر السهل أمامنا ، بيضاء ، حتّى (بامبيلونه) . ووصلنا الى المدينة من الطرف الآخر للهضبة . وكانت الطريق تصعد عموديّة ، مغبرة ، تتفّياً صفّين من الأشجار ، لتستوي بعد ذلك حين تدخل المدينة الجديدة المبنية خارج الجدران القديمة . ومررنا بملعب مصارعة الثيران عالياً أبيض . كان يبدو في أشعة الشمس صلباً جامداً . ثمّ خلصنا الى الساحة

الكبيرة من شارع جانبي ، وتوقفنا أمام فندق (مونتويا) .

وأعاننا السائق على إنزال حقائبنا . وكان ثمة جماعة من الغلمان جعلوا يرافقون السيارة ، وكانت الساحة قائظة والأشجار مخضرة . وكانت الأعلام معلقة بسارياتها ، وكان من الممتع السائق أن تنتقل من وقدة الشمس الى فيء القناطر التي كانت تظلّل الطريق المحيطة بالساحة .

وبدا « مونتويا » مغتبطاً برؤيتنا . فصافحنا وأنزلنا في غرفة مشرفة على الساحة . واغتسلنا وتنظفنا وهبطنا لتغذى في حجرة الطعام ، وبقي السائق ليتغذى أيضاً . ودفعنا له ، بعد ذلك ، أجرته ، وانقلب راجعاً الى (بايون) .

إن في فندق (مونتويا) حجرتي طعام : حجرة في الدور الثاني مطلة على الساحة ، وحجرة في الدور الأرضي واقعة على استقامة أرض الساحة ، ولها باب يفضي الى شارع خلفي تمرّ فيه الثيران في الصباح الباكر ، حين تخب راکضة في الشوارع صوب الملعب .

كانت حجرة الطعام السفلى رطبة ، فتناولنا فيها وجبة غداء جيّدة . إن الوجبة الأولى في اسبانيا تشير لذيّ دوماً صدمة ، بما تحتويه من مقبّلات وبيض ، وصنفين من اللحم ، والخضر ، والسلطة والحلواء والفاكهة ، وإنه ليتعيّن عليك لإزلاق هذا كلّه ، أن تحتسي كثيراً من الخمر .

وحاول (روبرت كون) أن يفسّر للفتاة التي كانت تخدمنا أنه لا يريد صنفاً ثانياً من اللحم ولكننا لم نشأ أن نترجم له ، فأحضرت له شيئاً آخر بدلاً منه ، أحضرت صحن لحم بارد ، فيما أحسب .

وقد ظهرت على « كون » منذ لقائنا به في (بايون) أمارات عصبية ، ولم يدر أننا على علم بقصّة سفره مع « بریت » الى (سان سيباستيان) . ولعل إخفاءه ذلك قد خلف في نفسه شيئاً من الضيق .

وقلت :

- حسناً ، إن على « بریت » و« مايك » أن يقدموا اليوم مساءً .

وقال « كون » :

- لست واثقاً بأنهما سيقدمان ، الليلة .

وقال « بيل » :

- ولمه ، طبعاً سيقدمان .

وقلت :

- إنهما يتأخران دوماً .

وقال « روبرت كون » :

- أعتقد بأنهما لن يأتيا البتة .

قالها ، بلهجة متعالية ، أثارت غضبنا كلينا .

وقال « بيل » :

- اراهنك على خمسين بيزيته بأنهما سيكونان ، الليلة ، هنا .

إنّ « بيل » يراهن دوماً ، حين يتميّز غيظاً ، وهو على الغالب يراهن في حماقة .

وقال « كون » :

- أقبل الرهان . حسناً ، هلاً تذكرت يا « جاك » . خمسين بيزيته .

وقال « بيل » :

- سوف أتذكر أنا ذلك .

ولحظت أنه مغضب ، وأردت أن أهدئة فقلت :

- من المؤكّد أنهما سيأتيان ، ولكن قد لا يقدمان ، الليلة .

وسأله « كون » :

- هل تريد أن تتراجع ؟

- لا ، لمه ؟ إرفع الرهان الى مائة إن شئت .

- حسناً ، أقبل .

قل :

- كفى ، وإلا فإن عليك أن تؤلف كتاباً في ذلك ، وتدع لي جزء منه .

وقال « كون » :

- أعتبر نفسي راضياً (وابتسم) ، أرجح أنك ستستعيد ربحه في البريدج على أي حال .

وقال « بيل » :

- لم تحصل على ذلك بعد .

وخرجنا ، وتمشينا تحت القناطر ، متجهين الى مقهى (ايرونا) لنشرب القهوة هناك . وقال « كون » أنه سيمضي ليخلق شعره .

وقال لي « بيل » :

- قل لي ، ترى ألدي حظ في أن أربح الرهان ؟

- لقد اخترت حظاً خاسراً ، فإنهما لم يألفا الحضور الى أي موعد في الوقت المحدد . ومن المؤكد أنهما لن يأتيا ، الليلة ، إذا لم تصل نقودهما .

- ماكدت أفتح فمي حتى ندمت . ولكنني لم أملك أن أمنع نفسي من ذلك . أحسب أنه ليس لديه مايؤخذ عليه . ولكن علام يتكلف مظهر من يعرف أكثر من الآخرين ؟ لقد إتفق « مايك » و « بریت » معنا على القدوم الى هنا .

ورأيت « كون » راجعاً من الساحة .

- هاهو ذا عائد .

- حسناً . لاتفسح له مجالاً في أن يصطنع مظهر اليهودي المتفوق .

وقال « كون » :

- إن صالون الحلاقة مغلق ولن يفتح الا في الساعة الرابعة .

وشربنا القهوة في مقهى (الايرونا) ، جالسين على كراسي خيزرانية مريحة ننعم برطوبة فيء القناطر ، ونردّد ثمة أبصارنا في الساحة الكبيرة . وبعد مضي فترة قصيرة ، ذهب « بيل » ليكتب بعض الرسائل ، وقصد « كون » صالون الحلاقة . غير أن الصالون كان لايزال مغلقاً فاعتزم آنئذ العودة الى الفندق ليستحم .

وبقيت جالسا في المقهى ، ثم خرجت أتجول في المدينة . وكان الجو شديد الحر ، فسلكت الشوارع من جوانبها الظليلة ، واجتازت السوق ، وكنت أشعر بسعادة غامرة وأنا أرى المدينة من جديد .

ومضيت الى (الأنثوتامينتو) باحثاً عن الرجل الشيخ الذي كان يعنى في كل سنة ، بأن يحجز لي محلات لحضور حفلات مصارعة الثيران . لقد تلقى النقود التي حولتها له من (باريس) وأمن لي تجديد اشتراكي في الحفلات . كان يعمل قيماً للمحفوظات ، وكانت كل وثائق المدينة محفوظة في مكتبه . وليس لهذا إيما صلة بسياق القصة - وعلى أي حال ، فقد كان لمكتبه باب من النسيج الغليظ الأخضر يليه باب كبير خشبي . وحين مضيت من لدنه ، تركته جالسا بين وثنائه التي كانت تغطي الجدران كلها ، وأغلقت البابين . ولما أفضيت من مكتبه الى الشارع ، استوقفني البواب ليزيل ماعلق بسترتي من تراب ، وقال لي :

- لاريب أنك كنت تستقل سيارة .

وكانت ياقتي الخلفية والطرفان العلويان من كتفي سترتي ، مكسوة بالتراب .

- من (بايون) .

وقال :

- طبعاً ، طبعاً ، كنت أعلم جيداً بأنك كنت تركب سيارة ، من التراب الذي علق بك .

واعطيته ، لما تكلف من جهد ، قطعتي نقد نحاسيتين .

ورأيت في نهاية الشارع ، الكنيسة ، فيممت شطرها . لقد لاحظت أول مرة شاهدت فيها الكنيسة أن واجهتها قبيحة ولكنها راقت عيني في هذه المرة ، ودخلتها... كانت معتمة من الداخل ، وكانت عمدها مرتفعة ، وألفت أشخاصاً يصلون . وفغم في جوها عبق البخور ، وكان فيها زجاج رائع مقطع بالصور... وركعت وأخذت أصلي فأطيل الصلاة... صليت من أجل الذين كنت

أفكر فيهم ، من أجل « بریت » و « مايك » و « روبرت كرن » ، من أجل ذاتي أنا ، ومن أجل كل مصارعي الثيران . وصلت بصورة منفردة خاصة من أجل من أحبهم ، وبصورة شاملة من أجل الآخرين . ثم عاودت الصلاة من أجل ذاتي . وفيما كنت أصلي من أجل نفسي وجدتني أغفو وحينئذ دعوت الى الله أن يجعل حفلات مصارعة الثيران جميلة رائعة . وأن يكون العيد (الفيسيستا) بديعاً ، وأن يتاح لنا صيد وفير . وتساءلت عما إذا كان في ميسوري أن أسأل الله شيئاً آخر . وفكرت في أنني أحب أن يكون لدي مال ، وجعلت أبتهل الى الله بأن يتيح لي ربح مبالغ طائلة ، ثم أخذت أفكر في الوسيلة التي أكسب فيها المال . وحملتني فكرة الكسب الى تذكر الكونت ، وساءلت ذات نفسي : أين يمكن أن يكون الآن ، وأسفت على عدم تمكّني من رؤيته في تلك الأمسية في (مونمارتر) ، وتذكرت شيئاً مضحكاً روته « بریت » عنه . ولما كنت راکعاً طوال هذا الوقت ، وجهتي على الخشب أمامي ، فإن تذكرتي بأنني كنت أفكر في نفسي وأنا أصلي ، خلف لدي شيئاً من الخجل . وأسفت على كوني كاثوليكياً رديئاً ، غير أنني وجدت أنني لأملك أن أفعل شيئاً آخر من أجل ذلك ، على الأقل ، في هذه الفترة ، وربما الى الأبد... ووجدت أن هذا الدين هو ، على أي حال ، دين عظيم . وتمنيت أن أصبح متديناً وأملت أن أكونه في المرة القادمة . وأخيراً أليت نفسي مغموراً بأشعة الشمس القائظة على درجات الكنيسة . كانت أصابعي وإبهام يدي اليمنى ما تزال ندية ، وشعرت بأنها تجف في الشمس ، وكانت أشعة الشمس حارة قاسية . وجزت الساحة وأنا أسير الى جانب البيوت ، ثم عدت الى الفندق عن طريق الشوارع الصغيرة .

ولاحظنا ، فيما كنا نتعشى ، أن « روبرت كون » قد استحتم وحلق شعره وغسله بصابون (الشامبوان) وأنه قد وضع فوقه شيئاً ما ، ليتماسك . وكان يظهر على « كون » إمارات العصبية والإنفعال . ولم أفعل شيئاً لأجعله يخلد الى الطمأنينة . وكان منتظراً أن يقدم القطار من (سان

سيباستيان) في الساعة التاسعة ، فإذا كان «بريت» و«مايك» قد اعتزما المجيء ، اليوم ، فلا بدّ أنهما قد استقلا هذا القطار .

وفي الساعة التاسعة إلا عشرين دقيقة - ولم نكن قد جاوزنا منتصف وجبة طعام العشاء - نهض «روبرت كون» ، وقال أنه يريد الذهاب الى المحطة .

وقلت له ، لأغيظه ليس غير ، إنني أريد مرافقته . وقال «بيل» إنه يؤثر بأن يذهب الى الجحيم على أن يقطع عشاءه ويمضي . وقلت له : إننا عائدان في الحال .

وذهبنا الى المحطة ، مشياً ، وكنت أستمع برؤية عصبية «كون» ، وتمنيت أن تكون «بريت» في القطار .

وفي المحطة ، علمنا أن القطار سوف يتأخر عن موعد وصوله ، وجلسنا في عربة بضائع ، وانتظرنا ، والظلمة تشملنا ، في الخارج .

إنني لم أرَ ، عمري كلّهُ ، إنساناً في مثل عصبية «روبرت كون» ونفاد صبره . كانت عصبية تسليني . وإنه لشيء مقيت ، أن أستشعر لذة في ذلك ، ولكنني كنت أحس بأنني مقيت . لقد كان «كون» ذا موهبة عجيبة في أن يبعث لدى أي انسان أسوأ العيوب .

وسمعنا ، بعد أمد قصير صفير القطار ، يتناهى من المنخفض القصي في الطرف الثاني من الهضبة . ورأينا مصباح القاطرة يرتقي الأكمة قادماً . ودخلنا الى المحطة وانتظرنا ، واقفين بين جمع من الناس ، خلف الأبواب الحاجزة . ووصل القطار ثم توقف ، وشرع المسافرون يتقدمون ثم يتخطون الأبواب . لم يكونا بين جموع القادمين . وانتظرنا حتى مضى جميع المسافرين وخرجوا من المحطة وابتعدوا عنها واستقلوا الأتوبيس أو المركبات ، أو سعوا مشياً في الظلمة ، صوب المدينة ، مع أصدقائهم وأقاربهم .

وقال «كون» :

- كنت أعلم جيداً أنهما لا يأتيان . فلنعد الى الفندق .

وقلت :

- حسبت لعلهما يستطيعان...

ولمّا وصلنا ، كان « بيل » يأكل فاكهة ، وينهي شرب زجاجة خمر .

- لم يأتيا ؟ هه ؟

- لا .

وقال « بيل » :

- إن لم يكن لديك مانع ، سوف أعطيك صباح الغد مئة بيزيته ، يا

« كون » . إذ لمّا أصرفُ بعد نقودي ، هنا .

وقال « كون » :

- إيه ، إنس هذا ، ولنقم برهان آخر . هل يمكن أن نراهن في حفلات

مصارعة الثيران ؟

وقال « بيل » :

- يمكن ذلك ، ولكن لست بحاجة اليه .

وقلت :

- إنه شبيه بالرهان على الحرب ، فلست فيه بحاجة الى أيما فائدة

اقتصادية .

وقال « روبرت » :

- إنني مشوق الى مشاهدة حفلة مصارعة الثيران .

واقترب « موتويا » من طاولتنا ، حاملاً بيده برقية .

- إنها لك .

وأعطانيها . . وقرأت :

« سنبقى لنبيت في (سان سيباستيان) » .

« بریت »

وقلت :

- إنّها منهما .

ووضعتها في جيبي . . ولو أنها أتت في الحال الإعتيادية . لكنت بسطتها
لهما . وتابعت :

- لقد توقّفا في (سان سيباستيان) إنهما يبعثان إليكما بتحياتهما .
لم شعرت بتلك الرغبة في إثارة غضبه ؟ لأدري . . طبعاً أدري ذلك
جيداً ، ولكنها الغيرة مما تمّ له هي التي أعمتني ، على نحو لا يغتفر . وفي
الحق أن علمي بما حدث بينهما وتقبلي ذلك على أنه أمر طبيعي لم يكن ليبدل
شيئاً . إنني على التحقيق لا أكرهه . . وأحسب أنني لم أكرهه من قبل ، حتّى
ذلك الوقت الذي اصطنع فيه مظهر المتعالي فيما كنّا تتغذى . أضف الى ذلك ،
تردّده الموصول على الحلاق . لهذا كلّه إذن ، دسست البرقية في جيبي .
وعلى أي حال ، فقد كانت البرقية موجّهة إليّ .
وقلت :

- حسناً ، علينا أن نستقل الأتوبيس المسافر ظهراً الى «بورغيت» ،
إنّ في وسعهما اللحاق بنا إن وصلا مساء غد .

ولم يكن هناك ، سوى قطارين من (سان سيباستيان) : قطارفي الصباح
المبكر ، والقطار الذي كنّا في استقباله .
وقال «كون» :

- هذه الفكرة تبدو لي حسنة . كلّما وصلنا مبكرين الى النهر ، كان ذلك
أوفق .
وقال «بيل» :

- الأمر عندي سواء بالنسبة لوقت السفر ، من الأفضل أن نساfer
مبكرين . وذهبنا الى (الايرونا) وجلسنا فترة قصيرة شربنا فيها القهوة ، ثمّ
قمنا بجولة صغيرة حتّى ملعب الثيران . ثمّ توغلنا في الحقول متفّيين الأشجار
حتّى انتهينا الى سفح الهضبة حيث جعلنا نرامق النهر ، من عل ، في حلك
الليل .

وقفلت راجعاً الى الفندق ، لأخلد الى النوم مبكراً ، ومكث «بيل»

و«كون» في المقهى الى وقت متأخر ، فيما أحسب ، إذ كنت نائماً حين
قدما .

وفي صباح اليوم التالي ، شريت ثلاث بطاقات للسفر في الأوتوبيس
المخصص للسفر الى (بورغيت) وكان يغادر - حسب جدول أوقات السفر -
في الساعة الثانية . ولا يوجد أي سفر قبل هذا الوقت .

كنت جالساً في (الأيرونا) أقرأ الصحف ، حين بصرت بـ«روبرت كون»
يجتاز الساحة . واقترب من الطاولة وجلس على كرسي من تلك الكراسي
الخيزرانية ، وقال :

- هذا المقهى مريح جداً ، هل نمت جيداً يا «جاك» ؟
- نمت مثل الحطبة .

- لم أنم جيداً ، لقد سهرت مع «بيل» الى ساعة متأخرة .
- أين كنتما ؟

- هنا . وبعد إغلاقه ، ذهبنا الى ذاك المقهى ، إنّ الرجل الشيخ ، هناك ،
يتكلم الألمانية والإنكليزية .

- أهو مقهى (سويزه) ؟

- هو نفسه . إنّ له ملامح شيخ طيّب النفس . أحسب أنّ ذاك المقهى
أحسن من هذا .

- إنه غير جيد في النهار فهو حار جداً . بهذه المناسبة ، لقد شريت
بطاقات السفر في الأوتوبيس .

- لن أسافر اليوم ، تستطيع أن تسافر مع «بيل» ، قبلي .
- لقد شريت بطاقتك .

- أعطنيها ، سأستعيد ثمنها .

- ثمنها خمس بيزيتات .

وسحب «روبرت كون» قطعة فضية من فئة خمس بيزيتات وأعطانيها .

وقال :

- يجب أن أبقى . أخشى أن يكون ثمّة سوء تفاهم .

وقلت :

- لِمه ؟ قد لا يقدمان الى هنا قبل ثلاثة أيّام أو أربعة إذا كانا قد أساغا
اللهو في (سان سيباستيان) .

وقال « روبرت » :

- هذا هو بالضبط ما عنيت . أخشى أن يكونا في انتظاري في (سان
سيباستيان) . ولعلهما توقفا هناك لهذا السبب .

- ما الذي حملك على هذا الافتراض ؟

- لأنني كنت كتبت الى « بریت » مقترحاً عليها ذلك .

وأردفت قائلاً :

- إذن لمَ لم تبق هناك - بحق الجحيم - لتستقبلهما ... ؟

ثمّ أمسكت عن متابعة الكلام . فلعل هذه الفكرة قد خطرت له ، بيد أنني
لأعتقد أنّها مرّت في باله .

وشعر آنذاك بأنّه منساق للبوح بأسراره . ولعلّه كان يجد متعة أن يكون
في ميسوره التحدّث اليّ . وكأنيّ على علم بأنّ ثمّة شيئاً ما بينه وبين
« بریت » .

وقلت :

- على أي حال ، سنسافر أنا و« بيل » عقب الغداء .

- لكم أود أن أسافر أنا أيضاً ، فقد كنّا نتشوّق طوال الشتاء الى
القيام برحلة العيد هذه (وأخذته رقة عاطفية بهذا الصدد) ، ولكن ينبغي
أن أبقى . في الحق يتعيّن عليّ أن أبقى حالما يصلان الى هنا . فإنني
سأقدم بهما رأساً...

- لنبحث عن « بيل » .

- عليّ أن أغدو الى الحلاق .

- سأراك في وقت الغداء .

ووجدت «بيل» في حجرته يحلق شعر ذقنه . وقال «بيل» :
- أوه بلى ، لقد روى لي كل شيء ، ليلة أمس . إنه هائل في سرد
أسراره . وقد ذكر لي بأن لديه موعداً مع «بريت» في (سان سياستيان) .
- ياله من ابن سفاح كذاب!

وقال «بيل» :

- أوه . لا تستأ ، لا تستأ ، في هذا الوقت ، وقت السفر . هلاً ذكرت لي
كيف تيسر لك أن تتعرف على هذا الشخص ؟
- لاتلح علي .

- أجال «بيل» بصره حواليه ، وذقنه نصف حلقة ، ثم أخذ يتكلم أمام
المرأة وهويزبد رغوة الصابون على خده .

- ألم تبعت به اليّ في (نيويورك) في الشتاء الماضي مع كتاب توصيه
منك ؟ حمداً لله أنني دوماً رجل أسفار! قل لي : ألم تجد بين أصدقائك خيراً
من هذا لتأتي به ؟

ودلك ذقنه بإبهامه ونظر اليه ، ثم تابع الحلق .
وقلت :

- لقد ظفرت أنت بأصحاب في غاية الظرف .

- أوه إن لي بعض الأصحاب ، ولكن ليس بينهم من يداني «روبرت
كون» ، والشيء الطريف أنه - الى ذلك - لطيف ، فأنا أكن له الود ، ولكنه
لا يطاق البتة .

- إن في ميسوره أن يكون لطيفاً جداً .

- أدري ذلك ، وهذا أرهب مافيه .

واستضحكت ، فقال «بيل» :

- بلى ، بلى ، لك أن تضحك فأنت لم تكن معه ليلة أمس حتى الساعة
الثانية صباحاً .

- هل كان مضيقاً جداً ؟

- إنه لرهيب . قل لي ، بهذه المناسبة ، ماقصة علاقته بـ « بریت » هل كانت تعاشره من قبل ؟

ورفع ذقنه وشدها من طرف الى طرف .

- صحيح ، لقد ذهبت معه الى (سان سيباستيان) .

- آه ، يالحماقة اللعينة ، لم فعلت هذا ؟

- كانت تريد أن تنجو من المدينة ، ولم يكن في مكنتها أن تسافر وحدها ، الى أي مكان ، وقد أفضت اليّ بأنها كانت تفكر في أن صحبتها قد تنفعه .

- أي حماقة بلهاء يستطيع البشر أن يقوموا بها ! لم لم تذهب مع شخص من وسطها ؟ معك مثلاً (وذكر على سبيل المثال) أو معي أنا ؟ لم لم أكن أنا ؟ (وحدّق الى سحنته في المرأة ، في أثناء ، ثم غمر كلتا وجنتيه برغوة من الصابون) ، أليس لي رأس لائق ؟ ، إنه رأس تجد لديه أي امرأة أمناً وطمأنينة .

- إنها لم تره من قبل .

- كان عليها أن تراه ، على كلّ النساء أن يتأملن فيه ، إنه رأس حقيق بأن يعرض على الشاشة في البلاد . على أي امرأة ، حين تغادر هيكل المعبد ، أن تظفر بصورة هذا الرأس . على الأمهات جميعاً أن يتحدثن الى بناتهن عن هذا الرأس ، يابني (وأشار اليّ بالمحلق^(١)) ، اذهب الى الغرب بهذا الرأس ، يحالفك أنت وبلدك النّجح .

وانحنى فوق الطست ثم غسل وجهه بالماء البارد ومسحه بقليل من الكحول . وتطلّع الى وجهه ، في عناية ، في صقال المرأة فيما كان يشد شفته العليا الكبيرة . وقال :

- ياإلهي ، تراد رأساً مخيفاً ؟

وعاود النظر الى المرأة واستطرد يقول :

- لنعد الى « روبرت كون » لقد أعياني... حقاً ، إنّ في وسعه أن يمضي الى جهنّم ، وإنني لسعيد جداً بأن أبقى هنا ، وهكذا فلن يتاح له أن يرافقنا في رحلة العيد .

- رأيك صائب وحق الشيطان .

- سوف نذهب لصيد السمك ، سوف نذهب للصيد في نهر (ايراتي) . سنمضي الآن لنسكربخمر هذا البلد ونحن نتناول طعام الغداء ، ثمّ نستقل الأوتوبيس في رحلة مائة .

وقلت :

- هلم . لنذهب الى (إيرونا) ولنبدأ به .

الفصل الحادي عشر

كان الحرّ شديداً في الساحة حين خرجنا بعد الغداء ، بحقائبنا وقصبات السماكة ، لنذهب الى (بورغيت) . وكان جمع من المسافرين فوق سطح الأوتوبيس ، وجعل آخرون يتسلقون السلم .

وصعد «بيل» وجلس «روبرت» الى جانب «بيل» ليحتفظ بمكانه . وعدت الى الفندق لأجلب زجاجتي خمر ، نأخذهما معنا . ولما رجعت كان الأوتوبيس قد امتلأ . وعلى سطح الأوتوبيس كان الرجال والنساء جالسين فوق البضائع والأكياس ، وكانت النساء يحركن مراوحنهن تحت أشعة الشمس . كان الحر في الحق قانظاً ، وهبط «روبرت» واحتلت المكان الذي احتفظ لي به ، على المقعد الخشبي الممتد فوق السطح .

وظل «روبرت كون» واقفاً في فيء القناطر حتى وقت سفرنا ، واستلقى قبالتنا على السطح رجل باسكي ، مسنداً ظهره الى أرجلنا ، واضعاً على ركبتيه زقاً جلدياً كبيراً من الخمر . وقدم زق الخمر اليّ والى «بيل» . ولما رفعته لأشرب ، قلّد الباسكي صوت زمارة السيارة فجأة ، تقليداً كان من الإلتقان بحيث أذى الى انسكاب بعض الخمر على ثوبي . وأغرب الجميع في الضحك . واعتذر الرجل ورجاني أن أشرب مزيداً من الخمر . وبعد هنيهة عاود تقليد صوت الزمارة . وحدث لي كرة أخرى مثلما حدث أوّل مرة . لقد كان ماهراً في ذلك . إنّ الباسكيين مغرمون بذلك كثيراً .

وكان جار « بيل » يتحدث اليه بالاسبانية ، فلم يفتنه شيئاً . ومدة الى الرجل إحدى زجاجتي الخمر ، ففتحى الرجل الزجاجاة ، وذكر أن الحر شديد وأنه شرب قدراً كبيراً من الخمر على الغداء . ولما قدم اليه « بيل » الزجاجاة كرة أخرى ، شرب منها جرعة كبيرة . وتنقلت الزجاجاة ، دائرة على ذلك الجمع الراكب في الأوتوبيس . وكان كل منهم يشرب منها ، في أدب جم ، ثم يعيد سدها ويضعها الى جانب ، وألحوا علينا بأن نشرب من زقاقهم ، لقد كانوا قرويين ذاهبين الى التلال .

وأخيراً ، وبعد صوتين أو ثلاثة أصوات مقلدة لزمارة السيارة ، تحرك الأوتوبيس ، سائراً ، ولوح « روبرت كون » بيده ، وأجاب عنه كل الباسكيين ملوحين بأيديهم . وماكدنا نمضي في الطريق خارج المدينة ، حتى شعرنا بالرطوبة ، وكانت الجلسة ممتعة فوق سطح الأوتوبيس تحت أغصان الأشجار ، وكان الأوتوبيس يسرع بعض الشيء في سيره ، مخلفاً نسيماً قوياً .

وفيما كنا نسعى في الطريق ونحن نهبط التلة ، والغبار يكسو الأشجار . انفسح وراءنا عبر الأغصان منظر رائع للمدينة وهي مشرئبة فوق ذروة الهضبة ، ومطلّة على النهر . وقد دلّني الباسكي المستند الى ركبتى على هذا المنظر بعنق زقه ، وغمز لنا بعينه ، وهز رأسه .

- جميل... هيه ؟

وقال « بيل » :

- هؤلاء الباسكيون... إنهم لشعب ظريف .

وكان الباسكي المستند الى ركبتى قد لوّحت الشمس بسمرة السرج الجلدي . وكان يرتدي قميصاً أسود مثل لباس الآخرين ، وكان عنقه متغضناً . واستدار مقدماً زقه الى « بيل » فناوله « بيل » إحدى زجاجتيه . وحرك الباسكي سبّابته أمامه . وأعاد له الزجاجاة ، وهو يدخل سدادتها بضربة واحدة من راحته . وشال زقه مردداً :

- Arriba. arriba.. الى فوق ، الى فوق .

ورفع «بيل» الزق الجلدي ، وأمال رأسه الى خلف ، وأراق سلسالاً فاض في فمه . ولما انتهى من الشرب وخفض زقه ، تحدّرت على ذقنه قطرات من الخمر .

وقال عدد كبير من الباسكيين :

- لا ، لا ، ليس هكذا . .

وانتزع احدهم - وكان يبدو شاباً - الزق الجلدي من صاحب له كان يهّم نفسه بأن يعرض لنا كيف يكون الشرب ، وأمسك بالزق وشاله عالياً . وضغطت قبضته على الزق فانهرق سلساله وظلّ ممسكاً بالزق والخمر تنصب في خط متّسق الى فمه وهو لا يني يبلغ في انتظام وتمهل .

وحرك شارب الخمر اصبعه الصغيرة ، ونظر الينا وفي عينيه تتألق ابتسامة ، ثم قطع سلسال الزق فجأة ، ورفع الزق في خفة ، واعاده الى صاحبه وغمز بعينه لنا ، وخضضه^(١) صاحبه ، في أسي .

ومررنا بمدينة توقّفت فيها أمام نزل صغير (Posada) . وأخذ السائق رزماً عديدة ثم استأنفنا السير . وإما خرجنا من المدينة ، جعلت الطريق ترتفع ، ومضينا في مزارع تتناول فيها تليلات صخرية ثم تتطامن نحو الحقول . كانت سفوحها مكسوة بسنابل القمح . وكنا كلما أخذنا في الصعود ، تبدّت لنا متموجة على ممسّ الرياح .

كانت الطريق بيضاء مغبرة . والغبار يعلو من العجلات حتى ينعقد سحباً في الفضاء خلفنا .

وارتقت الطريق التلال مخلفةً . حقول القمح الخصبة . في المنخفض نحن الآن في العلاء ، لم يبق سوى بقع من حقول القمح على السفوح الجرداء ، وكان يتفرّق على طرف كل سفح جدول ماء .

(١) خضض : حرك . من فصيح العامية .

واضطربنا الى أن ندور على حيد الطريق فجأة ، لنفسح مكاناً لرتل طويل من بغال ستة كان مشدوداً الى عربة ، ويسعى واحداً في إثر الآخر . وكانت العربة والبغال مكسوة بالغبار . وكان ثمة بغال أخرى وعربة ثانية تدرج وراءها مباشرة ، وكانت هذه العربة محملة بالأخشاب . وانحنى البغال (Agiero) الذي كان يسوق البغال الى خلف ، وشدّ المكابح الخشبية الثقينة حين مررنا .

ولمّا وصلنا الى عل ، بدت الأرض جرداء ، وتراءت الأكمات صخرية ذات صلصال قاسٍ متكلسٍ مخدّد بالأمطار . وفي منعطف الطريق ، وجدنا أنفسنا أمام مدخل مدينة ، وانبسط فجأة ، وادٍ ممرّع أخضر ، وكان هناك نهر يجتاز منتصف المدينة ، وتبدّت حقول الكروم قريبة من البيوت .

وتوقّف الأوتوبيس قبالة نزل صغير (Posada) وهبط كثير من المسافرين ، وأخرجت الحقائب من تحت الأغذية الجلدية الكبيرة التي كانت تلفعها ، وأنزلت من سطح الأوتوبيس . وهبطت مع «بيل» ودخلنا النزل فإذا هو حجرة واطئة مظلمة ، تتدلّى من سقفها سرج ، وعدد الفرس ، ومذاير مصنوعة من الخشب الأبيض ، وعناقيد من الصنادل ، وشرائح من لحم الخنزير وشحمه ، وضافائر من الثوم الأبيض وقطع مستطيلة من السجق . وكانت الحجرة رطبة معتمّة ، واقتربنا من خوان خشبي طويل وقفت خلفه امرأتان تقدمان الشراب ، ووراءهما رفوف حافلة بمختلف السلع والأطعمة .

وشرب كلّ منا قدحاً من (Aguardiente)^(١) ودفعنا الثمن أربعين سنتيماً لتأخذ ما زاد رضيخة^(٢) ، ولكنها أعادت اليّ عشرة سنتيمات ، تحسب أنني أخطأت في الثمن .

(١) نوع من الخمر في الاسبانية .

(٢) بقشيش .

ودخل باسكيان أصراً على تقديم الشراب الينا ، فقدّما الينا الشراب مرة ، وقدمّا نحن اليهما الشراب أيضاً ، وعندئذ ربتا على ظهورنا وقدمّا الينا من جديد ، وقدمّا الشراب بدورنا كرة أخرى .

وخرجنا لنستقبل أشعة الشمس والحر ، ثم ارتقينا سطح الأوتوبيس وأضحى ثمة محلات كثيرة كافية لتتيح لكل واحد بأن يجلس على مقعد . واتخذ الباسكي الذي كان ممدداً ، من قبل ، على سطح الأوتوبيس التوتياي - مجلسه بيني وبين « بيل » .

وخرجت الإمراة التي قدّمت الينا الشراب . وهي تجفّف يديها بمنزرها . وتكلّمت مع شخص داخل الأوتوبيس ، وخرج السائق مراوحاً بيديه كي يبرد جلديّين فارغين ، وصعد . ولوّحت الأيدي بالتحيات ، مودّعة حين رحلنا .

وتخلّت الطريق فجأة عن الوادي الأخضر فإذا نحن بين الأكمات كرة أخرى . وكان « بيل » والباسكي يتجاذبان أطراف الحديث . وانحنى رجل من الطرف الثاني للمقعد وسأل بالانكليزية :

- أأنتما أميركيان ؟

- طبعاً ؛

- وقال :

- لقد كنت هناك منذ أربعين عاماً .

وكان شيخاً في مثل سمرة الآخرين ، عارضاه مكسوّان بلحية خفيفة وخطها الشيب .

- وكيف كانت ؟

- ماذا تقول ؟

- كيف كانت امريكا في ذلك العصر ؟

- اوه ، كنت في (كالفورنيا) ، كانت رائعة .

- ولماذا رحلت عن هناك ؟

- ماذا تقول ؟

- لماذا عدت الى هنا ؟

- اوه ، عدت لأتزوج . كنت أتمنى أن أرجع الى هناك ، ولكن زوجتي

لا تحب السفر . من أين أنت ؟

- من (كانساس سيتي)

وقال : - كنت هناك . وكنت في (شيكاغو) و (سان لوي) و (كانساس

سيتي) و (دنفر) و (لوس أنجلوس) و (سالك ليك سيتي) .

وكان يعددها في أناة .

- كم من الوقت لبثت هناك ؟

- خمسة عشر عاماً ، ثم عدت وتزوجت . . .

- هل تود أن تشرب معنا شيئاً ما ؟

وقال :

- أودّ ذلك ، ليس في ميسور كما الحصول على مثل هذه الخمر في

امريكا ، أليس كذلك ؟

- إنها مبذولة إن كنت تستطيع أن تدفع ثمنها .

- لم جئتما الى اسبانيا ؟

- لمشاهدة حفلات العيد (الفيسيستا) في (بامبيلونه) ،

- هل تحبان مشاهدة حفلات مصارعة الثيران ؟

- طبعاً ، وأنت ؟

- أجل ، أحسب أنني أحبها .

وأردف يقول بعد لحظة :

- والآن الى أين أنتما ذاهبان ؟

- الى (بورغيت) لصيد السمك .

وقال :

- إذن أتمنى لكما صيداً وفيراً .

وشدّ على يدي مصافحاً ، وعاد ليجلس على المقعد خلفنا ، وبدأ على بقية الباسكيين أنهم قد أخذوا بهذا الحديث . وقعد الرجل ورائي في جلسة مريحة . وجعل يبتسم لي كلما استدرت لأتملى مناظر الريف . ويبدو أن الجهد الذي بذله في التحدّث بالانكليزية قد أتعبه ، فلم ينبس ببنت شفة بعد ذلك .

وكان الأوتوبيس لايني يصعد ، وبدأت أرض الريف عارية ، فالصخور تبرز من الصلصال ، ولم نعد نشاهد أي عشب على الطريق ، وكان في مستطاعنا أن نرى ، ونحن نتلقت ، الريف الواسع الممتد من المنخفض . وفي المدى البعيد ، كانت الحقول تؤلف مربعات خضراء وسمراء على سفوح الأكمات . وكانت تسد الأفق جبال سمراء ذات أشكال غريبة . وكنا نرى الى الأفق يتغيّر كلما أخذنا في الإرتفاع .

وفيما كان الأوتوبيس يرتقي الطريق على مهل ، استطعنا أن نرى جبلاً بارزة في الجنوب .

ودارت الطريق حول القمة ، ثم انبسطت وتمهّدت وغابت داخل غابة من شجر السنديان . وكانت أشعة الشمس تنثال حزمًا من فرجات الأغصان ، وكان ثمة قطعان ترعى خلف الأشجار .

وأوغلنا في الغابة . وانسابت الطريق خارجة منها ، ثم دارت حول نشز من الأرض . وكان ينفسح أمامنا سهل أخضر مدور مغلق بجبال سمراء . ولم تكن كتلك الجبال السمراء المتكلّسة التي خلفناها وراءنا . بل كانت جبلاً مشجرة تنساق منها الغيوم منحدره .

وأخذ السهل الأخضر ينبسط الى مدى بعيد طويل ، وكان مقطّعاً بحواجز ، وكان بياض الطريق يلوح من ثنايا جذوع صقيين من الأشجار كانا يشقان السهل في إتجاه الشمال .

ولمّا وصلنا الى سفح الهضبة رأينا بيوت (بورغيت) البيضاء وسطوحها الحمراء . وكانت البيوت مصطفاة في استقامة خارج السهل . ومن بعيد ، على

كنف أول جبل أسود ، تراءى سطح كنيسة (رونسوفال) الرمادي المغلف بالمعدن .

وقلت :

- هذه هي (رونسوفو) .

- أين ؟

- هناك حيث تمتد الجبال .

وقال « بيل » :

- لاريب أن البرد قاسٍ هناك .

وقلت :

- إنها عالية . لعلها أن تشارف ارتفاع ألف ومئتي متر .

وقال « بيل » :

- هناك برد شديد مخيف .

ودرج الأوتوبوس على صعيد مستو مستقيم في الطريق الزاهية الى (بورغيت) ، ثم مررنا بمفرق طريق ، وعبرنا جسراً فوق نهر ، وكانت بيوت (بورغيت) قائمة على جانبي الطريق . ولم يكن فيها شوارع معترضة ، ومررنا بالكنيسة فالمدرسة . وتوقف الأوتوبوس ، ونزلنا ، وناولنا السائق حقائبنا وغمد قصبات الصيد .

واقترب منا جندي يضع على رأسه قبعة مثثة الأطراف ، ويتمنطق زناراً جلدياً أصفر وسأل :

- ماذا يوجد داخلها ؟

وأشار الى غمد قصبات الصيد .

وفتحته وأريته ، وطلب إلينا إبراز رخصتي الصيد ، فأبرزتهما له . وألقى نظرة الى تاريخهما وأشار إلينا بالذهاب ، وسأله :

- هل نحن ضمن النظام ؟

- أجل ، طبعاً .

واتخذنا أدراجنا نحو الفندق ، ومشينا في الشارع ، الى جانب بيوت
حجرية مبيضة بالكلس ، وقد جلست على عتباتها نساء جعلن يتطلعن إلينا .
وخرجت المرأة البدينة التي كانت تدير الفندق ، من المطبخ ، وأقبلت
علينا مصافحة ، ثم نزعت نظارتها وجففتها وأعادت وضعها ، وكان البرد يشيع
في الفندق والهواء قد بدأ يهب في الخارج ، وطلبت المرأة الى فتاة أن ترافقنا
الى علّ لتدلّنا على الغرفة . . كان فيها سريران ومنضدة وصوّان^(١) ولوحة نقش
كبيرة ذات إطار (نويسترا سينيورة دورونسيغال)

وأخذت الريح تهب على مصراعي النافذة ، فقد كانت الغرفة في الطرف
الشمالي من الفندق . واغتسلنا وارتدى كل منا كنزة وهبطنا الى حجرة
الطعام . وكانت أرضها مبلّطة وسقفها وطيناً مصفّحاً بخشب السنديان . كانت
مصاريع النوافذ كلّها مفتوحة وكان البرد من الشدة بحيث كان في ميسورنا أن
نرى لهائنا .

وقال « بيل » :

- يا إلهي . لا يمكن أن يحدث برد كهذا غداً . لن أخوض في النهر في
طقس مماثل .

وقبّع بيانو في أقصى ركن من القاعة خلف الطاولات الخشبية . واقترب
منه « بيل وشرع يعزف عليه وقال :

- إن هذا للمّا يجلب الدفء .

وبحثت عن المرأة وسألتها عن إجرة الإقامة مع الطعام فدرست يديها
تحت منزرها ونحّت بصرها وقالت :

- اثنتا عشرة بيزيطة .

- كيف ؟ أن هذا نفس ما ندفعه في (بامبيلونه) .

ولم تقل شيئاً واكتفت بأن تنزع نظارتها وتنظفها بمنزرها ، وقلت :

- إِنَّ هَذَا لَغَالٍ . إِنَّا لَانْدَفَعُ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا الْمَبْلَغِ فِي فَنْدَقٍ كَبِيرٍ .

- لَقَدْ أَنْشَأْنَا حَجْرَةَ حَمَّامٍ جَدِيدَةً .

- أَلَدَيْكَ مَا هُوَ أَرْخَصُ ؟

- لَيْسَ فِي الصَّيْفِ ، نَحْنُ الْآنَ فِي ذُرْوَةِ الْمَوْسَمِ .

وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ سِوَانَا فِي الْفَنْدَقِ ، وَقَلْتُ فِي ذَاتِ نَفْسِي : « وَبَعْدَ ، فَلَنْ نَبْقَى هُنَا سِوَى أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ » .

- هَلْ يَتَضَمَّنُ ذَلِكَ ثَمَنَ الْخَمْرِ ؟

- أَوْهَ ، أَجَلٌ .

وَقَلْتُ :

- إِذْنٌ لَابَاسٍ .

وَعَدْتُ إِلَى « بَيْلٍ » الَّذِي زَفَرُ لِهَائِهِ عَلَى وَجْهِي ، لِأَرَى إِلَى شِدَّةِ الْبَرْدِ ، وَدَلَفُ إِلَى الْبَيَانُو لِيَعْزِفَ عَلَيْهِ . وَجَلَسْتُ إِلَى إِحْدَى الطَّاولَاتِ وَأَنْشَأْتُ أَتَأَمَّلُ فِي اللُّوْحَاتِ الْمَعْلُوقَةِ . كَانَتْ ثَمَّةُ أَرَانِبٍ مَيِّتَةٍ ، وَدَرَّاجَةٌ مَيِّتَةٌ ، وَصُورَةُ بَطَّاتٍ مَيِّتَةٍ أَيْضًا . وَكَانَتْ الصُّورُ كُلُّهَا مَسْوُودَةٌ ذَاتَ مَنْظَرٍ دَاخِنٍ ، وَكَانَتْ هُنَاكَ خَزَانَةٌ حَافِلَةٌ بِزَجَاجَاتِ الْمَشْرُوبَاتِ الرُّوحِيَّةِ ، وَنَظَرْتُ إِلَيْهَا ، وَكَانَ « بَيْلٌ » لَا يَزَالُ يَعْزِفُ ، وَقَالَ :

- مَا رَأَيْتُكَ فِي شَرْبِ قَدَحِ (بُونَش) ^(١) دَافِيٍّ ؟ إِنَّ مَا أَفْعَلُهُ لَا يَتِيحُ لِي الْإِحْتِفَازَ بِالْدَفءِ دَائِمًا .

وَخَرَجْتُ لِأُشْرِحَ لِلْمَرْأَةِ مَا هُوَ (الْبُونَش) ، وَكَيْفَ يَحْضُرُ . وَبَعْدَ دَقَائِقٍ قَلِيلَةٍ جَاءَتِ الْفَتَاةُ بِكُوبٍ حَجَرِيٍّ يَنْعَقِدُ فَوْقَهُ بَخَارُ (الْبُونَش) . وَانصَرَفَ « بَيْلٌ » عَنِ الْبَيَانُو ، وَشَرِبْنَا (الْبُونَش) الْحَارِفِيمَا كُنَّا نَصْغِي إِلَى زَفِيفِ الرِّيحِ .

- لَيْسَ فِيهِ قَدْرٌ كَافٍ مِنَ الرُّومِ .

وَذَهَبَتْ إِلَى الْخَزَانَةِ وَتَنَاوَلَتْ زَجَاجَةَ (الرُّومِ) فَمَلَأَتْ نِصْفَ الْكُوبِ ، وَقَالَ

(١) الْبُونَش : مَزِيْجٌ مِنْ خَمْرِ الرُّومِ وَعَصِيرِ الْفَاكِهَةِ .

- العمل المباشر خير من التشريع .

وقدمت الفتاة لتعد المائدة قبل أن تجلب طعام العشاء ، وقال « بيل » :

- تهب هنا ريح زعزع من سقر .

وعادت الفتاة تحمل صفحة كبيرة من حساء الخضضر الساخنة ، وخمراً وطعمنا سمكاً مقلولاً وصنفاً من اليخنة وطبقاً كبيراً من الفريز البري ، ولم نخسر نقودنا مع الخمر ، وقد أتت الفتاة بالخمر في خجل مشوب بالمجاملة .
وقدمت المرأة العجوز مرة لتلقي نظرة وتحصي الزجاجات الفارغة .

وبعد أن تعشينا ، سعدنا الى غرفتنا ودخنا وقرأنا ونحن في السرير ، لنحتفظ بالدفء ، واستفقت مرة واحدة في الليل ، فسمعت زفيف الريح . إنه لمن الممتع أن ينعم المرء بالدفء في فراشه .

الفصلُ الثاني عشر

ولمّا استيقظت في الصباح خفت الى النافذة لأسرح منها بصري ، وكان الفضاء مائعاً صافياً بعد أن انقشعت السحب عن الجبال .

وجثمت تحت النافذة ، في الخارج ، عربات نقل ، ومركبة كبيرة قديمة ذات سقف متآكل ومتشقق من اختلاف الطقس . لابد أنها أهملت منذ أيام استعمال الأتوبيس .

وقفزت ماعز على إحدى العربات ومنها الى سطح المركبة ، وهزت رأسها لبقية الموعز في الأسفل ، ولمّا لوحت لها بيدي نطت على الأرض .

كان « بيل » لا يزال نائماً ، فارتديت ثيابي ، وانتعلت حذائي في البهو ، ونزلت الى الدور الأرضي . لم يكن ثمة أحد قد نهض ، فأدرت مزلاج الباب وخرجت . وكان الجو رطباً في الصباح الباكر ، والشمس لمّا تجفّف الندى الذي تشكّل بعد أن هدأت الرياح .

وأخذت أدور تحت السقيفة خلف الفندق ، فعثرت على شيء أشبه بالمعول . وانحدرت الى النهر لأنكت الأرض وأستخرج بعض الديدان كي أتخذ منها طعاماً للسّمك . وكان الماء صافياً ضحلاً ، ولكنه لم يكن يشي بالسّمك .

وغرزت المعول في الشاطئ المعشوشب حيث كان التراب ندياً ، وقلعت مدرة من التراب ، فالفيت تحتها ديداناً لم تلبث أن اختفت حين رفعت

المدرّة . وحفرت في أناة ، واستخرجت كمّية وفيرة . ووجدت وأنا أحضر على طرف الأرض الندية ، قدراً كبيراً من الديدان يمكن أن يملأ علبتي سكاير . وازلت ما عليها من تراب . وكانت المواعز تنظر اليّ فيما كنت أحضر ، ولمّا عدت الى الفندق ، كانت الامرأة في الفندق ، وسألته أن تعدّ لنا القهوة وذكرت لها أننا نود أن نأخذ معنا طعام الغداء .

وكان «بيل» مستيقظاً وجالساً على حافة السرير ، وقال :
- لقد رأيته من النافذة ولم أشأ أن أتدخل ، ماذا كنت تفعل ؟ هل كنت تدفن نقودك ؟

- يا لك من كسول!
- تُراك كنت تعمل للصالح العام ؟ رائع! أتمنّى أن تفعل ذلك كل صباح .
وقلت :
- هيا انهض ، قم . . .
- ماذا ؟ انهض ؟ لن أقوم البتّة .
واندس في فراشه وسحب اللحاف حتّى شارف ذقنه .
- والآن ، حاول أن تنهضني .
وأخذت أبحث عن أدوات الصيد ، ووضعتها في الكيس في غير نظام .
وسأل «بيل» :

- أفلا يشير هذا اهتمامك ؟
- أنا ذاهب لأتناول طعام الفطور .
- الطعام ؟ لمّ لم تقل ذلك من قبل ؟ كنت تفكّر في أنك تود أن انهض وتقصّد ممازحتي ليس غير . الطعام ؟ حسناً . إنك تبدوا الآن معقولاً ، اذهب واستخرج بعض الديدان بينما أكون قد تهيأت التهيؤ كلّهُ .
- اوه اذهب الى الجحيم .

- اعمل للصالح العام (وارتدى «بيل» ثيابه الداخلية) ، أرني شيئاً من لشفقة والسخرية .

وخرجت من الغرفة حاملاً كيس أدوات الصيد : الشبكة والقصبات .
- ايه ، تعال .

ومددت رأسي من الباب .

- هل لك أن تريني شيئاً من السخرية والشفقة .

ووضعت إبهامي على أنفي ساخراً فقال :

- ليس هذا بسخرية .

وسمعت ، وأنا أهبط « بيل » يغني : « سخرية وشفقة ، حين تشع
بذلك ، أوه ، أعطهم سخرية وأعطهم شفقة . وحين يشعرون ، أعطهم قليلاً من
السخرية ليس غير ، قليلاً من الشفقة ليس غير » وظلّ يغني ، الى أن نزل .
كان النغم مقتبساً من نغم الأغنية « الأجراس تدق من أجلي وأجل صديقتي » .
وكنت أقرأ جريدة اسبانية يعود تاريخها الى أسبوع مضى . وقلت له :

- مامعنى هذه السخرية وهذه الشفقة ؟

- كيف ؟ ألم تسمع بالسخرية والشفقة ؟

- لا ، من الذي نشرها ؟

- كل الناس ، كل الناس في (نيويورك) قد جنّوا بها ، إنها كأغنية
(فراثيليني) القديمة تماماً .

ودخلت الفتاة تحمل القهوة مع قطع الكعك المدهون بالزبد ، وبالأصح
قطع الخبز المحمص^(١) المدهون بالزبد ، وقال « بيل » :

- سلها إن كان لديها مربّب^(٢) ؟ وكن ساخراً معها .

- أديكم مربّب ؟

- هذه ليست بسخرية ، لكم أود أن أتكلّم الاسبانية ؟

وكانت القهوة جيدة وقد شربناها في فناجين كبيرة . وأحضرت لنا الفتاة

(١) الموضوع قليلاً على النار . من فصيح العامية .

(٢) في العامية مربّى .

مربب توت العليق في صحن زجاجي .

- شكراً .

وقال « بيل » :

- ليس هكذا ، قل لها شيئاً ساخراً . قص عليها فكاهة عن (بريمودور يفير) .

- في ميسوري أن أسألها أي نوع من المربب يحسبون أنهم قد أساغوه داخل الريف^(١) .

وقال « بيل » :

- إنها سخرية هزيلة ، هزيلة جداً . ليس في وسعك أن تحذق السخرية . هذا كل مافي الأمر ، إنك لاتعرف أن تسخر . وليس لديك أي شفقة . قل شيئاً بسبيل الشفقة :

- « روبرت كون » .

- لا بأس ، إنه موضوع يفضل غيره كثيراً ، نتساءل الآن : لماذا كان « روبرت كون » جديراً بالشفقة ؟ كن ساخراً في الجواب .

وقلت :

- ايه ، يالللجيم ، مايزال الحديث عنه مبكراً في هذا الصباح .

- هكذا ، وتزعم الى ذلك ، أنك تريد أن تصبح كاتباً ؟ لست سوى صحافي مغترب ، عليك أن تكون ساخراً لحظة نهوضك من فراشك ، و عليك ،

إمّا استيقظت ، أن تجعل فمك مليئاً بالشفقة .

وقلت :

- كفى ! من الذي علمك هذا الهراء ؟

- الناس كلهم ، ألم تقرأ شيئاً ؟ ألم ترَ إنساناً من قبل ؟ أتعرف من أنت ؟ أنت مغترب ، لم لاتقيم في (نيويورك) ؟ . لو أقمت هناك لعرفت كل

(١) يعني بها المنطقة التي احتلها الاسبان من مراكش (المغرب) .

هذه الأشياء ، ماذا تريد أن أفعل من أجلك ؟ أن أقدم كل عام ، الى هنا ،
لأروي لك ذلك كله ؟
وقلت :

- اشرب قليلاً من القهوة أيضاً .

- حسناً ، إن القهوة مفيدة لك ، إن فيها مادة (الكافئين) . (الكافئين) ؟
ها نحن أولاء... إن (الكافئين) تسلم الرجل قيادة نفسه ولكنها تفضي
بالمرأة الى القبر . أتدري ماهو الشيء المزعج في وضعك ؟ إنه وضعك
كمغترب ، إنه أقبح نموذج ومثال للإنسان ، ألم تسمع ذلك من قبل ؟ لم
يكتب أي شخص غادر بلده شيئاً جديراً بأن ينشر ، حتى لو في الجرائد .
وشرب قهوته .

- أنت مغترب ، لقد فقدت تماسك بالأرض ، أضحيث ثميناً ، إن أنماطاً
من مستوى معيشة أوروبي مزيف قد أفسدتك . إنك مقبل على الشرب ،
مستسلم لسلطان الغريزة والجنس ، تضع وقتك في الحديث بدلاً من العمل .
أنت مغترب ، ألا ترى ذلك ؟ إنك تنتقل بين المقاهي .
وقلت :

- تتجلى لي الحياة هكذا عذبة سائغة ، فمتى أعمل ؟

- إنك لاتعمل أي شيء ، بعضهم يدعي أن النساء ينفقن عليك وبعضهم
يزعم أنك عنيين .
وقلت :

- لا . . لقد كنت ضحية حادث ، ليس غير .

وقال « بيل » :

- لاتشر الى ذلك الآن ، هذا هو أحد الأشياء التي يجدر ألا تعرض لها في
الحديث ، وهو ماينبغي أن تحوطه بالغموض ، إنه كدراجة « هنري » .
وكان يبدو منطلقاً في الكلام إنطلاقاً رائعاً ، ولكنه سكت فجأة .
وخشيت أن يكون قد ظن أنني استأت من تندرته بعناتتي وأردت أن يتابع

كلامه فقلت :

- لم تكن دراجة . كان يمتطي سهوة جواده .

- قيل لي أنه كان يستقل دراجة بثلاث عجلات .

- لاضرير ، إن الطائرة تشابه دراجة بثلاث عجلات ، إن المكبح في

كليهما يعمل بالطريقة نفسها .

- ولكن ليس للطائرة دواسة .

وقلت :

- لا . أعتقد بأنه ليس لها دواسة .

وقال « بيل » :

- لنغير الحديث .

- كما تشاء . أنني أدافع عن الدراجة ذات العجلات الثلاث ، ليس غير .

وقال « بيل » :

- أحسب أنه كاتب جيد ، وأنت شخص طيب ، على نحو هائل ، ألم يقل

لك أحداً ما إنك شخص طيب ، من قبل ؟ .

- لست شخصاً طيباً .

- إصغ الي . أنت شخص طيب على نحو هائل . وإنني لأحبك أكثر من أي

إنسان في الدنيا ، لن يكون في ميسوري أن أردّد هذا في (نيويورك) لئلا

يحمل كلامي على أنني(درويش) . لقد كان هذا هو الذي أشعل نار الحرب

الأهلية... كان «ابراهيم لنكولن» درويشاً ، كان يحب الجنرال «غرانت»

وكذلك كان «جيفرس دافيس» . وقد ألغى «لنكولن» الرق نتيجة الرهان

ليس غير . ولم تحرك قضية «دريد سكوت» إلا بتدخل جمعية منع

المسكرات . إن المسائل الجنسية تفسر كل هذا... إن عقلية الكولونيل ،

و«جودي أوغريدي» هما اليسبوسيان حتى منبت أظافرها .

وأمسك عن الكلام ثم قال :

- هل تود سماع مزيد ؟

وقلت :

- تابع .

لأدري شيئاً أكثر من هذا ، وسأروي لك شيئاً ونحن نتغذى .

وقلت :

- إيه أيها العزيز « بيل » .

- أيها الخبيث .

والتهمنا طعام الغداء ، وأتينا على زجاجتي خمر من الكيس ، وحمله « بيل » على ظهره ، ووضعت أنا غمد القصبات والشبكات في كيس على ظهري ، وأخذنا نمشي مصعدين . واجتزنا سهلاً . وألفينا درباً يعبر الحقول ، وأوغلنا في الغابة الممتدة على سفح أول أكمة . ثم مضينا في الدرب الرملية عبر الحقول المتموجة المعشوشبة . كان العشب صغيراً لأن الأغنام كانت قد رعته . وكانت القطعان تسرح في أعلى الأكمات ، وتناهى الى سمعنا أصوات أجراسها من الغابة .

وكانت الدرب تعبر نهراً ، وتمتد على جذع شجرة مصقول بالمنجر ، وقد انعطف فوقه فرع شجرة ليكون له متكأ .

وكان صغار الضفادع في الماء الراكد الى جانب النهر ، ترفش الرمل . وعلونا ضفة وعرة ثم جزنا حقولاً متموجة . وتطامنت نظراتنا فصافحت (بورغيث) ورأينا بيوتها البيضاء وسطوحها الحمراء وطريقاً بيضاء تتدرج في مداها سيارة بضائع وتثير سحباً من الغبار .

واجتزنا ، إثر الحقول ، نهراً آخر أكثر سرعة وتدفقاً وكانت هناك درب رملية تنحدر وتنتهي الى مخاضة ، ثم تنساب في الغابة . وكانت الدرب تعبر النهر ، فوق المخاضة ، على جذع شجرة أيضاً لتستأنف امتداد الطريق...

ودخلنا الغابة ، وكانت حافلة بأشجار الزان ، وبدت لنا هرمة ، جذورها ناجمة عن الأرض ، وأغصانها مجدولة .

وحششنا الخطى في الطريق بين جذوع أشجار الزان الضخمة الهرمة .

كانت الشمس تنفض أشعتها من فرجات الأغصان دوائر مضيئة فوق العشب .
وكانت جذوع الأشجار ضخمة وأوراق أغصانها كثيفة ، بيد أنها لم تكن
تشيع عتمة وكآبة . لم تكن ثمة أشجار متواشجة ، بل كان ينبسط عشب ناعم
حاني الخضرة^(١) ندي . وكانت الأشجار الرمادية متنائية ، بعضها متباعد عن
بعض بشكل منتظم ، كأنها مزروعة في حديقة عامة .
وقال « بيل » :

- هذا هو الريف .

وكانت الطريق آخذة في الصعود نحو الأكمة . ووصلنا الى غابة كثيفة
والطريق لاتأتلي تعلقو . مع أنها قد تنخفض أحياناً ، لتستأنف صعودها ، صعبة
المرتقى . وكانت أصوات القطعان تتأتى الى سمعنا ، طوال الوقت من
الغابات . وتوغلنا ، بعدئذ ، في أعلى قمة من سلسلة الأكمات المشجرة التي
كنّا نراها من (بورغيت) . وكان التوت البري نامياً على الطرف المشمس من
القمة ، في بقعة صغيرة بين الأشجار .

وتلوت الطريق الخارجة من الغابة ، أمامنا ، لترتقي قمم الأكمات التي
بدت لنا غير مشجرة . وكانت تنفسح حقول وسيعة من شجر الرتم الأصفر
ورأينا جرفاً مغطى بالأشجار المظلمة وموشى بالصخور الرمادية التي تمشي
بمجرى نهر (إيراتي) .

- ينبغي أن نسلك هذه الطريق التي تتجه الى القمة ، ونتجاوز هذه
الأكمات ونجتاز الغابات القائمة على تلك الأكمات البعيدة هناك ، ثم ننحدر
الى وادي (إيراتي) .

وأشرت الى ذلك لـ « بيل » فقال :

- إنها مسيرة جهنمية .

- إنها بعيدة جداً ، إذا شئنا أن نذهب لنصطاد ثم نعود في يسر ، في

النهار نفسه .

- في يسر :إنها كلمة جميلة .علينا أن نضرب في طريق جهنمية ، ثم نؤوب دون أن يتاح لنا أن نظفر بأي صيد .

وأخذنا نسير دائيين . كانت مناظر الريف جميلة جداً ، غير أننا شعرنا بالتعب حين جعلنا ننحدر في الطريق الوعرة الممتدة من الأكمات المشجرة الى وادي (ريودولا فابريكا) .

وانبثقت الطريق من أفياء الغابة الى لظى الشمس ، وانساب أمامنا نهر في واديه ، وارتفعت من العدوثة الثانية للنهر أكمة وعرة . وكان ينفسح فوق الأكمة حقل من الحنطة السوداء .

ورأينا بيتاً أبيض ، قائماً بين بعض الشجيرات على سفح الأكمة . وكان الحرّ شديداً ، فتوقفنا في فيء الشجر ، الى جانب سد يقطع النهر .

وألقى «بيل» كيسه قبالة إحدى الشجيرات ، وشرعنا ننتهياً للصيد ، بعد أن وصلنا قصبات السماكة وأعددنا الملفات .

وسأل «بيل» :

- أمتأكد أنت من أنه يوجد هنا سمك الاطروط ؟

- إنه متوفر بكثرة هنا .

- سأصيد أنا بطعم ذبابة . هل جلبت معك علبة ذباب (ماك جينتيس) ؟

- يوجد شيء منه هناك .

- هل تنوي أن تصيد بطعم دودة ؟

- أجل . سوف أصيد هنا ، في ماء السد .

- اذن سوف آخذ علبة الذباب (وعلق ذبابة) . أين ينبغي أن أذهب ؟ أفي

اتجاه عالية النهر أم سافلته ؟

- من الأفضل في اتجاه سافلته . ولكن يوجد كثير من السمك في عاليته

أيضاً .

ونزل «بيل» الى الضفة .

- خذ معك علبة من علب الديدان .

- لا . لا أريد . إذا لم يرغب السمك في الذباب فلسوف أرمي بالقصبة .
وكان « بيل » على الضفة الوطيئة ، يحدّق الى النهر . وعلا صوته على هدير
ماء السد ، صارخاً :

- اسمع... هلاً وضعت زجاجتي الخمر في الخزان ، هناك ، في أعلى
الطريق ، وصرخت :

- حسناً . ولوّح « بيل » بيده وجعل يهبط في اتجاه مسير النهر ، ووجدت
زجاجتي الخمر في الكيس فأخرجتهما وسعيت الى النبع حيث ينبجس الماء
من خزان ويسيل في قناة حديدية . وكان فوق الخزان لوح خشبي فرفعته ،
وكبست سدّاتي الزجاجتين في قوة ، ثم غوّصتهما في الماء ، وكان من
البرودة ، ماهراً ساعدي وراحتي . وأعدت اللوح الخشبي الى مكانه ، آملاً ألا
يستطيع أحد العثور على الخمر .

أمسكت بقصبتي التي كنت قد أسندتها الى جذع شجرة ، وأخذت علبة
الطعوم والشبكة ، ومشيت فوق السد ، الذي كان قد بني ، ليتوفّر الماء اللازم
لتعويم الخشب ونقله . وكان حاجز السد مفتوحاً ، فجلست على أحد الألواح
السنديانية المربّعة ، وأخذت أتأمل في سطح الماء الهادئ الأملس شلالاً .
وكان الماء المزبد الأبيض بحذاء أسفل السد ، عميقاً . وفيما كنت أضع الطعم
نطت سمكة من الماء الى مهبط الشلال ثم توارت ، وما كدت أنتهي من وضع
الطعم حتى نطت سمكة أخرى الى الشلال ، بالحركة الدائرية الرشيقة نفسها .
ثم اختفت في الماء الهادر . ووضعت راسباً متوسط الحجم ودفعت بخيط
قصبتي الى الماء الأبيض صوب حافة ألواح السد .

ولم أشعر بالسمكة الأولى وهي تعض الطعم ، ولكن ، حين شرعت
أجذب الخيط ألفت أنني اصطدت سمكة وسحبته ، فيما كانت تتخبّط
وتعطف قصبتي من الماء الجياش في مهبط الشلال . وأرجحتها في الفضاء قبالة
السد . كانت سمكة رانعة ، وضربت رأسها باللوح الخشبي فتخلّجت وقرّت

حركتها ثم أزلقتها في سفطي .

وكانت سمكات عديدة قد نطت ، فيما كنت أصيد هذه السمكة ، الى مهبط الشلال . وماكدت أضع الطعم وأرمي بخيط قصبي حتى ظفرت بثانية ووضعتها الى جانب الأخرى ، وأضحى لدي بعد فترة قصيرة ، ست سمكات . وكانت جميعها ذات أحجام متقاربة ، ورصفتها ، الواحدة منها الى جانب الأخرى ، ورؤوسها متجهة الى طرف واحد ، وأخذت أدقق في النظر . كانت ألوانها ساحرة ، وقد صيرها الماء البارد جامدة صلبة . وإذا كان النهار قائظاً ، فقد بقرتها كلها ونزعت أحشاءها ورميت بأحشائها في النهر . ثم وضعتها على الشط وغسلتها بالماء البارد الساكن الثقيل ، فوق السد ، ثم قطفت أوراقاً من نبات الخنشار ولففتها بها ، في السفط ، فوضعت ثلاث سمكات على وريقات الخنشار ، وفوقها ثلاث أخر ثم غطيتها بوريقات الخنشار ، وكانت تتراءى لطيفة جميلة تحت الأوراق ، وأضحى السفط ممتلئاً بها فنقلته الى فيء شجرة .

كان الجو حاراً على السد ، فوضعت علبة الديدان في الظل الى جانب السفط . وأخذت كتاباً من الكيس وتفتيات شجرة لأقرأ ، منتظراً أوبة «بيل» لتتغذى سوية .

وكان الوقت بعد الظهيرة ، وتقلصت الظلال ، بيد أنني أسندت ظهري الى جذعي شجرتين متجاورتين وأخذت أقرأ .

وكان الكتاب من تأليف (أ . ي . ماسون) ، وقرأت قصة رائعة عن رجل تجمد في جبال الألب ، إذ سقط في كتلة من الجليد حيث اختفى . وكانت خطيبته تعدّ نفسها لأن تنتظر مدى أربعة وعشرين عاماً ، حتى يأزف اليوم الذي تخرج جثته من ركام الجليد ، في حين كان الرجل الذي تحبه حقاً ينتظر أيضاً . وكان كلاهما بسبيل الانتظار ، في القصة ، حين أقبل اليّ «بيل» سائلاً :

- هل اصطدت شيئاً ؟

وكان يحمل بيده قصبته وسفطه وشبكته ، وكان جسمه ينتضح عرقاً ،
ولم اسمعه حين أتى ، بسبب هدير المياه المتساقطة من السد .
- ست سمكات ، وأنت ؟

وجلس « بيل » وفتح سفطه وأراح على العشب سمكة كبيرة ، وأخرج
ثلاث سمكات أخر ، كل واحدة منها أكبر من سابقتها ، وصفها بعضها الى
جانب بعض في ظل الشجرة ، وكان وجهه المتألق بالفرح يقطر عرقاً ، وقال :

- وما حجم سمكاتك ؟

- إنها أصغر من سمكاتك .

- أرني إياها .

- لقد لففتها .

- ماطولها ؟ حقاً ؟

- طول الواحدة منها يقارب أصغر سمكة من سمكاتك .

- ألا تغشني ؟

- أود ذلك .

- هل اصطدتها كلها بالطعم ؟

- أجل .

- يالك من كسول !

وأعاد « بيل » السمكات الى السفط ومضى الى النهر وهو يراوح السفط
المفتوح . وكان « بيل » مبلأً حتى خصره ، وعرفت أنه قد خوض في النهر .
وذهبت صعداً في الطريق لآتي بزجاجتي الخمر ، فألفيتهما باردتين . وحين
عدت الى شجراتنا كانتا تقطران نداوة . ووضعت طعام الغداء على جريدة ،
وفتحت إحدى الزجاجتين ، مسنداً الأخرى الى شجرة .

وتقدم « بيل » وهو يجفف يديه ، وسفطه مليء بنبات الخنشار ، وقال :

- لننظر الى هذه الزجاجاة (وفتحها وأمالها ثم شرب) أي ، إنها تؤلم

عيني .

- دعني أجرب .

وكانت الخمر مثلجة ، وكان يمازج مذاقها شيء من الصدا .

وقال « بيل » :

- ليست بالخمر الرديئة .

وقلت :

- إن البرد يحسن منها .

وفتحنا مزادة^(١) الغداء الصغيرة .

- دجاج .

- وهذا بيض مسلوق .

- هل وجدت الملح ؟

وقال « بيل » :

- لنأخذ البيض أولاً ثم الدجاج ، لعل « بريان » يرى ذلك أيضاً .

- لقد مات . قرأت الخبر أمس في الجريدة .

- حقاً ؟

- أجل . لقد مات « بريان » .

ووضع « بيل » البيض التي كان يقشرها وقال :

- سادتي (وأخرج من ورقة جريدة ساق دجاجة) إنني أعاكس النظام من

أجل « بريان » ، إننا نبدأ ، تكريماً لذكرى النائب العظيم بالدجاج ثم نشفعه بالبيض .

- إنني أتساءل : في أي يوم خلق الله الدجاج ؟

وقال « بيل » : وهو يمصمص قطعة فخذ .

- كيف تريد أن تعرف ذلك ؟ ينبغي ألا نناقش هذا . إن بقاءنا على

الأرض ليس بطويل ، فلنتمتع ولنؤمن بالله ولنحمده .

(١) المزادة : ما يوضع فيه الزاد . ولعل العامة اشتقت منه الزوادة وهو طعام السفر . (المغرب)

- هلاً أكلت بيضة .

وكان « بيل » يحرك يديه ممسكاً بيدٍ قطعة الفخذ ويبد زجاجة الخمر .

- لنتمتع ببركة السماء . ولنسغ طيور السماء ونستصف نتاج الكرمة .

هل تود يا أخي أن تحظى بشيء من ذلك ؟

- في أثرك يا أخي .

وشرب « بيل » جرعة كبيرة ، وتابع :

- خذ قليلاً منها (وناولني الزجاجة) ، ولا تستسلم الى الشك يا أخي ،

وإياك أن تبتهل وأنت تفضّ أسرار الدجاج المقدسة ، بأصابعك القردية .

لنعتقد بقلب مؤمن ، ولنقل في بساطة : « أريد أن تنضموا إلينا لنقول » :

ماذا ينبغي أن نقول يا أخي ؟

وأوماً لي بقطعة الفخذ وأردف :

- دعني أقل لك ، وإنني لفخور بأن أقوله - وأريد أن تقوله معي يا أخي

ونحن راكعان - ينبغي ألا يخجل أي انسان من الركوع هنا ، في هذا المنفسح

من الفضاء ، تذكر أن الغابات كانت المعابد الأولى للرب ، فلنركع ولنقل :

« لا تأكل هذه اللادي . يمكن أن تكون « مينكن » .

وقلت :

- إيه اشرب قليلاً من هذه .

وفتحنا الزجاجة الثانية ، وقلت :

- ماذا دهاك : تراك لاتحب « بريان » ؟

وقال :

- أنا ؟ ولكنني أعشقه ، كنّا كأخوين . .

- أين تعرّفت إليه ؟

- كنّا أنا وهو و« مينيكن » سوية في معهد (هولي كروس) .

-« وفريدريك فريش » .

- « ليس هذا بصحيح ، لقد ذهب « فرانكي فريش » الى « فورد هام » .

وقلت :

- أمّا أنا فقد ذهبت الى (لوايولا) مع القس « ماينغ » .

وقال « بيل » :

هذا كذب... فقد ذهبت أنا الى (لوايولا) مع القس « ماينغ » .

وقلت :

- أنت سكران .

- من الخمر ؟

- لم لا ؟

وقال « بيل » :

- من الرطوبة ، ينبغي أن تزول هذه الرطوبة اللعينة .

- اشرب قدحاً آخر .

- أهذا كل مالدينا ؟

- زجاجتان .

- أتدري من أنت ؟

ونظر « بيل » الى الزجاجاة في حنان . وقلت :

- لا .

- أنت من يعمل لمصلحة جمعية منع المسكرات .

- لقد ذهبت الى معهد (نوتردام) مع « داين ويلر » .

وقال « بيل » :

ليس هذا بصحيح . لقد ذهبت أنا الى مدرسة التجارة في (أوستن) مع

« داين ويلر » . كان رئيساً في صفه .

وقلت :

- حسناً يجب أن تزول الحانة .

وقال « بيل » :

- رأيك صائب يازميلي في الدراسة ، يجب أن تزول الحانة ، وسأخذها معي...

- أنت سكران .
- من الخمر ؟
- من الخمر .
- حسناً لعلّي أن أكونه .
- هل تود أن تنام قليلاً ؟
- حسناً .
- واضطجعنا ، ورأسانا في الفيء ، ونحن نحدّق الى الأشجار .
- هل نمّت ؟
- وقال « بيل » :
- لا أنا أفكّر .
- وأغمضت عيني . إنّ الاضطجاع على الأرض لذيد .
- وقال « بيل » :
- هل ذكرت لي ما هي قصّة « بریت » ؟
- أي قصّة ؟
- هل كنت تتعشّقها من قبل ؟
- طبعاً .
- كم استمر ذلك من الوقت ؟
- في غضون فترات مديدة جهنمية من الوقت .
- وقال « بيل » :
- اوه يا للجهنم ! عفواً اليك يا عزيزي .
- وقلت :
- لا بأس عليك ، إنني لأعبأ بذلك الآن .
- حقّاً ؟
- حقّاً . ولكنني أود الا يعرض الحديث الى ذلك البتّة .
- هل استأت ، لأنني سألتك ذلك ؟

- ومم أستاذ ؟

وقال « بيل » : - سأنام .

وغطى وجهه بالجريدة ، وقال :

- قل لي يا « جاك » أنت كاثوليكي حقاً ؟

- بصورة فعلية .

- ماذا تعني بذلك ؟

- لا أدري .

وقال :

- حسناً ، والآن ، سأنام ، لا تزعجني بأحاديثك .

ونمت أنا أيضاً ، ولما استيقظت ، كان « بيل » يعدّ كيسه . كان النهار قد

مضى أكثره ، وكان ظل الأشجار يمتد ، طويلاً ، حتّى بلغ السد . وشعرت

بتيّس في أوصالي إثر رقادي على الأرض .

وقال « بيل » :

- ماذا فعلت ؟ هل استيقظت ؟ لم لا تبقى هنا الليلة كلّها ؟

وتمطّيت وفركت عيني .

وقال « بيل » :

لقد رأيت حلماً حلواً ، لا أذكر تفاصيله ، ولكنه كان حلماً رائعاً ،

- أحسب أنني لم أحلم أي حلم .

وقال « بيل » :

- كان عليك أن تحلم بشيء . إنّ كل رجال الأعمال العظام ، عندنا ،

كانوا حالمين . انظر الى « فورد » وانظر الى الرئيس « كوليدج » والى

« روكفلر » والى « جو دافيدسون » .

وطويت قصبتي وقصبة « بيل » ووضعتهما في الغمد ، كما وضعت

الملفاف في كيس الصيد . وكان « بيل » قد انتهى من ترتيب الكيس ،

ووضعنا فيه سبط السمك ، وحملت أنا السبط الآخر ، وقال « بيل » :

- وبعد ؟ فهل أخذنا كل شيء ؟

- والديدان ؟

- ديدانك ؟ ضعها هنا .

وكان الكيس على ظهره ، فوضعتها في إحدى جيوبه الجانبية .

- هل أخذت كل شيء الآن ؟

وأجلت نظري حولي ، فوق العشب ، وعند منابت جذوع الأشجار .

- أجل .

وسلكنا الطريق بين الغابات ، وكانت مسيرتنا الى (بورغيت) طويلة .

وكانت الظلمة قد غلبت حين انحدرنا ، عبر الحقول ، في الطريق التي أفضت بنا الى الفندق القابع بين بيوت القرية ذات النوافذ المضيئة .

وأقمنا في (بورغيت) خمسة أيام كان فيها صيدنا وفيراً . وكان الليل رطباً والنهار حاراً ، والنسيم يهب دوماً ، حتى في الساعات القائظة من النهار . وكانت الحرارة قوية الى حد أننا كنا نجد متعة كبيرة في التخويض وسط الماء البارد ، وكانت تنشّفتنا ونحن جالسان على الضفة ، وقد عثرنا على نهر ذي بركة عميقة صالحة للسباحة . وفي المساء كنا نلعب البريدج مع ثالث لنا ، وكان انكليزياً يدعى « هاريس » ، جاء سيراً على قدميه ، من (سان جانبيه دوبور) وأقام في الفندق بغية الصيد . وكان لطيفاً جداً ، وقد رافقنا مرتين الى نهر (إيراتي) . ولم يصلنا أي خبر من « روبرت كون » ولا من « بریت » و« مايك » .

الفصل الثالث عشر

ذات صباح ، نزلت لأتناول طعام الفطور ، وكان « هاريس » جالساً الى الطاولة يقرأ في جريدة ، واضعاً نظّارته . ونظر اليّ وهو يبتسم وقال :
- صباح الخير ، توجد رسالة موجّهة اليك ، لقد توقفت في مكتب البريد فسلمنيها مع الرسائل الخاصة بي .

وكانت الرسالة موضوعة أمام مجلسي من الطاولة ، ومسندة الى فنجان القهوة ، وكان « هاريس » منصرفاً الى مطالعة الجريدة . وفتحت الرسالة .
كانت مؤرّخة من يوم الأحد . سان سياستيان :
« عزيزي جاك »

لقد وصلنا الى هنا ، يوم الجمعة . وقد مرضت « بریت » في القطار مرضاً شديداً . وقد جئنا الى هنا لنستريح ثلاثة أيام لدى رفاق قدماء لنا . سنقدم يوم الثلاثاء ، الى فندق (مونتويا) في (بامبيلونه) ، ولأدري في أي ساعة سنصل . ابعت الينا بكلمة ، بواسطة الأوتوبيس ، لتعلمنا كيف نستطيع أن نلتقي بكما ، يوم الأربعاء تحية ودية من كلينا ، وألف اعتذار على تأخرنا . لقد كانت « بریت » في الحق ، على آخر رمق من الوهن ، وسوف تستعيد قواها يوم الثلاثاء تماماً . ويمكن أن نقول إنها قد استعادت قواها ، فعلاً الآن . إنني أعرفها جيداً ، وأجهد في العناية بها . وهذا ليس بالأمر اليسير ، التحيات الى جميع الأخوان .

« ميشيل »

وسألت « هاريس » :

- أي يوم هذا اليوم من الأسبوع ؟

- أحسب أنه يوم الأربعاء ، بلى ، الأربعاء ، إنه لشيء عجيب ، كيف

ينسى المرء مفهوم الزمن في هذه الجبال !

- أجل . ها قد مضى علينا أسبوع تقريباً ، ونحن هنا .

- أمل ألا تفكراً في الرحيل .

- أجل ، أخشى أن نكون مضطرين الى الرحيل ، في الأوتوبيس الذاهب

بعد الظهر .

- إنه لشيء مضايق . لكم كنت أرجو أن تتاح لنا فرصة أخرى نذهب فيها

الى نهر (إيراتي) .

- علينا أن نعود الى (بامبيلونه) فإنّ لنا فيها موعداً مع أصدقاء .

- يا لحظّي السيئ ! لقد أمضينا هنا ، في (بورغيت) ، وقتاً ممتعاً .

- تعال معنا الى (بامبيلونه) ، سوف يكون في ميسورنا أن نلعب

البريدج ، ولسوف يكون العيد (الفيسيستا) رائعاً جداً .

- كم أودّ ذلك ، إنه للطف منك أن تطلب اليّ ذلك ، ولكنني أبقى هنا ، إذ

لم يبق لدي منفسح كافٍ من الوقت للصيد .

- إنك ترغب في السمكات الكبيرة من نهر (إيراتي) .

- أوه ، أظن ذلك ، ابقى يوماً آخر تكن إنساناً كريماً .

- علينا أن نعود الى (بامبيلونه) .

- وا أسفاه .

ولمّا انتهى طعام الفطور جلست أنا و«بيل» على مقعد ، قبالة الفندق ،

نتمتّع بدفء أشعة الشمس وأخذنا تتداول الرأي في الأمر . ورأيت فتاة تتقدّم

من الطريق . كانت آتية من مركز المدينة . وتوقفت أمامنا ، وأخرجت برقية

من قمطر جلدي يتدلّى على ثوبها . وقالت :

- Por Ustedes الى حضرتكم ؟

ونظرت الى البرقية ، وكان العنوان : الى « بارنس » - (بورغيت) .
وقلت :

- أجل هي لنا .

وأخرجت دفترأ لأضع فيه توقيعي ، وأعطيتها قطعتين نحاسيتين من النقد
وكانت البرقية بالاسبانية :

Vengo Jueves

« كون »

- ماذا تعني كلمة « كون » ؟

وقلت :

- يا لها من برقية بلهاء ! كان في وسعه أن يضع عشر كلمات ويدفع الثمن
نفسه ، إنه يقول : « سأصل الخميس » - « كون » إن هذا يعني شيئاً كثيراً ،
ألا تجد ذلك :

- هذا يفسر لك كل ما يهم « كون » .

وقلت :

- سنسافر على أي حال ، من العبث أن نستقدم « بريت » و« مايك » الى
هنا ، ثم نعود ، بعد ذلك ، لنحضر العيد ، (الفيسستا) . هل يتعين علينا أن
نرد على البرقية ؟

وقال « بيل » :

- هذا أفضل ، فلسنا بحاجة الى أن نتصنع التعالي .

وذهبنا الى مكتب البريد وطلبنا ورقة برقية ، وسأل « بيل » :

- ماذا ستكتب له ؟

- سنصل مساء ، هذا كاف .

ودفعنا أجرة البرقية ، وعدنا مشياً الى الفندق ، وكان « هاريس » هناك .

وصعدنا نحن الثلاثة الى (رونسوفو) ، لنزور الكنيسة .

وقال « هاريس » بينما كنا نخرج منها :

- إنه مكان آخاذا . بيد أن هذه الأشياء لاثثير تطلعي .

وقال « بيل » :

- ولاثثير تطلعي أيضاً .

وقال « هاريس » :

- ومع ذلك ، فإنه مكان آخاذا ، كنت أوشك ألا أظفر برؤيته ، فقد كنت

كل يوم أنوي زيارته ثم أرجىء الزيارة .

وقال « بيل » :

إنه كالصيد ، على أي حال . أليس كذلك ؟

وكان « بيل » يحب « هاريس » ، وأجابه « هاريس » :

- لست أظن ذلك .

وتوقفنا أمام معبد الكنيسة القديم .

وسأل « هاريس » :

- أليست تلك بحانة ، هناك ، على الجانب الثاني من الطريق ، أم أن

عيني تخدعاني ؟

وقال « بيل » :

- إنها تشبه حانة .

وقلت :

- تتراءى لي كأنها حانة .

- هل لنا أن نستعملها ؟ (لقد أخذ عن « بيل » فعل : استعمل) .

واحتسى كل واحد منا زجاجة خمر ، ولم يدعنا « هاريس » ندفع ثمنها ،

وكان يتكلم الاسبانية جيداً . وتمنّع صاحب الحانة من أخذ الثمن وقال

« هاريس » :

- إنكما لاتعرفان ، ماذا يعني بالنسبة لي ، وجود كما معي هنا .

- لقد أمضينا وقتاً طيباً ، يا « هاريس » .

وكان « هاريس » قد سكر بعض الشيء . وقال :

- أقولها لكما ، أنكما لاتعرفان ماذا يعني هذا بالنسبة اليّ ، إنني لم أسغُ
مثل هذه المتعة قط ، منذ الحرب .

- سوف نصيد معاً ، يوماً ما ، لاتنس ذلك يا « هاريس » .

- بلى ، بلى ، علينا أن نقوم بذلك ، يوماً ما ، لقد أمضينا أوقاتاً هنيئة .

- هلاً شربنا زجاجة أخرى .

وقال « هاريس » :

- إنها فكرة جميلة .

وقال « بيل » :

- الآن دوري في الدفع ، وإلا رفضنا أن نشرب .

- أود أن تدعاني أدفع ، إن هذا ليسرني كثيراً .

وقال « بيل » :

- في هذه المرة ، يجب أن أظفر أنا بالسرور .

وأحضر لنا صاحب الحانة الزجاجة الرابعة ، واحتفظنا بأقداحنا ، ورفع

« هاريس » قدحه .

- حقاً إن هذا « يستعمل » جيداً .

وربت « بيل » على ظهره :

- أيها العزيز « هاريس » .

- ألا تعلمان أن اسمي في الواقع ليس « هاريس » ، بل « ويلسون -

هاريس » إنه اسم مركّب مع فاصل بين جزأيه . وقال « بيل » :

- يا عزيزي « ويلسون - هاريس » إننا ندعوك « هاريس » لأننا نحبك كثيراً .

- كما ذكرت لك يا « بارنس » ! إنك لاتدري ماذا يعني هذا بالنسبة اليّ .

وقلت :

هلاً « استعملت » قدحاً آخر .

- « بارنس » ، حقاً يا « بارنس » ليس في ميسورك أن تعرف . . هذا كل

شيء .

- اشرب يا « هاريس » .

وعدنا ، مشياً ، من (رونسوفو) يتوسطنا « هاريس » ، وتغدينا في
الفندق ، ورافقتنا « هاريس » الى الأوتوبوس ، وأعطانا بطاقته ، وكانت تشير
الى عنوانه في (لندن) ، وناديه وعنوانه التجاري . وفيما كنا نصعد الاوتوبوس
اعطى « هاريس » كلاً منا ظرفاً وفتحت ظرفي فإذا بي أجد دزينة من الذباب ،
كان « هاريس » قد علقها ونسّقها ، وكان يعلق ذباباته كلها .
وقلت :

- ما هذا يا « هاريس » ؟

فقال :

- لا ، لا ، (وكان يهم بالنزول من الأوتوبيس) ، ليست ذبابات من النوع
الجيد ، بيد أنني قد فكرت في أنها قد تذكر كما إذا شتتما أن تصيدا يوماً
ما ، بتلك الأويقات الحلوة التي أمضيها معاً .
ومضى الأوتوبيس ، وكان « هاريس » واقفاً أمام مكتب البريد ، ولوح
بيده ، ولمّا مضينا ، انقلب راجعاً الى الفندق .
وقال « بيل » :

- يا له من إنسان طيب!

- أحسب أنه أمضى في الواقع ، وقتاً ممتعاً .

- من ؟ هاريس ؟ أظن ذلك .

- كم تمنيت لو أنه قدم معنا الى (بامبيلونه) .

- ولكنه يرغب في الصيد .

- أجل . وبعد ، فليس في ميسورك أن تقول كيف يعاشر هؤلاء الانكليز
ويخالط بعضهم بعضاً .

- افترض خلاف ذلك .

ووصلنا الى (بامبيلونه) ، عصراً ، وتوقف الأوتوبيس أمام فندق
(مونتويا) . وكان ثم عمال في الساحة يمدون أسلاكاً كهربائية لإنارة الساحة

أثناء العيد (الفيسيستا) . واقترب منا بعض الصبية ، حيث توقّف الأوتوبيس ،
وطلب موظف الجمر ك الى جميع المسافرين فتح حقائبهم على الرصيف .
ودخلنا الفندق ، ووجدت « مونتويا » على الدرج ، وصافحنا ، وعلى شفتيه
ابتسامة مرتبكة ، وقال :

- إن أصدقائكم هنا .

- السيد « كاميبيل » ؟

- أجل ، السيد « كون » والسيد « كاميبيل » واللادي « اشلي » . وابتسم
كأن ثمة شيئاً يهمني أن أسمعه .

- متى جاءوا ؟

- البارحة ، لقد احتفظت لهم بالغرفتين اللتين كنتما فيهما .

- حسناً ، هل أعطيت السيد « كاميبيل » الغرفة المطلّة على الساحة ؟

- لقد رأينا الغرف كلّها .

- وأين أصدقاؤنا الآن ؟

- أحسب أنهم ذهبوا ليلعبوا (البيلوته) .

- وما حال الثيران ؟

- وابتسم « مونتويا » وقال :

- مساء ، في الساعة السابعة مساء ، سوف تنقل ثيران (فيلار) وغداً

ثيران (ميوراس) . أتذهبون لمشاهدتها ؟

- أوه أجل ، إنهم لم يشاهدوا ، من قبل النقل Desencajonada^(١) .

- ووضع « مونتويا » يده على كتفي .

- سوف أراك هناك .

- وابتسم من جديد ، وكان لا يأتلي يبتسم كأن مصارعة الثيران سرٌّ خاص

بيني وبينه ، سر منفر ، ولكنه سر عميق ، يعرفه كلانا .

(١) النقل في اسبانيا ويعني بها نقل الثيران . (المعرب)

كان لايني يبتسم ، كأن ثمة شيئاً معيماً يجده الغير في هذا السر ، ولكنه شيء معروف منا ، شيء لا يمكن أن يشرح أمام أشخاص لا يفهمونه .
- أياكون صديقك ولوعاً Aficionado أيضاً ؟

وكان « مونتويا » يبتسم له « بيل » .

- بلى ، لقد جاء من (نيويورك) ليرى عيد (سان فيرمين)
- أجل (كان « مونتويا » ريبياً مؤدباً) ولكنه ليس ولوعاً (Afi-cionado) ، مثلك .

ووضع يده على كتفي ، مرة أخرى ، مرتبكاً . وقلت :

- بلى إنه ولوع Aficionado حقاً .

- ولكنه ليس بولوع مثلك .

إن كلمة (Aficio) تعني بالاسبانية الولع ، والولوع (Aficionado) هو الولوع بمصارعة الثيران . إن جميع مصارعي الثيران النابهين ، ينزلون في فندق (مونتويا) ، وأعني بهم أولئك الذين يستأثرون بإعجاب الولوعين (Afi-cionados) ، أما مصارعو الثيران التجاريون ، فإنهم ينزلون في فندق (مونتويا) مرة واحدة ولكنهم قد لا يعودون اليه .

إن النابهين من مصارعي الثيران يقصدونه كل سنة ، وكان (مونتويا) يحتفظ بصورهم الفوتوغرافية في غرفه . وكانت موقعة ومهداة الى « جوانيتو مونتويا » أو الى أخته . وكانت صور مصارعي الثيران الذين آمن « مونتويا » بتفوقهم تحظى بأطر لها . أما صور مصارعي الثيران الذين لا يظفرون بولع المعجبين فقد كان « مونتويا » يحتفظ بها في درج مكتبه ، وكانت تحمل ، على الجملة ، إهداء كثير الإطراء ، ولكنه لا يعني شيئاً . وقد قذف بها كلها « مونتويا » ، الى سهلة المهملات ، إذ لم يكن يود أن يراها قريبة منه .

وكنا نتحدث أحياناً عن الثيران ومصارعي الثيران ، فقد تجرمت سنوات عديدة وأنا أنزل في فندق « مونتويا » . ولم نكن نتحدث في كل مرة طويلاً ،

فقد كنا نجتري بمتعة تبادل الرأي .

وكان ثمة رجال يقدمون الى هنا ، من مدن قصية ، فيتوقفون بضع دقائق ، قبل مغادرة (بامبيلونه) ليتحدثوا الى « مونتويا » عن الثيران .

وكان هؤلاء الرجال من زمرة الولوعين (Aficionados) وكان في ميسور أي ولوع أن يجد غرفة في الفندق حتى ولو كان ممتلئاً . وقد عرفني « مونتويا » ببعضهم . وكانوا يظهرون دوماً ، في مستهل التعارف مهذبين . وكان يطرفهم كثيراً أن أكون امريكياً ، فقد كان يفترض ، مسبقاً ، أنه ليس في وسع امريكي ما أن يكون لديه ولع (Aficion). وقد يكون في مقدوره أن يتظاهر به أو يواريه بالتحمس ولكنه لا يستطيع في الواقع ، أن يظفر به . وكانوا يرون أن لدي هذا الولع ، ولم يكن هناك - للتحقق من ذلك - كلمات سرية أو أسئلة معدة من قبل ، بل كان الأمر لا يعدو أن يكون امتحاناً شفهيّاً أو أسئلة متعلقة ، دوماً ، بشيء عن الدفاع ، وغير ظاهرة البتة . وكان يرافق هذا كله : أن يضع الشخص يده على كتف المتحدث ، بطريقة مرتبكة متماثلة ، أو أن يلقي بتحية (Buen hombre)^(١) وكان هناك ، على الجملة ، تماس جسيمي ، فكانهم كانوا بحاجة الى اللمس ليصلوا منه الى اليقين .

وكان في ميسور « مونتويا » أن يغفر أي سيئة لمصارع ثيران يحظى بالولع ، كان في استطاعته أن يغفر له النوبات العصبية والفرع ، والخطأ الذي لاتعليل له وأي زلة أو هفوة . وكان في مكنته أن يغفر ، الى ذلك ، أي شيء ، لمن يعرف لديه هذا الولع (Aficion) . ولقد غفر لي ، دون ريب ، هفوات أصدقائي ، ودون أن يفضي الى شيء صراحة ، فقد كان يعتبرها أشياء مخجلة بعض الشيء ، وحسب ، تشبه مثلاً ، بقر بطون الجياد في حفلة مصارعة الثيران .

(١) تحية أيها الرجل ، وردت بالاسبانية . (المعرب)

وكان «بيل» قد صعد الى غرفته ، حين دخلنا ، وألفيته يغتسل ويغير ثيابه الداخلية في غرفته . وقال لي :

- إيه . لقد تحدثت بالاسبانية كثيراً ، أليس كذلك ؟

- كان يحدثني عن الشيران التي ستقدم ، الليلة .

- علينا أن نجد الآخرين ، وانزل أنت بعد ذلك .

- حسناً ، إنهم ، على الأرجح ، في المقهى .

- هل اشتريت البطاقات ؟

- أجل ، لقد حصلت على بطاقات مشاهدة نقل الشيران .

- وأي شيء ، هذا ؟

وكان يشدّ وجنته أمام المرأة ، ليرى إن كان ثمة موضع من عارضيه ، لم يخلق .

وقلت :

- إنه لشيء مشير ، إنهم يدعون الشيران تخرج من أقفاصها ، واحداً في إثر واحد . وفي (الكورال) أي الحظيرة تقف بعض الأبقار لتحول دون تقاتلها ، إذ تهجم الشيران على الأبقار التي تركض كعوانس عجائز ، بغية تهدئتها .

- وهل تنطح الشيران هذه الأبقار ؟

- طبعاً ، تبادرها أحياناً فتنطحها وتودي بها .

- وهل تستطيع الأبقار أن تفعل شيئاً ما ؟

- لا ، إنها لا تملك سوى أن تتودّد إليها .

- ولماذا تجلب هذه الأبقار ؟

- لتهدئة الشيران ، ولئلا تحطم قرونها على الجدران الحجرية ، ولئلا يقتل بعضها بعضاً .

- لا بد أن هذه الأبقار لطيفة .

وانحدرنا وخرجنا من الباب ، فاجتزنا الساحة ، ميممين شطر مقهى (إيرونا) . وكان في الساحة محلّان منفردان لبيع البطاقات ، وكانت شبابيك

البطاقات التي سجّل عليها Sol y Somdra^(١) و Sombra^(٢) مغلقة ، ولم تكن تفتح إلا في اليوم السابق لعيد (الفيسيستا) .

وكانت تمتد من الجانب الآخر في ساحة حتى حيد الرصيف ، الطااولات الخيزرانية البيضاء وكراسي مقهى (إيرونا) المظللة بالقناطر .

وفتشت عن «بريت» و«مايك» فألفت الجميع هناك : «بريت» و«مايك» و«روبرت كون» . وكانت «بريت» تضع قبعة باسكية كما كان «مايك» يضع أيضاً قبعة باسكية ، بيد أن «روبرت كون» كان حاسر الرأس ، وكان واضحاً نظارته . ورأتنا «بريت» بينما كنا نقرب منهم ، ولوّحت لنا بيدها ، وغمزت بعينها حين وصلنا الى الطاولة ، وهتفت قائلة :
- صباح الخير ، أيها الرفيقان .

كانت «بريت» تبدو سعيدة ، وكان «مايك» يعرف كيف يضع في مصافحته الاحساس بالود المشبوب ، وصافحنا «روبرت كون» لأننا كنا قد عدنا . وسألت :

- أين كنتم ؟ أي جهنم قد استأثرت بكم ؟

وقال «كون» :

- أنا الذي جئت بهما .

وقالت «بريت» :

- يا للهراء ! لو لم تكن أنت معنا لكنا قدمنا الى هنا قبل ذلك .

- لولاي ، لما قدمتما الى هنا قط .

- يا للهراء ! إيه أيها الرفيقان لقد أصبحتما أسمرين ، انظروا الى

«بيل» .

وسأل «مايك» :

(١) أي المحلات المعرضة للشمس .

(٢) المحلات المظللة .

- هل أصبتما صيداً جيّداً ؟ ، كنّا نود أن نلحق بكما .

- لم يكن الصيد رديئاً . لقد كنّا نفتقدكم .

وقال « كون » :

- كنت أريد أن ألحق بكما ، ولكنني رأيت أن أقدم بهما .

- أنت تقدّم بنا ؟ يا للكذب !

وسأل « مايك » :

- إحقاً كان الصيد جيّداً ؟ هل ظفرتم بصيد وفير ؟

- لقد مرّت أيّام كنّا نصيد فيها كل يوم اثنتي عشرة سمكة تقريباً ، وقد

التقينا هناك بالانكليزي .

وقال « بيل » :

- إنه يدعى « هاريس » . هل تعرفه يا « مايك » ؟ كان مجنّداً أيضاً في

الحرب .

وقال « مايك » :

- ياله من محظوظ ! أي أيّام هنيئة مرّت علينا ! كم أودّ أن تعود تلك الأيّام

الحلوة .

- لا تكن حماراً .

وسأل « كون » :

- هل كنت جنديّاً في الحرب يا « مايك » ؟

- كيف لم أكن ؟

وقالت « بریت » :

- كان جنديّاً لامعاً حقّاً ، قص عليهم كيف جمح جوادك ، ذات مرّة ، في

(البيكاديللي) .

- لن أقصّها ، لقد رويتها أربع مرّات .

وقال « روبرت كون » :

- ولكنك لم تقصّها عليّ .

- لأحب أن أورد هذه القصة . فإنها تنتقص مني .

- ارو لهم قصة أوسمك .

- لن أرويها ، فإن فيها انتقاصاً كبيراً مني أيضاً .

- وما هذه القصة ؟

- سترويها لكم «بريت» . إنها تسرد جميع القصص التي تنال مني .

- هيا ، قصي علينا كيف كان ذلك يا «بريت» .

- هل أستطيع ذلك ؟

- سأرويها أنا .

- أي أوسمة نلت يا «مايك» ؟

- لم أنل أي وسام .

- ينبغي أن يكون لديك بعض الأوسمة . .

- أنا أفترض بأنني نلت الأوسمة المعروفة وإن لم أسع للحصول عليها ،

لقد أقيمت ذات يوم حفلة عشاء فخمة وكان على الأمير «أوف ويلز» أن

يحضرها . وكانت بطاقات الدعوة تشير الى ضرورة حمل الأوسمة ، ولم يكن

لدي ، طبعاً ، أي وسام ، ومضيت الى خياطي الذي استحوذت الحفلة على

اهتمامه ، وفكرت في أن اهتبل الفرصة ، فقلت له : «ينبغي أن تستحصل لي

على أوسمة» فقال : «وأي أوسمة ياسيدي ؟» فقلت : «أي وسام شئت ،

اجلب لي بعض الأوسمة وحسب ، وحينئذ قال : «ولكن ماهي الأوسمة

الموجودة لديك يا سيدي ؟» وقلت : «وكيف تريد مني أن أعرف» . لقد

كان يتصور أنني أنفق وقتي في قراءة الجريدة الدامية ، وعقبت : «اجلب لي

أوسمة وكفى ، واختر ما تشاء» .

وهكذا جلب لي أوسمة ، من تلك الأوسمة الصغيرة ، وأعطانيها ضمن

عليبتها فوضعتها في جيبتي وأنسيتها .

ولما قدمت الى الحفلة - وكان ذلك عشية مصرع «هنري ويلسون» - لم

يأت الأمير «أوف ويلز» ، ولم يأت الملك أيضاً . فلم يضع أحد أي وسام ،

وشغل جميع المدعوين بنزع أوسمتهم ، وكانت أوسمتي في جيبي . وسكت ليترك لنا المجال بأن نضحك .

- أهذا كل شيء ؟

- هذا كل شيء . لعلّي لم أعرف كيف أروي القصة .

وقالت «بريت» :

- حقاً : ولكن ، لا بأس .

وجعلنا نضحك جميعاً . وقال «مايك» :

- أوه ، بل تذكّرت الآن ، كان عشاء مملاً لعيناً ، ولم أطق البقاء ،

فانصرفت . وفي وقت متأخر من سهرة في ملهى ، وجدت عليبة الأوسمة في

جيبي وساءلت نفسي :

« ما هذا ؟ أوسمة ؟ وأوسمة عسكرية ملطّخة بالدم ؟ » وعندئذ فتقتها

من شريطها - إنكم تعلمون أنها مثبتة بشريط - ثم وزعتها ، فأعطيت لكل فتاة

- في الملهى - وساماً ، كذكرى منى . وقد وجدت أنني جندي مغفل . إنها

لجراحة أن يوزّع المرء أوسمته في ملهى ، أليس كذلك ؟ »

وقالت «بريت» :

- قص علينا الخاتمة .

وقال «مايك» مستفهماً :

أفلا تجدون ذلك مضحكاً ؟ (وضحكننا جميعاً) إنه لمضحك . أوكد أن

ذلك مضحك جداً ، والخلاصة ، أن خيَاطي كتب إليّ طالباً إعادة الأوسمة ، ثمّ

أرسل إليّ أحد عمّاله ، وظل يكتب إليّ ، شهوراً عدّه . والظاهر أن أحدهم كان

قد تركها لديه لينظّفها له ، وكان شخصية عسكرية مخيفة ، وكان معلق القلب

بها كأنّها إنسان عينه (وتوقف «مايك» هنيهة ثمّ تابع) يالحظ الخياط

العاثر ! » .

وقال «بيل» :

- إنك لا تعني ذلك حقاً ، أحسب أن حظّه كان سعيداً .

- إنه خياط ماهر جداً . قد لاتؤمن بذلك إن نظرت الي الآن . وقد تعودت أن أنقده مئة جنيه ، في العام ، ليدعني وشأني ، وهكذا أمسك عن إرسال قوائم الحساب اليّ وكان إفلاسي مصيبة كبيرة له ، وقد حدث هذا الإفلاس عقيب قصة الأوسمة ، وأصبحت رسائله إليّ ، بعد ذلك ، ذات لهجة لاذعة .

وسأل « بيل » :

- وكيف تمّ إفلاسك ؟

وقال « مايك » :

- تمّ على شكلين : بصورة متدرّجة أول الأمر ثم بصورة مفاجئة ، بعد ذلك .

- ماهو السبب الذي أدّى الي إفلاسك ؟

وقال « مايك » :

- أصدقائي هم السبب ، كان لدي زمرة كبيرة من الأصدقاء ، من الأصدقاء المزيّفين ، وكان لدي دائنون ، وعلى الأرجح كان لدي دائنون أكثر من أي إنسان في إنكلترا .

وقال « بريث » :

- ارو لهم قصة المحكمة .

وقال « مايك » :

- لا أتذكرها ، كنت ثملاً بعض الشيء .

ورفعت صوتها قائلة :

- ثملاً ، تعني أنك كنت متنعاً من السكر .

وقال « مايك » :

- إنه لشيء عجاب ، لقد التقيت بشريكي ذات يوم ودعاني الى المشرب .

وقالت « بريث » :

- اروي لنا قصة محاميك العالم .

وقال «مايك» :

- لن أرويها ، إنَّ محاميَّ كان يتعته السكر أيضاً ، ثمَّ إنها قصة كئيبة ، ترى هل نقلت الثيران ؟

- لنذهب...

وناديننا النادل وأديننا ثمن المشروب ، ثمَّ غدونا الى المدينة . كنت أسير مع «بريت» ولكنَّ «روبرت كون» لحق بنا ومشى الى جانب «بريت» . ومررنا نحن الثلاثة ، أمام (الأيونتامينتو) وقد نصبت في شرفته الأعلام ثمَّ اجتزنا السوق ، ثمَّ هبطنا في شارع منحدر ينتهي الى جسر ممتد على نهر (الأرغا) .

وكان جمع من الناس كبير يسعى لمشاهدة الثيران ، وكان ثمة عربات تنحدر من الأكمة وتجتاز الجسر ، وكان الحوزية والجياد والسياط أكثر بروزاً وظهوراً في الشارع من السابلة . وبعد أن جزنا الجسر . انعطفنا في الدرب المفضية الى الحظائر (الكورال) ومررنا أمام حانة ، وبدت على النافذة لوحة خطَّ عليها : خمر جيّدة ، ثمن الليتر : ثلاثون سنتيماً .

وقالت «بريت» :

- ههنا ينبغي المجيء ، حين يتضاءل الوفر من المال .

ونظرت إلينا الامرأة الواقفة على عتبة الحانة ، فيما كنّا نمر ، ونادت أشخاصاً من الداخل . فأقبلت فتيات ثلاث ، جعلن يسارقننا النظر من النافذة ، ويرامقن «بريت» .

وكان يقف أمام باب (الكورال) رجلان يتناولان بطاقات الداخلين ، وتخطّينا الباب ، فألفينا في الداخل أشجاراً وداراً وطينة حجرية . وفي أقصى ركن كان ينتصب جدار الحظائر (الكورال) الحجري . وكانت تتوزع بين أحجار الجدران ثغرات شبيهة بالكوى . كان هناك سلّم يتناهى الى أعلى الجدار ، وجعل أشخاص يتسلّقون السلّم ويتوزعون فوق الجدران الفاصلة بين

الحظيرتين ، وفيما كنّا نسعى الى السلم ، ونحن نمشي فوق العشب تحت أغصان الأشجار ، مررنا أمام الأقفاص الكبيرة المصبوغة باللون الرمادي التي تضم الثيران . وكان كل قفص يضم ثوراً . لقد استقمت هذه الثيران من مربى الثيران في (قشتاله) بالقطار . وقد نقلت من حجرات القطار في المحطة ، ثم جلبت الى هنا لتفرغ من أقفاصها داخل الحظائر (الكورال) . وكان كل قفص يحمل صنف الثور واسم مربيه .

وصعدنا فوجدنا مكاناً فوق الجدار المطل على (الكورال) . وكانت الجدران مبيضة بالكلس ، وكان على الأرض قش ومزاود خشبية ومعالف موضوعة قبالة الجدار ، وقلت :
- صعدوا أبصاركم الى هناك .

كانت هضبة المدينة تشرئب فيما وراء النهر . وكان ثم أشخاص يقفون فوق الجدران القديمة والحصون ، وكانت خطوط الجدران المحصنة الثلاثة تشكّل خطوطاً ثلاثة سوداء من البشر . وفوق الجدران كانت تتبدى رؤوس متلعة من نوافذ البيوت . وتراءى في أقصى نهاية الهضبة صبية فوق الأشجار . وقالت «بريت» :

- لقد تصوّروا ، ولابد ، أن ثمة شيئاً سيحصل .

- إنهم يريدون رؤية الثيران .

وكان «مايك» و«بيل» قد صعدا الى الجدار الآخر من الجانب الثاني للكورال ، ولوحا لنا بالأيدي... وكان وراءنا بعض المتخلفين يدفعونا كلما تزاخم بعض القادمين خلفهم . وتساءل «روبرت كون» :
- لم لا يبدؤون ؟

وكان هناك بغل ربط بأحد الأقفاص فأخذ يجره حتى باب الجدار (الكورال) . ودفع الرجال القفص بقضبان حديدية ووضعوه قبالة الباب . وفوق الجدار وقف رجال يتهيّأون لسحب باب (الكورال) ثم سحب باب القفص... وانفتح في الطرف الثاني من (الكورال) باب فدخلت بقرتان ، تخبان وتهزان

رأسيهما وتورجحان خصورهما الهضيمة . وظلّتا معاً واقفتين في ركن قصي من (الكورال) . ورأساهما متجهان نحو الباب الذي سيدخل منه الثور . وقالت «بريت» :

- لا يبدو عليهما أنهما سعيدتان .

ومال الرجال القائمون فوق الجدار الى خلف ، ساحبين باب (الكورال) ثم باب القفص . وانحنيت من فوق الجدار ، محاولاً أن أنظر الى داخل القفص فالفيتة مظلماً . وقرع أحدهم القفص بقضيب حديدي ، فكان شيئاً ما قد انفجر في داخله . كان الثور يضرب الخشب بقرنيه يمنة ويسرة ، مثيراً جلبة شديدة . ولمحت ، آنذاك خطماً^(١) أسود ، وظلّ القرنين . وخرج الثور ضارباً بحوافره خشب القفص الفارغ . ثم اندفع صوب (الكورال) وتوقف ، وقائمته الأماميتان مغمورتان بالقش ، ورأسه متلع وعضلات رقبته منتفخة في قسوة . وكانت عضلات جسمه كلها تتخلّع فيما كان ينظر الى الناس الواقفين فوق الجدران الحجرية . وفزعت البقرتان الى الجدار ، متراجعتين ، مطأطئتي الرأس ، وعيناهما مصوّبتان الى الثور ، ورأهما الثور فكرّ عليهما مهاجماً ، وأخذ رجل يصيح خلف أحد الأقفاص ، ويضرب بقبّعته الحاجز الخشبي ، فما كاد الثور يداني البقرتين حتّى صدف عنهما وتلفّت ، ثم تجمّع وهجم على المكان الذي لمح فيه الرجل ، محاولاً أن يبلغه وهو خلف الحاجز ، بعشرات الضربات السريعة الباحثة من قرنه الأيمن .

وقالت «بريت» :

- يا إلهي ما أجمله!

وكنا ننظر اليه من عل . وقلت :

- انظري اليه كيف يجيد استعمال قرنيه ، إنه يعرف يمناه ويسراه كأنه

ملاككم .

- لا! أحقاً؟

- لاحظي .

- إنه يركض في سرعة بالغة .

- مهلاً ، سوف يأتي ثور آخر ، بعد دقيقة .

وجرّ قفص آخر حتّى قارب باب المدخل . ومن ركن قصي لوح رجل بيده
- وكان بمأمن خلف الحاجز الخشبي - للثور ، وبينما كان الثور ينظر اليه
سحب الباب ، ودخل ثور ثانٍ الحظيرة (الكورال) ، وهجم دون ريث ، على
البقرتين . وخرج رجلان من خلف الحاجز الخشبي ، وجعلا يصرخان ليحملاه
على الإلتفات ، بيد أنه لم يغيّر اتجاهه . وتابع الرجلان الصياح « هاه! هاه!
تورو» ملوّحين له بيديهما . وانتحت البقرتان الى جانب ، لتتفاديا ضربة
القرنين ، بيد أنّ الثور إدرك إحدى البقرتين فنطحها . وقلت لـ«بريت» :
- لا تنظري .

وكانت تنظر ، مأخوذة ، وقلت :

- يالللروعة! لعله أن يؤثّر فيك .

وقالت :

- لقد رأيته وهو يراوح بين قرنيه ، الأيمن فالأيسر .

- إنه لمثير .

وانطرحت البقرة على الأرض وعنقها ممدود ورأسها متشنج ، وظلت
حيث وقعت . وتخلّى عنها الثور فجأة ، ليكرّ على البقرة الثانية التي كانت قد
انتبذت ركناً بعيداً ، وهي تهزّ رأسها وتشاهد ماجرى أمامها . فلمّا رآته
مقبلاً ، ركضت مرتبكة . ونطحها في خصرها نطحة خفيفة ثمّ استدار ، متوتّر
العضل ، وجعل ينظر الى الناس فوق الجدران . واقتربت منه البقرة وتودّدت
اليه بخطمها ، فحرك الثور قرنيه متظاهراً بالنطاح ، ثمّ تودّدت اليها بخطمه ،
وخبّ الاثنان جنباً الى جنب ، نحو الثور الأول .

ولمّا خرج الثور الثالث ، كان الثلاثة : الثوران والبقرة ، قد وقف الواحد

منها الى جانب الآخر ، ورؤوسها متدانية ، وقرونها مسددة الى القادم الجديد . وبعد بضع دقائق ، سمعت البقرة الى الثور الجديد فهذأته وساقته لتضمه الى القطيع . ولما أخرج الشوران الباقيان ، فزعا الى القطيع فضمهما اليه .

أما البقرة الجريح ، فقد نهضت على قوائمها . ووقفت الى جانب الجدار الحجري ، دون أن يدنو منها أي ثور ، فلم تسع الى أن تنضم الى القطيع . ونزلنا من الجدار ، مع الناس ، وألقينا من كوى جدار (الكورال) نظرة أخيرة على الثيران . وكانت قد ثابت جميعها الى الهدوء ، وبدت مدلية رؤوسها .

وامتطينا سيارة لنعود الى المقهى . ووصل «مايك» و«بيل» بعد نصف ساعة ، فقد توقفوا مرّات عديدة في الطريق ، ليحسوا بعض الكؤوس . وكنا جالسين في المقهى ، حين أقبلنا . وقالت «بريت» :
- إنه في الحقيقة لشيء خارق .

وسأل «روبرت كون» :
- هل يقاتل الثوران قتالاً جيّداً كالثور الأول ؟ يبدو لي أنهما فاءا الى الهدوء في سرعة .
وقلت :

- إنها كلّها ، يعرف بعضها بعضاً ، وهي ليست بخطر إلا حين تكون منفردة أو حين تكون اثنين أو ثلاثة معاً .
وقال «بيل» :

- ماذا تعني بقولك خطرة ؟ تتراءى لي كلّها خطرة .
- إنها لا ترغب في القتل إلا حين تكون منفردة ، فإذا دخلت هناك ، فإن واحداً منها ينفصل ، على الأرجح ، عن القطيع ويضحى خطراً .
وقال «بيل» :

- إن هذا لمعقد جداً ، فلا تفصلني عن القطيع يا «مايك» .

وقال «مايك» :

- لعمرى إنها ثيران رائعة ، أليس كذلك . أرايت الى قرونها ؟

وقالت «بريت» :

- طبعاً ، لم يكن لدي ، من قبل ، أي فكرة عما يمكن أن تكون قرون

الثيران .

وسأل «مايك» :

- هل رأيت الثور الذي نطح البقرة ؟ إنه لمعجيب خارق .

وقال «روبرت كون» :

- إنها ليست بحياة ، أن يكون الإنسان بقرة .

وقال «مايك» :

- هل ترى ذلك ؟ يخيل اليّ أنك تؤثر أن تكون بقرة .

- ماذا تعني بذلك يا «مايك» :

- إنها تسيم حياة هادئة فلا تقول شيئاً ، وترضى بأن تنساق هكذا ،

عمرها كله .

وشعرنا بالحرع ، واستغرق «بيبل» في الضحك . وبدأ «روبرت كون»

مغضباً ، وتابع «مايك» كلامه :

- يخيل اليّ أنك تؤثر ذلك . إنك لاتفوه بكلمة ، هلاً قلت شيئاً يا

«روبرت» ، لا تبقي هكذا .

- لقد ذكرت شيئاً بصدد البقرات ، أفلا تذكر ذلك يا «مايك» ؟ أوه .

هلاً تكلمت أيضاً ، اذكر شيئاً طريفاً ، أليس في مقدورك أن ترى أننا قدما

الى هنا لنتمتع بوقت طيب ؟

وقالت «بريت» :

- كفى يا «ميشيل» ، إنك ثمل .

- لست بثل ، إنني صاح تماماً ، ترى أيعمد «روبرت» الى اللحاق

بـ«بريت» طوال الوقت ، كأنه بقرة .

- صه يا « ميشيل »! حاول أن تلتزم بعض الأدب .

- ليأخذ الشيطان الأدب . وبعد ، فمن الذي يملك الأدب . باستثناء الثيران ؟ إن الثيران رائعة أليس كذلك ؟ ألا تحبها يا « بيل » ؟ لم لاتقول شيئاً يا « روبرت » ؟ لا تجلس هكذا ، مصطنعاً سحنة من يشيع جنازة كئيبة ، وماذا بعد ؟ وهب أن « بریت » كانت قد ضاجعتك ؟ لقد ضاجعت كثيراً من الناس ، هم خير منك .

وقال « كون » وهو ينهض :

- اخرس ، اخرس يا « مايك » .

- إيه ، لا جدوى من قيامك ، كأنك تبغي قتالي ، الأمر عندي سواء ، قل لي يا « روبرت » لماذا تلاحق « بریت » أتى مضت كأنك بقرة مسكينة ، ألم تشعر بأن أحداً لا يرغب في حضورك ؟ إنني أشعر أنا ، حين أصبح غير مرغوب فيه ، فلم لا تشعر أنت ؟ لقد جئت (سان سيباستيان) ولم يكن ثمة أحد يرغب في مقدمك . وأخذت تلاحق « بریت » أتى سعت كأنك بقرة مسكينة ، أتحسب أن هذا حسن ؟

- اخرس إنك سكران .

- لعلّي أن أكون سكران ، ولكن لم لا تكون أنت سكران ؟ لم لم تصبح سكران من قبل يا « روبرت » ؟ أنت تعلم جيداً بأنك لم تستطع ما جرى لك في (سان سيباستيان) . لأن أحداً من أصدقائنا لم يشأ أن يدعوك الى حفل ، ولقد طلبت أنا اليهم دعوتك فأبوا ، ليس بوسعك أن تلومهم على ذلك الآن هه ؟ هلا أجبت ، هل تستطيع أن تلومهم ؟

- اذهب الى الجحيم يا « مايك » .

- ليس في مكنتي أن ألومهم ، وأنت : هل تقدر على لومهم ؟ لماذا تلاحق « بریت » الى أي مكان ؟ أليس لديك شيء من الخلق والأدب ؟ أعتقد بأن هذا يروقني ؟

وقالت « بریت » :

- إنه ليلائمك حقاً ، أن تتحدّث عن الخلق والأدب ، إنك لعلی خلق كريم .

وقال « بيل » :

- هيا بنا يا « روبرت » .

- لماذا تلاحقها الى كل مكان ؟

ونهض « بيل » وامسك بـ « كون » . وقال « مايك » :

- لا تذهبا ، سوف يطلب لنا « روبرت كون » مشروباً .

ومضى « بيل » مع « كون » . وكان وجه « كون » شاحباً ، وكان « مايك »

مافتئ يتكلّم ، ومكثت فترة أصغي إليه ، وبدت « بریت » مشمّنة ، وقالت :

- ميشيل . كنت أفضل ألا تأخذ بمدرجة الحمار الغبي .

وأمسكت ، ثمّ التفتت نحوي وأردفت تقول :

- أتدري ، أنا لا أزعّم أنه مخطئ .

وزايل الاضطراب صوت « مايك » وعاد جوّ الألفة صفاء وقال :

- لم أكن سكران بالقدر الذي كنت أبذو فيه .

وقالت « بریت » :

- أعلم بأنك لم تكنه .

وقلت :

- ليس بيننا من هو صاح دوماً من الخمر ، زاهد فيها .

- إن كل ما قلته كنت أعنيه .

وقالت « بریت » وهي تضحك :

- بلى ، ولكنك رويته بطريقة سيئة جداً .

- إنه حمار ، على أي حال ، فقد جاء (سان سيباستيان) ، وهو يعلم جيّداً

بأنه لم يكن ثمة أحد يطيقه . وجعل يدور حول « بریت » ليظفر بمتعة

رؤيتها ، وقد أضناني ذلك ، وضقت به ذرعاً ، على نحو لعين .

وقالت « بریت » :

- في الحقيقة ، كان تصرفه سيئاً جداً .

- مهما يكن من أمر ، لقد عرفت قبله رجالاً - إنها تروي لي دوماً كل

شيء - وقد أعطتني رسائل «كون» إليها ، لأقرأها ، فرفضت الاطلاع عليها .

- إنه لشيء كريم يصدر عنك .

- لا ، اسمع يا «جاك» . لقد صاحبت «بريت» أكثر من رجل ، ولكنهم

لم يكونوا ، على أي حال «يهوداً» ولم يكونوا يتشبثون على هذا النحو .

وقالت «بريت» :

- إنهم رجال ممتازون ، وبعد ، فأني جدوى من التحدث بهذا ؟ إنما ، أنا

و «ميشيل» ، متفاهمان أحسن التفاهم .

- لقد أعطتني رسائل «كون» إليها ، فلم أشأ أن أقرأها .

- لعلك لاتحب أن تقرأ أي رسالة ، ياعزيزي ، حتى ولا رسائلي .

وقال «مايك» :

- إنني لأقوى على قراءة الرسائل ، إن هذا لمضحك ، أليس كذلك ؟

- إنك لاتقوى على قراءة أي شيء .

- لا ، إنك لمخطئة ، إنني أقرأ قليلاً ، وأقرأ حين أكون في بيتي .

وقالت «بريت» :

- وعمّا قريب سوف تكتب . إيه «ميشيل» ، ينبغي أن تتحمّله مادام هو

هنا ، عليك ببعض الجلد والصبر . لا تكدر علينا صفو العيد (الفيسيستا) .

- إذن عليه أن يصطنع مسلكاً حسناً .

- سوف يفعل ذلك ، وسوف أتحدّث إليه بذلك .

- تحدّث إليه يا «جاك» أنت أيضاً ، أوصه بأن ينهج المسلك الحسن ،

أو فليذهب .

وقلت :

- أجل ، ينبغي أن أكلمه بذلك .

- اسمعي يا «بريت» . اروي له الاسم الذي دعاك ، «روبرت» ،

أتدريين ؟... إنه غاية الكمال .

- أوه ، لا ، لا أستطيع .

- هيا ، اذكري له ذلك ، نحن أصدقاء فيما بيننا ، ألسنا بأصدقاء يا

« جاك » ؟

- ليس في وسعي أن أذكره ، إنه جد مضحك .

- سأقوله إذن .

- لا ، لا يا « ميشيل » لا تكن حماراً .

وقال « مايك » :

- لقد دعاها (سيرسه) ، زاعماً أنها تقلب الرجال كلهم الى خنازير ، وهو

اسم موافق جداً ، على نحوٍ لعين . إنني أتمنى أن أصبح أديباً مثل هؤلاء الأديباء ،

وقالت « بریت » :

- إن في ميسور « مايك » أن يكتب جيداً ، ألا تعلم أنه يدبج رسائل

رائعة ؟

وقلت :

- أعلم ذلك ، فقد كتب إليّ من (سان سياستيان) .

وقالت « بریت » :

- ليس هذا بشيء ذي شأن ، إن في مكنته أن يكتب رسائل غاية في

الظرف .

- لقد حملتني على كتابة تلك الرسالة ، مفترضة بأنها كانت مريضة .

- كنت مريضة حقاً .

وقلت :

- هيا بنا ، لقد أظف وقت طعام العشاء .

وقال « مايك » :

- أي مسلك ، يتعين علي أن أنهجه مع « كون » ؟

- افعل . كما لو أنّ شيئاً ما لم يحدث بينكما .

وقال «مايك» :

- أطمح الى أكثر من ذلك ، فلا أشعر بالحرَج البتة .

- إذا أشار الى شيء ما ، فأجب بأنك كنت ثملاً .

- حسناً ، وأطرف مافي الأمر ، أنني أعتقد كل الإعتقاد بأنني كنت ثملاً

حقاً .

وقالت «بريت» :

- هيا بنا ، هل سدّد ثمن هذا السم من الشراب ؟ ينبغي أن أستحم قبل

أن أتعتشى . وجزنا الساحة ، وكان الظلام مخيماً ، والأضواء تشعّ حول

الساحة ، في المقاهي وتحت القناطر . وسرنا في فيء الأشجار فوق الحصباء

قاصدين الفندق . وصعدا الى حجرتهما ، وتوقّفت لأتحدّث الى «مونتويا»

فسألني :

- وبعد ؟ فهل أعجبتك الثيران ؟

- كل الإعجاب ، إنها ثيران رائعة .

- لا بأس بها (وهزّ «مونتويا» رأسه) ولكنها ليست جيّدة جداً .

- ما الذي لم يعجبك فيها ؟

- لا أدري سوى أنها خلّفت لديّ شعوراً بأنها ليست جيّدة جداً .

- أعلم ماذا تعني .

- إنها ليست برديئة .

- أجل ليست برديئة .

- وهل أعجبت رفاقك ؟

- كثيراً .

وقال «مونتويا» :

- حسناً .

وصعدت الى علّ ، وكان «بيل» في غرفته ينظر من الشرفة الى

الساحة . واقتربت منه وقلت :

- أين « كون » ؟

- في غرفته فوق .

- كيف حاله ؟

- إنه في ضيق جهنمي طبعاً ، لقد كان مايك مخيفاً . إنه رهيب حين

يكون سكران .

- لم يكن سكران بالقدر الذي تراه فيه .

- كان الجحيم بعينه ، أنا أعلم مقدار ما حسوناه قبل أن نأتي الى

المقهى .

- لقد صبحا بعد ذلك .

- حسناً ، لقد كان رهيباً . الله يعلم أنني لا أحب « كون » ، وأرى أنه من

الغباوة أن يذهب الى (سان سيباستيان) ، ولكن ليس لإنسان أن يتفوّه بمثل

ماتفوّه به « مايك » .

- والثيران ؟ هل أعجبتك ؟

- رائعة ، ورائعة الطريقة التي نقلت بها الثيران .

- إن ثيران (ميورا) قادمة غداً .

- متى سيبدأ العيد ؟

- بعد غد .

- ينبغي أن نمنع « مايك » من أن يستبد به السكر ، إن هذا النمط من

الحوادث لمموج كره .

- علينا أن نغسل أيدينا استعداداً للعشاء .

- بلى ، سوف يكون عشاءً ممتعاً .

- ولم لا ؟

- عليّ أن أقول إن العشاء كان في الواقع ممتعاً ، فقد ارتدت « بريت »

ثوباً للسهرة ، أسود ، بلا كمّين وبدت وضيئة الحسن . وتظاهر « مايك »

بسمت طبيعي كأن شيئاً ما لم يحدث قط . وصعدت بحثاً عن « كون » وعدت معه والفيتة يصطنع التحفظ والمجاملة . وكان وجهه لا يزال شاحباً منكفئاً ، اللون لكن أسارير وجهه على الجملة تطلّقت . ولم يكن يني من مخالسة النظر الى « بریت » وكان رؤيتها كانت تشيع في عطفه الهناءة وكان يستعذب على الأرجح ، أن يجدها فاتنة ، وأن يفكر في أنه قد أمضى معها وقتاً شهياً ، وأن الجميع على علم بذلك . ولم يكن في مكنة أحد حرمانه من هذه المتعة . وكان « بيل » ظريفاً ، وكذلك كان « مايك » . إنهما يبدوان ظريفين حين يجتمعان .

وقد أذكرني هذا العشاء بعض الأماسي التي تناولت فيها طعام العشاء أثناء الحرب : كثير من الخمر ، توتر عصبي مبهم ، وشعور بأن ثمة أشياء قادمة ، ليس في ميسورك أن تتجنبها . وكانت سيماء الجميع ظاهرة اللطف والظرف .

الفصل الرابع عشر

لا أدري في أي ساعة فزعت الى السرير . أذكر أنني نضوت ثيابي وارتديت مبدلي ودلفت الى الشرفة . وأذكر أنني كنت ثملاً ، وأنني أنرت ، حين دخلت الغرفة ، المصباح القريب من رأس السرير ، وجعلت أقرأ كتاباً لـ(تورغينيف) : وقد أعدت على الأرجح قراءة الصفحتين نفسيهما مرات عديدة ، وكان الكتاب قصة من قصص (مذكرات صياد) ، سبق أن قرأته من قبل ، لكنه بدا لي جديداً ، وأضحى وصف الريف فيه مشرقاً ، وزايلني الاحساس بالضغط على رأسي . كنت ثملاً جداً ، ولم أكن أود أن أغمض عيني ، لأن الغرفة كانت تدور وأنا مسبل الجفن ، فإذا تابعت القراءة ، فإن هذا الاحساس قد يزول .

وسمعت «بريت» و«روبرت كون» يصعدان الدرج ، وتمنى «كون» لها مساءً طيباً ، قبالة الباب ، ثم عاد لغرفته . وسمعت «بريت» تدخل الغرفة المجاورة : وكان «مايك» قد سبق ومضى الى فراشه ، فقد كان صعد معي قبل ساعة . واستيقظ حين دخلت «بريت» وجعلنا يتحدثان . وسمعتهما يضحكان . وأطفأت النور محاولاً أن أغفو ، فلم أعد أشعر بحاجة الى مزيد من القراءة ، أو أنه في مكنتي أن أغمض عيني ، دون أن يلهم بي شعور بالدوار . ولكن النوم لم يسلس لعيني . ولم يكن ثمة سبب يجعلني أرى الأشياء في الظلام مختلفة عن رؤيتي لها في النور... أوه . يا له من جحيم!

وقد خامرني هذا الشعور ذات مرة ، وظللت طوال أشهر ستة ، لأعمد الى إطفاء النور حين الرقاد . إنها لفكرة براقية أخرى! ليأخذ الجحيم النساء كلهن ، ليأخذك الجحيم أنت يا لادي «اشلي» .

إن في ميسور المرأة أن توثق عرى الصداقة الطيبة ، الطيبة على نحو هائل . عليك ، في البدء أن تشغف بالمرأة حقاً ، ليقوم لك معها أساس من الصداقة . وقد اتخذت من «بريت» صديقة لي ، ولم أكن أفكر في ذلك من وجهة نظرها هي . وقد حصلت على شيء مقابل لاشيء ، ولم يؤد ذلك إلا الى تأخير ابراز قائمة الحساب ، بيد أن قائمة الحساب تأتي دوماً في حينها ، إنها أحد الأشياء السائغة التي يتأتى لك أن تعتمد عليها .

وقد اعتقدت بأنني سددت ثمن كل شيء ، لا كالمرأة التي تدفع وتدفع ثم تدفع ، دون أن يكون هناك فكرة في ثواب أو جزاء ، بل محض تبادل ، فإنك تتخلى عن شيء بدلاً منه . وإنك تعمل من أجل شيء ما ، فتدفع دوماً ، وعلى أي حال ، ثمن كل شيء جيد . وقد دفعت ، بما فيه الكفاية ، ثمن أشياء جمّة أحببتها . فتمتعت بوقت هني سائغ . بلى ، إنك تدفع ثمن كل هذه الأشياء ، سواء أكان الثمن ، سماعك التحدث بها أم تجربتك لها أم تعرضك لحظوظ الفشل فيها ، أو بذلك المال من أجلها .

إن التمتع بالحياة هو أن تعرف قيمة مالك وتعرف متى تحصل عليه ، وإنه لفي مقدورك أن تعرف قيمة مالك ، فالعالم مكان صالح لبذل المال . إن هذه الفلسفة تتراءى لي حلوة! وجاذبني خاطر بأنها سوف تتراءى لي بعد خمس سنوات فلسفة حمقاء ككل الفلسفات الحلوة التي أخذت بها ، ومع ذلك فلعلها أن تكون غير صحيحة ، ولعلك تعلم على مر الزمان شيئاً ما . إنني لم أجهد في أن استجلي كل ذلك ، فإن كل ماكنت أريده هو أن أعرف كيف أعيش . فلعلك إن عرفت كيف تعيش ، استطعت أن تستجلي حقيقة ذلك كله .

كنت أؤثر ألا يعمد «مايك» الى معاملة «كون» تلك المعاملة الفظة . إن أثر

الخمرفي «مايك» سيء رديء . ولكن أثره في «بريت» وفي «بيل» حسن .
أما «كون» فلم يشمل عمره كله . إن «مايك» يبدو مقيتاً بعد أن يجاوز
حداً ما من الشرب . وقد كنت أحب أن أرى اليه ينال من «كون» ويؤذيه بيد
أنني آثرت ، مع ذلك ، أن يكف عنه . لأنني كنت أستشعر إثر ذلك ، تقززاً
من نفسي . هكذا أضحت الأخلاق : إنها الأشياء تحملك على التقزز من
نفسك . لا ، لا ، ينبغي أن تكون هذه هي المنافية للأخلاق . إنها وجهه نظر
وسيعة الجوانب ، كم من الأوهام يمكن أن تخامرني في الليل! يا للأحمق!
What rot حين تتاح لك صحبة إنكليزي ما ، فإنك تألف استعمال التعبيرات
الانكليزية ، وأنت تفكر . إن اللغة الانكليزية المستعملة في المخاطبة
(مفردات الطبقة العالية بخاصة) هي أقفر بالفاظها من لغة (الأسكيمو) . طبعاً
أنا لا أعرف كلمة واحدة من لغة (الأسكيمو) فلعل لغة الأسكيمو جميلة . خذ
مثلاً (شيروكي) ، أنا لأعرف شيئاً عن الشيروكي . إن الانكليز يتكلمون
جمالاً منعمة ملخصة ، فجملة واحدة تعني كل شيء . ومع ذلك ، فإنني أكلف
بطريقتهم في الكلام . خذ مثلاً «هاريس» ، على أن «هاريس» ليس من
الطبقة العالية...

وأضأت النور من جديد وأخذت أقرأ . فقرأت «تورغنيف» . وكنت أعلم
الآن أنني - وأنا أقرأ في هذا الحال من التوتر العصبي الناجم عن الاسراف في
شرب البراندي - سوف أتذكر ماقرأت يوماً ما ، وكأنه قد حدث لي حقيقة .
بل سيعاد في ذلك الشعور دوماً . هذا أحد الأشياء الجيدة التي تدفع ثمنها ثم
تحتفظ بها .

وبعد مضي فترة من الزمن ، أخذت الى النوم عند منبلج الفجر . وكان
اليومان التاليان في (بابيلونه) هادئين ، فلم يحدث أي خلاف . كانت المدينة
تستعد للعيد (الفيسيستا) ، وكان العمال ينصبون البوابات ليغلقوا الشوارع
الجانبية ، حين تجتازها الشيران بعد خروجها من الحظائر (الكورال) راكضة الى
ميدان المصارعة ، صباح يوم الحفلة .

وكان العمال يحفرون ثقباً في ألواح من خشب السنديان ، يثبتونها وكل لوح يحمل رقماً يدل على الأمكنة .

وخارج المدينة ، كان بعض عمال الميدان يروّضون ، على الهضبة ، جياد فرسان (البيكادور) لتخب بقوائمها المتوترة فوق الأرض الصلبة الحامية ، خلف ميدان المصارعة .

كانت بوابة ميدان مصارعة الثيران مفتوحة ، وفي داخل المدرج (الامفيتياتر) تمّ تنظيف كل شيء . وكانت الساحة قد دخلت ورشت بالماء ، وكان النجارون يغيّرون القطع الخشبية الضعيفة أو المكسورة من مصطبة صفوف (الباريرا) .

وكان في ميسورك إن وقفت على عذار الميدان ذي الرمل الدقيق المدحول أن ترى الى الأدرج الخالية . والى العجائز اللائي كنّ يكنّسن المقصورات .

وفي الخارج كان السور الممتد من آخر شارع في المدينة حتّى مدخل ميدان مصارعة الثيران قد ثبت في مكانه ، مشكلاً رواقاً طويلاً لتسعى فيه جمهرة الناس مسرعة وخلفها الثيران ، في صباح اليوم الأول من حفلة مصارعة الثيران .

وفي السهل ، بعيداً حيث ينبغي أن تقام سوق الجياد والحيوانات ، ضرب أفراد من الغجر خيامهم في فيء الشجر .

وكان بائعو الخمر و(الاغواردياتتي) ينصبون أكواخهم الخشبية . وكان أحد هذه الأكواخ ، ينوّه بخمر (الانيس ديل تورد) على قماش إعلان منصوب فوق الألواح الخشبية ، تحت أشعة الشمس المتلّطية . أمّا في الساحة الكبرى التي تشكل مركز المدينة فلم يحدث أي تغيير .

وجلسنا على الكراسي البيضاء الخيزرانية فوق سطحية المقهى ، وأخذنا نرقب سيّارات الأوتوبيس تمتلئ ثمّ تدرج محمّلة بالفلاحين الجالسين على خروجهم الملأى بمختلف الأشياء التي اشتروها من المدينة . وكانت

الأوتوبوسات الكبيرة الرمادية ، تهب ، مع طيور الحمام والرجل الذي كان يرش بخرطوم لديه حصاء الساحة والشوارع - كانت تهب الساحة بعض الحياة .

وفي المساء أقيمت حفلة الـ (Paseo)^(١) وخلال ساعة كاملة ، عقب طعام العشاء ، جعل الناس جميعاً : الفتيات الحسان وضباط الحامية ، والشخصيات المرموقة في المدينة ، يخطرون في الشارع على أحد جوانب الساحة ، فيما كانت طاولات المقاهي تغصّ بزبائن المعتادين إثر العشاء .

وكنت أجلس عادة ، في كل صباح ، في المقهى أطلع صحف (مدير) ، ثم أقوم بجولة في المدينة أو في الضاحية . وكان « بيل » يرافقني حيناً ، أو يبقى في غرفته ليكتب حيناً آخر . وكان « روبرت كون » يمضي الصباح في تعلّم اللغة الأسبانية أو يغدو الى صالون الحلاقة . أمّا « بريت » و « مايك » فلم يكونا يستيقظان الا قبل الظهر ، وكنا نذهب جميعاً الى المقهى لنشرب أقداً من الفيرموت .

كنا نسيم حياة هادئة ، ولم يكن أحد منا يسرف في الشرب ، وقد ذهبت مرّتين الى الكنيسة ، كانت إحداها مع « بريت » ، وقد أفضت اليّ بأنها تود أن تسمعني وأنا أعترف . ولكنني قلت لها أنّ هذا ليس بمستحيل وحسب ، ولكنه ليس بهام كما يخيّل اليها ، أضف الى ذلك أن الاعتراف يتمّ باللغة الأسبانية التي لاتفهمها . وقد وجدنا « كون » بينا كنا نخرج من الكنيسة . ورغم أنه كان ، على الأرجح ، قد تعقّبنا ، فقد ظلّ لطيفاً محبباً . ومضيّنا نحن الثلاثة الى مخيم الغجر حيث كشف لـ « بريت » عن طالعتها .

كان الصباح ممتعاً ، وكانت غمامات بيض توشّي قمم الجبال ، وقد انهمر المطر قليلاً في الليل . وكان الجو فوق الهضبة ندياً رطباً . وانفسح

(١) أي النزهة ، في الأسبانية . (المعرب)

المنظر ساحراً ، وشعرنا كلنا بالجدل ، وأحسسنا بالعافية تتدفق في
أعطافنا ، وجاذبني شعور ودي نحو « كون » فليس في ميسورك أن تكون
مغتماً في يوم كهذا .

وكان هذا اليوم الأخير قبل بدء العيد (الفيسٲا) .

الفصل الخامس عشر

كان اليوم الأحد في ٦ تمّوز (يوليو) ، ظهراً ، حين بدأ العيد (الفبيستا) وكأنه ينفجر إنفجاراً ، فليس ثمة وصف آخر يفي بالتعبير أكثر من هذا اللفظ . كان الناس يقدمون من الضواحي طوال النهار ، ولكن المدينة قد تمثّلتهم كلّهم فلم يعد في ميسورك أن تميّزهم . وكانت الساحة تتراءى تحت أشعة الشمس المتقدّة في مثل هدونها في الأيام الأخرى .

كان الفلاحون قد فزعوا الى الحانات الصغيرة القابعة في الأزقة المحيطة ، وكانوا عاكفين على الشرب استعداداً للعيد (الفبيستا) . وكانوا قد قدموا ، منذ أمد قريب من السهول والربى ، فكان عليهم أن يألفوا تغيير القيم والأثمان ، بصورة متدرّجة . فلم يكونوا يطيقون في البدء ، دفع ثمن المشروب في المقاهي ، بل يدّخرون مالهم لبذله في الحانات الصغيرة . إذ كان للنقد ، آنذاك ، قيمته المحدّدة بساعات العمل وبمحصول الحبوب المبيّعة .

وفيما بعد ، خلال أيام العيد (الفبيستا) ، فإنه لن يكرّثهم مقدار ما يبذلون من مال ولن تكرّثهم الأمكنة التي ينفقون فيها . أمّا الآن ، في هذا اليوم الذي يستهل به عيد (سان فيرمان) ، فإنهم يفزعون منذ الصباح الباكر الى حانات الأزقة الصغيرة في المدينة .

وتناهى الى سمعي ، فيما كنت ذاهباً لحضور قداس الكنيسة ، غناؤهم

يتعالى من الأبواب المشرعة من الحانات متدفقاً دافئاً .

كانت الكنيسة حافلة بالناس في قداس الساعة الحادية عشرة ، فإن عيد (سان فيرمان) هو عيد ديني أيضاً .

وانحدرت من الأكمة إثر خروجي من الكنيسة ، ثم صعدت في شارع آخر متجهاً الى المقهى في الساحة . كان الوقت قبيل الظهر ، وكان « روبرت كون » و « بيل » جالسين الى إحدى الطاولات ، وكانت الطاولات المرممية والكراسي البيضاء قد اختفت ، فقد استبدلوا بها طاولات معدنية وكراسي قاسية ، قابلة للطي . وكان المقهى أشبه بباقرة حربية تستعد للمعركة . ففي هذا اليوم لم يكن النادل ليدعوك وحدك تقرأ طوال الصباح دون أن يسألك عما إذا كنت تطلب شيئاً ، فما كدت أتخذ مجلسي حتى اقترب مني نادل ، وسألت « بيل » و « روبرت » :

- ماذا تشربان ؟

وقال « كون » :

- قدح شيري

وقلت للنادل :

- Xeres أي شيري .

ولم يكد النادل يجلب لنا أقذاح الشيري ، حتى انطلق صاروخ الألعاب النارية في الساحة معلناً بدء العيد (الفيسستا) ثم انفجر . وتراءت كرة دخانية رمادية في العلاء فوق مسرح (غايار) من جانب الساحة . ورقت كرة الدخان في الفضاء ثم انفجرت انفجار (الشرانييل) . وفيما كنت أتطلع اليها ، انطلق صاروخ آخر نافثاً الدخان في أشعة الشمس المتألقة . فلما انفجر توامض منه بريق خاطف ، وانعقدت سحابة صغيرة أخرى من الدخان . وفي الوقت الذي انفجر الصاروخ الثاني ، كان قد التأم جمع غفير من الناس تحت القناطر التي كانت قبل دقيقة واحدة مقفرة . ولم يتيسر للنادل الذي كان يحمل بيده زجاجة ، رافعاً إياها فوق رأسه ، أن يشق طريقه ليصل الى طاولتنا إلا بجهد كبير .

كانت جموع الناس تقبل الى الساحة من جميع الجهات . وسمعنا في منخفض الشارع صوت النايات والمزامير والطبول تقترب . . كانوا يعزفون موسيقى (الريو ، الريو) على نفخ المزامير الرفيع ودرداب الطبول . وكان يتبعهم الرجال والفتيان وهم يرقصون . وعندما يتوقف أصحاب المزامير عن النفخ فإنّ الراقصين كانوا يجثون على الأرض حتى إذا انبثق صوت النايات والمزامير ، حاداً مشفوعاً بدرداب الطبول الهادر المدوي الضخم ، قفزوا ، وتابعوا رقصهم . ولم يكن في ميسورك أن تلمح في الجموع المكتظة سوى رؤوس الراقصين وهي ترتفع وتهبط .

وكان في الساحة رجل محدودب الظهر ينفخ في مزار ، يسعى خلفه شرذمة من الأطفال ، وهم يصرخون ويشدون سترته . وغادر الرجل الساحة ووراء الأطفال ، يتبعونه وينطون على نغم المزار ، ومراً أمام المقهى ثم توارى في شارع جانبي . وقد رأينا وجهه المكدر المجذور ، حين مرّ نافخاً في مزمارة والأطفال خلفه يشدون متصايحين .

وقال « بيل » :

- إنه أبله القرية ولا ريب ، يا إلهي انظروا الى هذا...

كان الراقصون يفدون من أسفل الشارع حتى امتلأ بالراقصين من الرجال ليس غير . وكانوا يرقصون جميعاً رقصاً موزوناً خلف مزاميرهم وطبولهم ، يؤلفون زمرة من ندوة . وكان كل واحد منهم يرتدي سترة عامل زرقاء ، واضعاً حول عنقه منديلاً أحمر . وكانوا يحملون راية كبيرة مرتكزة على عصوين طويلين ، ترقص معهم مرتفعة متطامنة وهم منحدرين قادمين وحولهم الجموع الغفيرة ، وكان مخطوطاً على الراية هذه الكلمات : لتحي الخمر! ليحي الغرباء!

وسأل « كون » :

- وأين الغرباء ؟

فأجاب « بيل » :

- نحن الغرباء .

كانت الصواريخ تتصاعد طوال الوقت ، وكانت طاولات المقاهي كلها قد امتلأت ، وأخذت الساحة تقفر شيئاً فشيئاً من الناس الذين مضوا إلى المقاهي فملأوها . وسأل « بيل » :

- أين « بریت » و« مايك » ؟

وقال « كون » :

- سأذهب للبحث عنهما .

- عد بهما إلى هنا .

كان العيد « الفيسستا » قد بدأ لاحقاً . ودام ، ليل نهار ، سبعة أيام متصلة ، استمر فيها الرقص ، واستمر العكوف على الشرب ، واستمر الصخب . وكانت الأشياء التي حدثت ، لا يمكن أن تحدث إلا خلال العيد ، وأضحى كل شيء فيما بعد خيالياً ، ومع ذلك فقد كان يبدو أنه ليس ثمة شيء يمكن أن تكون له نتيجة ما . . كان يبدو أن التفكير في أي نتيجة ، أثناء العيد ، هو في غير موضعه . وكان يجاذب المرء خلال العيد شعور بأن عليه أن يلهج عالياً - حتى في أويقات الهدوء - بأي ملاحظة له ليحمل الناس على سماعها . وكان يخالج المرء الشعور نفسه حيال أيما عمل يقوم به . .
ذلكم هو العيد الذي استمر سبعة أيام...

وبعد ظهر هذا اليوم ، قام الموكب الديني الكبير بالطواف ، وتنقل الاحتفال بعيد « سان فيرمان » من كنيسة إلى أخرى ، وقد اشترك في الموكب كل الشخصيات المدنية والدينية غير أنه لم يكن في وسعنا رؤيتها بسبب الزحام .

كان الراقصون يقومون ، في مقدمة الموكب ومؤخرته ، برقصة « ريو » ، فلم يكن يرى ثمة ، سوى كتلة من القمصان الصفراء تنط إلى أعلى ثم تهوي ، راقصة في قلب الزحام .

ولم يكن في استطاعتنا أن نرى من خلال جمهور الناس المتراس الذي

كان يملأ الشوارع والأرصفة ، سوى مردة الأصنام تمثل هنوداً في دكاكين التبغ تشارف قاماتهم ثلاثين قدماً . كما تمثل ملك وملكة يدوران ويرقصان في استعلاء ، رقصة الفالس على نغم « ريو ، ريو » .

كان الجميع يقفون خارج الكنيسة التي أقيم فيها احتفال عيد (سان فيرمان) ، ودخلت الشخصيات البارزة تاركة في الرصيف مردة الأصنام ، ومفرزة من الحراس والجنود . وكان الرجال الذين قبعوا في أجواف الأصنام ، والذين كانوا يجعلونها ترقص ، قد انتحوا جانب هياكلهم الثابتة ، بينما كان الأقزام يشبون هنا وهناك بقربهم الموسيقية الضخمة .

ووقفنا في العتبة ، وكانت رائحة البخور عابقة . وكان ثم أناس قد اصطفوا داخل الكنيسة ، غير أن « بریت » توقفت بإزاء الباب تماماً ، لأنها لم تكن ترتدي قبعة . وعندئذ عدنا على أعقابنا إلى الخارج ، واتخذنا أدراجنا في الشارع الذي يمتد من خلف الكنيسة إلى المدينة ، وكان الناس قد اصطفوا على جانبي الطريق محتفظين بأمكنتهم ريثما يعود الموكب .

وشكل بعض الراقصين حلقة حول « بریت » وأخذوا يرقصون ، وكانوا يحملون حول أعناقهم أطواقاً من الثوم الأبيض ، ثم أمسكوا بذراعي وذراعي « بيل » وأدخلونا في الحلقة . وشرع « بيل » يرقص أيضاً بينما أنشأوا يغنون جميعاً . وكانت « بریت » تود أن ترقص ولكنهم لم يدعوها تفعل . إذ كانوا يريدون أن يجعلوا منها صورة يرقصون حولها . ولما انطلق نغم « ريو ، ريو » الذي ينتهي به الغناء ، اندفعوا بنا إلى حانة صغيرة .

ووقفنا أمام المشرب ، فأجلسوا « بریت » على برميل . وكانت الحانة معتمة ملأى بالرجال الذين يلهجون بالغناء ، بصوت ضخم جاس ، وكانت الخمر تتدفق خلف المشرب ، من البراميل .

ووضعت ثمن الخمر على الخوان ، ولكن أحد الرجال التقط النقود وأعادها إلى جيبي .

وقال « بيل » :

- أريد زقاً من الخمر .

وقلت :

. ثمة دكان في الشارع ، سأعدو إليها لأجلب زقين .

ولم يشأ الراقصون أن يفسحوا لي الطريق لأخرج ، إذ جلس ثلاثة منهم على برميل ضخّم إلى جانب «بريت» ، وهم يعلمونها أن تشرب من زق جلدي .

وكانوا قد أحاطوا عنقها بطوق من الثوم ، وألح أحدهم عليها بأن تشرب قدحاً ، وجعل آخر يلحن «بيل» أغنية وهو يينشدها في أذن بيل مساوقاً نغمها بقرع على ظهره .

وفسرت لهم بأنني سأعود ، ولما خلصت إلى الخارج ، انحدرت إلى الشارع باحثاً عن الدكان التي تبيع زقاق الخمر .

كان الجمهور اللجب قد ملأ الأرصفة ، وألّفت أن معظم الدكاكين قد أغلقت ، فلم يتح لي أن أعثر على الزقين واتخذت سمتي بعيداً نحو الكنيسة ، وأنا أجيل بصري في جانبي الشارع ، وأخيراً استفهمت من رجل عن دكان الزقاق ، فأمسك بساعدي وقادني إليها ، وكانت مصاريع نوافذها مغلقة ولكن بابها كان مفتوحاً .

وفي الداخل ، كانت تنعقد رائحة جلد مدبوغ منذ أمد قريب ، كما سطعت رائحة قطران حام . وكان هناك رجل يخط على الزقاق الجلدية التي تم دبغها ، التي كانت تتدلى من السقف كالعناقيد ، وأمسك بواحد منها وأنزله ونفخه وسد عنقه ثم وقف فوقه وقال :

- أرايت أنه متين ، لا يتسرب منه شيء .

- أريد زقاً آخر ، زقاً كبيراً .

وانتزع من السقف زقاً كبيراً يسع ، ولاريب ، غالون خمر أو أكثر . ونفخه وبدت وجنتاه منتفختين أكثر من الزق ، ثم جلس إلى طاولة مستنداً إلى كرسي وقال :

- ماذا ستفعل بهما ؟ هل ستبيعهما في « بابون » ؟

- لا ، إنني بحاجة إليهما ، للشرب .

وقرع ظهري براحته .

- يالك من رجل طيب ، ثمان « بيزيته » ثمن الاثنين ، إنه أرخص سعر .

وتوقف الرجل الذي كان يخط على الزقاق الجديدة ويرمي بها إلى ركن .

- حقاً ؟ ثمان « بيزيته » ، إنهما رخيصان .

ودفعت ثمنها وخرجت وعدت إلى الحانة التي كانت الظلمة غلبت فيها

أكثر من ذي قبل ، كما اجتمع فيها عدد كبير من الزبائن . ولم أر « بريت »

ولا « بيل » . وقال لي أحدهم إنهما قد عاذا بحجرة خلفية .

وملأت فتاة المشرب ، زقي خمرأ فوسع أحدهما ليترين ووسع الثاني

خمسة لترات ، وبلغ ثمن الخمر لملئهما ثلاث بيزيتات وستين سنتيماً ،

وحاول شخص لم أره من قبل ، أن يدفع الثمن ، فتمنعت ، وانتهى الأمر بأن

أدفع أنا الثمن ، وقدم لي الرجل الذي أراد الدفع قدحاً ، ولم يرض أن يتيح لي

تقديم قدح إليه ، ولكنه قال لي إنه يؤثر أن يمضض شيئاً من خمر زقي

الجديد في فمه ، وشال الزق ذا اللترات الخمسة ثم هصره هصرة دفعت الخمر

حتى مست نهاية حلقه .

- حسناً .

قالها ، معيداً إلي الزق الجلدي .

وفي الحجرة الخلفية ، كانت « بريت » و « بيل » جالسين على برميلين

وقد أحاط بهما الراقصون ، وكان كل واحد منهم قد أراح ذراعيه على كتفي

الآخرين ، وهم يغنون جميعاً ، أما « مايك » فكان جالساً إلى طاولة مع عدد

من الرجال يرتدون قمصاناً قصيرة الأكمام ، ويأكلون من صحن كبير مليء

بسمك « الطون » يتخلله البصل المفروم والخل ، كما يشربون الخمر

ويغمسون الخبز في الزيت والخل .

وصاح مايك :

هالو « جاك » هالو ، تعال إلى هنا ، أود أن أعرفك بأصدقائي إننا نأكل جميعاً المقبلات .

وقدّمت لجميع الجالسين الى الطاولة وذكروا أسمائهم لـ « مايك » وطلبوا إلى أحدهم أن يجلب لي شوكة .

وهتفت « بريت » من أعلى البرميل :

- كف عن التهام طعامهم يا « ميشيل » .

وقلت بعد أن قدم لي أحدهم شوكته :

- لا أريد أن آتي على طعامكم .

فقال :

- هلاً أكلت! لأي شيء تحسب أنه موجود هنا ؟

ونزعت سدادة الزق الكبير وادرتة على الحلقة ، وشرب كل واحد منهم نهلة وهو يزق بساعده الى عل .

وكان في ميسورنا أن نسمع موسيقى الموكب العابر في الخارج ، وقد غلبت أنغامها على الأناشيد .

وسأل « مايك » :

- أترى هو الموكب ؟

وقال أحدهم .

- adan ، لا شيء ، اشرب من عل واترك الزجاجاة .

وسألت « مايك » :

- وأين عشروا عليك ؟

وقال « ميشيل » :

- أتى بي أحدهم . لقد قيل لي أنكم هنا .

- أين « كون » ؟

وقالت « بريت » بصوت مرتفع :

- لقد أخذود من هنا ووضعوه في مكان ما .

- وأين هو ؟

وقال « بيل » :

- كيف تريد أن نعرف ؟ أحسب أنه مَيّت .

وقال « مايك » :

- ليس مَيّتاً ، اعلم أنه ليس مَيّتاً ، لقد أسرف في شرب (أنيس ديل

مونو) ليس غير .

وما كاد يتفوّه بكلمة (أنيس ديل مونو) ، حتّى رفع أحد الجالسين

عينيه ، وسل الزجاجة من تحت سترته وسلمنيها ، فقلت :

- لا ، لا ، شكراً .

- yes, yes , Arriba ، بلى ، بلى ، الى فوق .

وشربت جرعة ، إن له مذاق عرق السوس ، ولكنه يشيع الدفء حيث

انسرب ، وكان في مكنتي أن استشعر حتّى في معدتي ، وقلت :

- أين « كون » بحق الجحيم ؟

وقال « مايك » :

- لا أدري ، سأستوضح لك (وسأله بالاسبانية) أين رفيقنا الشمل ؟

- هل تودّ رؤيته ؟

وقلت :

- نعم .

وقال « مايك » :

- أنا ؟ كلا ، بل هذا السيّد .

ومسح صاحب (الانيس ديل مونو) فمه ونهض .

- تعال .

وفي حجرة خلفية ، كان « روبرت كون » مستغرقاً في نوم قرير فوق أحد

البراميل . وكانت الظلمة هناك من الشدة بحيث تحول دون رؤية وجهه .

وكانوا قد غطّوه بمعطفه ، ووضعوا تحت رأسه معطفاً آخر مطوياً . وكان يلتف

حول عنقه طوق كبير مضمفور بالثوم ومراح على صدره .

وهمس الرجل :

- دعه ينم ، إنه على أحسن حال .

وبعد مضي ساعتين ، أطلَّ « كون ودخل الحجرة ، وطوق الثوم يتدلى من عنقه . وهلل له الاسبان حين دخل وفرك « كون » عينيه وتكلّف ابتسامة وقال :

- أعتقد بأنني قد نمت .

-وقالت «بريت» :

-اوه ، لا ، مطلقاً

وقال «بيل» :

- كنت ميتاً فحسب .

وسأل «كون» :

- هلاً ذهبنا ، عما قريب ، لتعشى .

- هل تريد أن تأكل ؟

- أجل ، لم لا ، أنا جائع .

وقال «مايك» :

- هل لك أن تأكل هذه الفصاص من الثوم ، هلاً أكلت هذه الفصاص من

الثوم ؟

وظلَّ «كون» منتصباً ، لقد جعلته غفوته ، في أحسن حال من النشاط .

وقالت «بريت» :

- فلنذهب لنأكل ، ينبغي أن أستحم .

وقال «بيل» :

- هيا بنا ، لنأخذ «بريت» الى الفندق .

والقينا تحية الانصراف على أكثر الحاضرين ، وشددنا مصافحين ، على

أكثر الأيدي ، ثم خرجنا . وكان الظلام داخياً في الخارج . وسأل «كون» :

- ماهو الوقت ، الآن ، فيما تظن ؟

وقال «مايك» :

- نحن ، في الغد ، لقد نمت يومين .

وقال «كون» :

- لا . كنت أعني الساعة .

- إنها العاشرة .

- بالكثرة ما شربنا!

- تعني أننا نحن الذين شربنا وأنت الذي نام .

وفيما كنا عائدين الى الفندق ، سالكين شوارع مظلمة ، شاهدنا صواريخ تتعالى فوق الساحة . وكان في مقدورنا أن نرى من أطراف الشوارع البمفضية الى الساحة ، الجموع الزاخرة في الساحة ، حيث قام الرقص في بهرتها .

وقدّم الينا في الفندق عشاء فاخر ، وكان أول عشاء مضاعف الثمن لمناسبة العيد (الفبيستا) وكان ثمة ألوان جديدة من الطعام .

ويمّمنا بعد العشاء شطر المدينة وأذكر أنني عوّلت على السهر طوال الليل ليتسنّى لي أن أشاهد الثيران وهي تجوز شوارع المدينة في الساعة السادسة صباحاً . ولكنني كنت من الإعياء وغلبة النعاس بحيث أويت الى فراشي حوالي الساعة الرابعة صباحاً ، وظلّ الباكون ساهرين .

وكانت غرفتي مغلقة ، وإذ لم أستطع العثور على المفتاح فقد صعدت لأنام على أحد السريرين في غرفة «كون» . وكانت احتفالات العيد مستمرة في الخارج ليلاً ، ولكنني كنت من النعاس بحيث لم أستطع أن أغالب النوم وأسهر .

واستيقظت ، على صوت صاروخ ، يعلن انطلاق الثيران من الحظائر (الكورال) في طرف المدينة . وكانت الثيران تتهياً لأن تركز نحو الملعب ، عبر الشوارع . وكنت مستغرقاً في نوم عميق فأفقت يخامرني شعور بأنني

استيقظت متأخراً ، وارتديت سترة لـ « كون » ودلفت الى الشرفة .
وبدا الشارع الضيق ، وأنا أحذر اليه نظري مقفراً ، وكانت الشرفات
جميعها غاصّة بالمترجحين وعلى حين غرة ، انثال جمهور غفير الى الشارع
وهم يركضون جميعاً في صفوف متراسة ، متجهين الى الملعب . وخفّ وراءهم
رجال بسرعة أكثر ، كما تراءى في أعقابهم بعض المتخلفين . وكان هؤلاء
يركضون حقاً . وانحسرت خلفهم مسافة قصيرة خالية ، ظهرت بعدها الشيران
وهي تخب مسرعة ، هازة رؤوسها الى أعلى وأسفل . ثم توارى كل ذلك عن
النظر في منعطف الشارع... تعثر رجل ووقع على الأرض ، ثم تدهدى نحو
مجرى النهر ، ولكنه لزم الهدوء وهو مستقل ، فيما كانت الشيران تمر دون أن
تلمحه . كانت تعدو ، مجتمعة ، فلمّا اختفت عن النظر ، تعالت ضجّة كبيرة في
ملعب مصارعة الشيران ، واستمرت فترة مديدة . وأخيراً ، أعلن انطلاق
صاروخ بأن الشيران التي شقّت طريقها بين الناس قد وصلت الى حظيرة
الملعب .

ودخلت الفرقة ، واضطجعت على السرير . وكنت حافي القدمين ، حين
وقفت في الشرفة الحجرية ، كما كنت أعلم أن رفاقي قد مضوا الى حلبة
مصارعة الشيران . وماكدت أستلقي على السرير حتّى أخذ النوم بمعاقد
جفني .

وأيقظني « كون » وهو يدخل ، وأخذ ينتزع ثيابه وأغلق النافذة لأن
أشخاصاً كانوا ينظرون اليه ، عبر الشارع ، من شرفة البيت المقابل وسألته :

- هل رأيت المشهد ؟

- أجل . كنّا هناك جميعاً .

- ألم يجرح أحد ؟

- لقد هجم أحد الشيران على الجمهور في وسط الملعب وطرح ستة
أشخاص أو ثمانية .

- وهل سرت «بريت» بمشاهدة ذلك ؟

- لقد توالى كل شيء في سرعة خاطفة ، بحيث لم يتسن وقت يضجر فيه أي شخص .

- وددت لو أنني كنت حاضراً .

- لم نكن نعلم أين كنت ، لقد جئنا غرفتك ولكنها كانت مغلقة .

- وأين أمضيتم السهرة ؟

- لقد رقصنا في أحد النوادي .

وقال « كون » :

- يا إلهي إنني الآن وسنان ، أفلا ينتهي هذا العيد ؟

- لن ينتهي قبل اسبوع .

وفتح « بيل » الباب وأمر رأسه وقال :

- أين كنت يا « جاك » ؟

- كنت أشاهد الثيران تمر ، وأنا في الشرفة .

- وكيف رأيتها ؟

- إنها لرائعة .

- إلى أين أنت ذاهب ؟

- إلى النوم .

ولم ينهض أحد من النوم قبل الظهر ، وتناولنا الطعام تحت القناطر . كانت المدينة حافلة بالناس ، وكان علينا أن ننتظر فترة طويلة حتى فرغت لنا طاولة . مضينا بعد طعام الغداء إلى مقهى (ايرونا) . كان غاصاً بالناس ، كما جعل يمتلئ ، بمزيد من الزبائن كلما اقترب وقد بدء حفلة مصارعة الثيران ، فكان على الطاولات أن تتداني متراسة .

وقد أضحى من المألوف أن يعلو لغط الزبائن كل يوم ، قبل بدء حفلة مصارعة الثيران . ولم يكن ليعلو أيما صوت ، في أي وقت آخر في هذا المقهى مهما يكن مزدحماً . ولم ينقطع هذا اللغط عن الدوي ، وكنا في قلبه ، بل كنا نشارك فيه .

وكنّت قد حجزت ستة محلات لكل حفلات المصارعة ، ثلاثة محلات من صف (الباريرا Barreras) أي (الصف الأول من المصاطب) وثلاثة محلات من صف (Sobrepnertas) أي (الصف القائم في منتصف الإرتفاع من المدرج ، ومحلاته ذات مساند خشبية) . ورأى «مايك» أنه من الأنسب أن تجلس «بريت» لأول مرة ، في المكان المرتفع ، وشاء «كون» أن يجلس معهما .

وجلست مع «بيل» في صف (الباريرا) وأعطيت البطاقة الباقية لنادل المقهى لبيعها . وذكر «بيل» لـ «كون» شيئاً عما ينبغي أن يفعل وكيف يتعين عليه أن يشاهد ، لئلا يؤثر فيه منظر الجياد ، فقد كان «بيل» قد شاهد من قبل موسماً من حفلات مصارعة الثيران . وقال «كون» :

- لا يشغلني وقع المشهد وأثره ، إن ما أخشاه هو أن يستبدّ بي الضجر .
- هل تفكر في ذلك حقاً ؟

وقلت لـ «بريت» :

- لانتظري الى الجياد بعد أن ينطحها الشور ، انظري الى هجومه وكرة وانظري الى الفارس (البيكادور) وهو يحاول أن يتحاشى نطاح الشور ولكن إن جرح الجواد فلا تلقي ببصرك إليه حتى ينفق .

وقالت «بريت» :

- أشعر بأن أعصابي قد هاجت بعض الشيء ، وإنني لأتساءل قلقة ، عما إذا كان في وسعي أن أصبر على ذلك حتى النهاية .

- بلى ، سيكون في وسعك أن تتحملي ، إذ لا يوجد سوى مشهد مصرع الجياد الذي قد يؤثر فيك ، لن يطول هذا أكثر من دقائق معدودة لكل ثور ، ولانتظري آنئذ ، حين تستشعرين ضيقاً في مشاهدة ذلك .

وقال «مايك» :

- ستقوى على ذلك ، على نحو جيد ، سأهتم بها .

وقال «بيل» :

- سأذهب معك .

وابتسمت «بريت» لنا ، ودرنا تحت القناطر لتتجنب حر الساحة .

وقال «بيل» :

- إن «كون» هذا يخرجني عن طوري . إن شعوره اليهودي المتعالي هذا ، هو من القوة ، بحيث يحسب أن الملل هو الأثر الوحيد الذي يخلص له من مشاهدة حفلة مصارعة الثيران .

وقلت :

- سوف ننظر اليه بالمنظار المكبر .

- أوه ، ليذهب الى الجحيم .

- إنه ينفق ، بحياته التي يعيشها ، جزءاً كبيراً من الوقت في الجحيم .

- وددت لو يبقى هناك .

وصادفنا «مونتويا» ، على درج الفندق ، فقال لنا :

- تعالا ، هل تودان التعرف على «بيدرو روميرو» ؟

وقال «بيل» حسناً ، دعنا نره .

وتبعنا «مونتويا» الى الدور الأول ، ودلفنا الى الرواق ، وشرح لنا

«مونتويا» :

- إنه يقيم في الغرفة رقم ٨ ، وهو يرتدي ثيابه استعداداً للعب . ونقر

«مونتويا» على الباب وفتح ، كانت الغرفة معتمة ، وكان نور نحيل يتسرب

من نافذة مشرفة على زقاق ضيق ، وكان ثمة سريران يفصل بينهما آثار

كنيسة . وأضاء نور كهربائي فبدأ الشاب واقفاً ، منتصباً ، زميتاً ، في ثياب

مصارع الثيران . وكانت سترته معلقة على ظهر كرسي ، وكان قد أعين على

التمنطق بحزامه منذ هنيهة . وتألق شعره الأسود في النور الكهربائي ، وكان

يرتدي قميصاً أبيض من الكتان ، فما كاد مساعده ينتهي من وضع الحزام حول

خصره ، حتى نهض وتراجع .

وهز «بيدرو روميرو» رأسه تحية لنا ، وصافحنا في اعتداد وترفع

كبيرين . وقال له «مونتويا» شيئاً ، فذكر بأننا من الولوعين (Aficionados)

بمصارعة الثيران ، وأنا نتمنى له حظاً طيباً .

وكان « روميرو » يصغي إليه إصغاء موصولاً جذياً ، ثم التفت اليّ ، إنني لم أرَ من قبل فتى منظرانياً^(١) جميلاً مثله ، وقال لي بالانكليزية :

- أذهب الى حفلة مصارعة الثيران ؟

وقلت وأنا أشعر بأنني كالأبله :

- أتعرف الانكليزية ؟

فأجاب :

- لا .

وابتسم...

وكان ثلاثة رجال جالسين على السرير ، وتقدّم منا أحدهم فسألنا عما إذا كنّا نتكلّم الفرنسية وأردف يقول :

- هل تودّان أن أقوم بمهمة الترجمان ؟ هل تريدان توجيه بعض الأسئلة

الى « بيدرو روميرو » ؟

وشكرناه فأبى شيء ، كان في ميسورنا أن نسأله ؟ : كان له من العمر تسعة

عشر ربيعاً ، وكان وحيداً ، فيما عدا مساعدته والفضوليين الثلاثة ، وكانت

الحفلة توشك أن تبدأ بعد عشرين دقيقة وتمنينا له Mucha Suerte^(٢)

وصافحناه وخرجنا ، وبدا لنا ، فيما كنّا نغلق الباب ، منتصباً جميلاً منفرداً

بنفسه ، وحيداً في تلك الغرفة مع الفضوليين الثلاثة .

وقال « مونتويا » :

- إنه فتى لطيف . أليس كذلك ؟

وقال « مونتويا » :

- إنه يبدو مصارع ثيران (توريرو) حقاً . إنه نموذج صادق له .

(١) الحسن المنظر .

(٢) الحظ السعيد . في الإسبانية .

- إنه فتى لطيف .

وقال « مونتويا » :

- سوف نرى في الملعب الى مدى قدرته .

ووجدنا الزق الكبير مسنوداً الى جدار غرفتي فأخذته . كما أخذنا
المنظار المكبر ، وأوصدت غرفتي بالمفتاح ونزلنا .

وكانت حفلة ثيران موفقة ، وقد تحمست أنا و« بيل » لـ« بيدرو روميرو »
أشد التحمس . وكان « مونتويا » جالساً ، يفصلنا عنه عشرة محلات . فلما
صرع « روميرو » ثوره الأول ، رشقني « مونتويا » بنظره ، وهز رأسه
مستحسناً . لقد كان « روميرو » مصارعاً حقيقياً . وقد مر اسم طويل لم ينبه فيه
اسم مصارع ثيران حقيقي . وأما المصارعان Matadors^(١) الآخرا ، فقد كان
أحدهما حسناً جداً ، وكان الآخر مقبولاً . ولكن لم يكن ثمة مجال لمقارنتهما
بـ« بيدرو روميرو » رغم أنه لم يكن ثور واحد من ثيرانه جيداً جداً .

وأجلت بصري ، أثناء اللعب ، بالمنظار المكبر ، عدة مرات ، ملتصقاً برؤية
« مايك » و« بریت » و« مون » فترء والي على أحسن حال ، ولم يبداً على
« بریت » الانفعال . وكان الثلاثة جميعهم متوكتلين على مسند اسمتي قبالتهم .

وقال لي « بيل » :

- أعرني المنظار المكبر .

وسألته :

- هل يبدو على « كون » سيماء الضجر ؟

- يا لليهودي القذراً !

ولما انتهت الحفلة ، لم يكن في ميسورك أن تتحرك في الزحام ، عند
الخروج من الملعب . ولما ألفينا صعوبة في شق طريق بين الجموع ، تركنا
أنفسنا نساق مع حشد الناس الى المدينة على مهل ، كأننا فوق مجمدة^(٢)

(١) المِتَادور : المصارع الذي يلاعب الثور ثم يقتله في النهاية . (المعزب)

(٢) المجمدة : glacier

تسعى . وكان يخامرنا شعور بالإنفعال الملتاث الذي يجاذب دوماً من يشاهد حفلة مصارعة ثيران ، وشعور بالفرحة المزهوة التي تعقب الحفلة الناجحة .
وكان العيد (الفيسستا) مستمراً ، وكان درداب الطبول لا يني يدوي ، والمزامير لاتفتأ تصفر ، وكانت أمواج الجموع المتدفقة ، تقدم من جميع الجهات لتتكسر أمام زمر الراقصين ، حتى إذا ضمت الجموع زمر الراقصين ، لم يعد في ميسورك أن ترى الى حركات أرجلهم المعقدة الرشيقة ، وكل ما كنت تستطيع أن تراه هو الرؤوس والأكتاف التي كانت لاتأتالي ترتفع وتتطامن .

وتمكنا أخيراً من أن نخرج من الجموع ، فاتخذنا سمتنا نحو المقهى . وحجز النادل كراسي لرفاقنا ، وطلبنا قدحين من الابسنت ، ونحن نرامق حشر الناس والراقصين في الساحة . وسأل « بيل » :

- ما هذه الرقصة فيما تظن ؟

- إنها نمط من رقصة (الجوتا) .

وقال « بيل » :

- ليست هي نفس الرقصة ، دوماً . إنهم يرقصون في كل مرة رقصة مختلفة ، كلما تغير النغم .
- إنها رقصة عذبة .

وفي منفسح عريض منير من الشارع أمامنا ، جعل جمع من الفتيان يرقصون . وكانت خطاهم معقدة جداً ، ووجوههم تشي بتعبير حاد مركز . وكانوا يغمضون أبصارهم ، جميعاً ، وهم يرقصون . وكانت نعالهم المحبوكة تضرب الأرض وتنقر عليها ، وأصابع أقدامهم تتلامس وأعقابها تتلامس وأخامصها تتلامس . ولما أضحى نغم الموسيقى وحشياً تراخت الرقصة الى نهايتها ، ومضى الراقصون كلهم صعداً في الشارع وهم يرقصون .
وقال « بيل » :

- هاهم رفاقنا الأعيان .

« كانوا يجتازون الشارع ، وقلت :

- مرحباً بالأصدقاء .

وقالت « بریت » :

- مرحباً بالرفاق ، لقد حجزتم لنا محلات ، إنه لطف منكم .

وقال « مايك » :

- يا له من فتى « روميرو » هذا ، إنه لفذ ، أمخطىء أنا ؟

وقالت « بریت » :

- إنه لفاتن ، أليس كذلك ؟ وهذا السروال الأخضر .

- إن « بریت » لم تحوّل بصرها عنه .

- اعلم ذلك ، ينبغي أن تعيرني منظارك المكبر غداً .

- هل تمت الحفلة بنجاح ؟

- كانت على جانب كبير من الروعة والكمال ، يالهذا المشهد !

- وما رأيك في الجياد ؟

- لم يكن في وسعي الإمتناع عن مشاهدتها .

وقال « مايك » :

- لم تكن نظرات « بریت » تنحرف عنها . إن « بریت » امرأة صغيرة

خارقة .

وقالت « بریت » :

- إن ما أصابها لشيء رهيب ، ولكنني لم أقدر على الامتناع من رؤيتها .

- ألم يسبّب لك ذلك ضيقاً ؟

- لم أشعر بشيء ، يضايقني قط .

وقال « مايك » مبدياً ملاحظته :

- لم تكن مثل « روبرت كون » ، لقد انتسّف لون وجهك يا « كون » .

وقال « كون » :

- لقد أثر في نفسي مرأى الجواد الأول .

وسأل « بيل » :

- أحسب أنك لم تضجر ، أليس كذلك ؟

وقهقه « كون » :

- لا لم أضجر ، آمل أن تصفحوا لي ما قلت بهذا الصدد .

- إن هذا لحسن ، مادمت لم تضجر .

وقال « مايك » :

- لم يكن يلوح عليك الضجر ، حسبت أن ذلك سيسبب له إزعاجاً .

- لم أشعر بالانزعاج ، فيما عدا دقيقة واحدة ليس غير .

- كنت أظن أن ذلك سيؤدي الى انزعاجه ، ولكنه لم يشعر بالضجر يا

« روبرت » أليس كذلك ؟

- لا تلح على ذلك يا « مايك » ، لقد أفصحت بأنني آسف على قلبي

ذاك .

- لقد كان ممتع اللون ، كما قلت لكم ، كان في الحق ممتع اللون .

- إيه ، ميشيل ، كفى .

وقالت « مايك » :

- لا ينبغي أن يضجر الانسان حين يشاهد حفلة مصارعة الثيران لأول

مرة ، فإن ضجره سيؤدي الى مأزق حرج .

وقال « بریت » :

- إيه ميشيل ، كفى .

لقد قال إن بریت سادية الطبع ، ليست « بریت » بسادية ، إنها امرأة

صغيرة مفقمة سحراً وعافية .

وسألت :

- أنت سادية يا « بریت » ؟

- أرجو ألا أكون كذلك .

- لقد ادعى أن « بریت » سادية لسبب واحد هو أن لها معدة جيدة قوية .

- لن تكون قوية أمداً طويلاً .

واتجه « بيل » بـ« مايك » في الحديث الى موضوع لا يتعلّق بـ« كون » ،
وأحضر النادل شراب الأبنست .

وقال « بيل » لـ« كون » ، مستفهماً :

- هل راقتك الحفلة حقاً ؟

- لا . لا أستطيع القول إنها راقنتني ولكنّي أجد أنها مشهد رائع .

وقالت « بریت » :

- يا إلهي! أجل ، ياله من مشهد!

وقال « كون » :

- كنت أؤثر الا تشترك الجياد في الملعب .

وقال « بيل » :

- ليس هذا مهمّاً ، فبعد مضي فترة وجيزة لا يجد المرء ما يثير

اشمئزازه .

وقالت « بریت » :

- في البدء يبدو المشهد عنيفاً بعض الشيء ، إن ما وجدته مرعباً هو

تلك اللحظة التي يهجم فيها الثور على الحصان .

وقال « كون » :

- كانت الثيران رائعة .

وقال « مايك » :

- كانت جيدة جداً .

وقالت « بریت » وهي ترتشف الابست :

- أود أن أتخذ مجلسي ، في المرة القادمة ، في الصفوف الأولى السفلى .

وقال « مايك » :

- إنها تريد أن ترامق مصارعي الثيران عن كذب .

- إنهم لشيء يسير . فهذا الصغير « روميرو » ليس سوى طفل .

وقلت :

- إنه فتى وسيم . وقد وجدت ، حين كان في غرفته ، أنني لم أرَ عمري فتى في مثل وسامته .

- كم له من العمر فيما تظن ؟

- تسع عشرة سنة أو عشرون سنة .

- تصوّر ذلك .

وفي اليوم التالي . كانت حفلة مصارعة الثيران أحسن من حفلة اليوم السابق ، وجلست «بريت» في صف (الباريرا) ، بيني وبين «مايك» ، وجلس «بيل» و«كون» في الصف المرتفع .

وكان «روميرو» المصارع البارع المثير ، غير مدافع ولا منازع . وأحسب أن «بريت» لم تتطّلع الى أي مصارع آخر . وفي الواقع ، لم يلعب أحد مثله فيما عدا المدرّبين الأشداء . وكان ثمّ فارسان (ماتادور) ، ولكنهما لم يكونا ليحسبا لاعبين حقيقيّين . وإذا كنت جالساً الى جانب «بريت» فقد أخذت اشرح لها مايجري . وطلبت اليها أن تنظر الى الثور لا الى الجواد ، حين يكر الثور هاجماً على الفارس ، وعلمتها أن تلاحظ كيف يسدّد الفارس سنان رمحه حتّى تعرف أنه يقصد الى هدف معيّن ولا يقصد أن يثير مشهداً مربعاً لايسوغ له . وأبنت لها كيف كان «روميرو» يبعد الثور بشاله ، عن الجواد الصريع ، وكيف يدعه ، بشاله ، واقفاً لايريم ، ثمّ يحمله الى أن يدور حوله في لين وانسياب دون أن يرهقه . وقد رأيت كيف كان «روميرو» يتجنّب أي حركة مفاجئة ، ويحفظ ثيرانه حتّى النهاية ، حتّى الوقت الذي يريد فيه أن تكون ثيرانه لامبهورة الأنفاس مستسلمة بل متعبة على نحو تدريجي .

ورأت «بريت» كيف كان «روميرو» يجعل الثور يدور قريباً منه . وذكرت لها أن الحيل التي يلجأ إليها مصارعو الثيران الآخرون ليوحوا بأن الثور يدور قريباً منهم ، وادركت «بريت» لمّ شُغفّ بلب «روميرو» بالشال ولمّ لم تحب لعب الآخرين .

ولم يكن « روميرو » يؤدى حركات ملتوية ، كان اسلوبه في اللعب نقياً ، مستقيماً ، طبيعياً في خطوطه كلها . أما الآخرون فقد كان الواحد منهم يتلوى كالمبرام^(١) ومرفقاه مرفوعان ، ثم ينحني أمام خصر الثور بعد أن يكون قرناه قد مرّا ، ليثير الشعور بالخطر .

وكانت هذه الحركات المتكلفة تتراخى الى القبح وتختلف شعوراً غير مستحب . أما طريقة مصارعة « روميرو » فقد كانت تهيج في النفس انفعالاً حقيقياً ، لأنه كان يحتفظ بنقاء صرف في خطوط حركاته ، وكان يدع دوماً قرني الثور يمران في هدوء وطمأنينة ، قريباً منه ، في كل مره ، دون أن يبالغ في الاقتراب منهما .

ورأت « بریت » كيف أن مايقوم به المصارع رائعاً عن كذب ، ينقلب هزأة حين يقوم به عن بعد . وذكرت لها أنه منذ وفاة « جوزيلتو » فإن جميع مصارعى الثيران قد نهجوا طريقة تتظاهر بالخطر ، لخلق شعور مزيف بالانفعال ، بينما يكون مصارع الثيران ، في الواقع ، آمناً . لقد كان « روميرو » يتمسك بالاسلوب القديم الذي يحتفظ فيه بنقاء خطوط حركاته مع إظهارها ، بأقصى مايمكنه ، بينما يكون في الوقت نفسه ، متسلطاً على ثوره بإيحائه اليه أنه لايمكن أن يناله ، ومعداً إياه ليلقى مصرعه .

وقالت « بریت » :

- إنني لم ألحظ عليه بأنه قام بحركة خرقاء واحدة .

وقلت :

- لن تلحظي ذلك ، إلا إذا ألم به الجزع .

وقال « مايك » :

- إنه لن يجزع البتة ، فهو متمكن من فته .

- إن ما يعرفه الآن ، كان يعرفه في مستهل بدايته ، وليس في ميسور

الآخرين أن يتعلموا ما كان يعرفه هو منذ ولادته .

وقالت «بريت» :

- وهذا المحيا ، يا إلهي !

وقال «مايك» :

- أتدري ؟ لقد بدأت أعتقد بأنها بدأت تميل الى هذا المصارع .

- ليس في هذا ما يشير عجبي .

- كن لطيفاً يا «جاك» ولا تتحدث اليها بشيء عنه ، قل لها كيف يضرب

هؤلاء أمهاتهم العجائز .

- قل لي كيف يتعتهم السكر .

وقال «مايك» :

- اوه إنهم لمخيفون ، إنهم يسكرون طوال النهار ، ويزجون الوقت

بضرب أمهاتهم العجائز المسكينات ،

وقالت «بريت» :

- إنه يبدو كذلك .

- أحقاً ؟

كانوا قد ربطوا الثور الصريع بالبغال . وقرقت السياط ، وركض الرجال

ودفعت البغال قوائمها ، متوترة العصب ، وخبّت راکضة وجرت الثور وحده الى

الأرض ، وأخذ قرنيه منتصب . فكنس جسمه الرمل في لين وانسحب في خط

دائري ، ثم تخطى الباب الأحمر .

- الثور القادم هو الأخير .

وقالت «بريت» :

- لا ، حقاً ؟

وانحنت على صف (الباريرا) .

ولوح «روميرو» بيده الى الفرسان (البيكادور) فاستقروا في مسكناتهم .

ثم انتصب واقفاً ، وشاله على صدره ، وشخص بصره الى المكان الذي سيخرج

منه الثور في الملعب .

ولمّا انتهت الحفلة خرجنا وألفينا أنفسنا في الزحام .

وقالت «بريت» :

- إن حفلات مصارعة الثيران هذه أشبه بالجحيم ، أشعر باسترخاء كأنني

خرقة . .

وقال «مايك» :

- اوه ، ستشربين شيئاً ما .

وفي ثاني يوم ، لم يلعب «بيدرو روميرو» . كان الدور لثيران «ميورا»

وكان اللعب رديئاً . وفي اليوم التالي ، لم يكن ثم حفلة مصارعة ثيران في

البرنامج ولكن العيد (الفيسستا) استمر ، ليل نهار .

الفصل السادس عشر

في صباح اليوم التالي ، هطل المطر ، ولفع الجبال ضباب قادم من البحر فلم يكن في ميسورك أن ترى ذرى الجبال . كانت الهضبة معتمة وحزينة وتغير منظر البيوت والأشجار . ومشيت في الخارج ، لأبلو الطقس وكان الطقس السيء قد أتى من البحر ، ماراً فوق الجبال .

وفي الساحة ، كانت الأعلام المبتلة ، معلقة بسارياتها البيض . وكانت الرايات مخضلة ومعلقة بجبهات البيوت ، وكان الرذاذ ينقلب بين الفينة والفينة الى مطر ، ليلجىء الناس الى القناطر ، مخلفاً بركاً من الماء في الساحة . وأضحت الشوارع مبتلة سوداء مقفرة ، ومع ذلك فقد ظل العيد قائماً دون إنقطاع ، واستمرّ مظلاً من المطر . وملاً الجمهور المحلات المسقوفة من الملعب ليكونوا بمنجى من المطر ، ويتابعوا مشاهدة مباريات المنشدين والراقصين الباسكتيين الفافاريين ، وقام راقصو (فال كارلوس) بالرقص في الشارع تحت وابل المطر على درداب الطبول الأجوف الندي ، مرتدين ثيابهم المحلية . وكان قواد الإيقاع يتقدمونهم وهم على صهوات جيادهم الغليظة ذات القوائم الثقيلة . لذا كانت ثيابهم مبتلة وجلال جيادهم مبتلة أيضاً تحت صيب المطر .

كان جمهور الناس قد زحم المقاهي ، وكان الراقصون يدخلونها أيضاً ، ثم يجلسون وأرجلهم البيضاء الملتفة بالعصائب تلتئم تحت الطاولات ، وهم

ينفضون الماء من قبعاتهم ذات الجلاجل ، وينشرون ستراتهم الحمر
والبنفسجية على الكراسي لتنشف . وكان المطر يسح في الخارج ، سخياً .
وتركت الجمع في المقهى ومضيت الى الفندق ، لأحلق قبل العشاء .
وقرع عليّ باب غرفتي فيما كنت أحلق ، وقلت :

- ادخل .

ودخل « مونتويا » وقال :

- كيف حالك . ؟

قلت :

- حسنة .

- اليوم ليس ثمة ثيران .

قلت :

- لا . بل مطر ليس غير .

- أين رفاقك ؟

- في مقهى (ايرونا)

وابتسم « مونتويا » ابتسامته المرتبكة وقال :

- قل لي ، لعلك تعرف سفير الولايات المتحدة ؟

قلت :

- نعم . كل الناس يعرفون سفير الولايات المتحدة .

- إنه اليوم في المدينة .

- لقد رآه الجميع .

وقال « مونتويا » :

- لقد رأيته أنا أيضاً .

وأمسك عن الكلام . واستأنفت الحلق ، وقلت :

- اجلس ، دعني أطلب لك مشروباً ما .

- لا ، ينبغي أن أذهب .

وانتهيت من الحلاقة وغطّست رأسي في طست وغسلته بالماء البارد ،
وكان « مونتويا » لايزال واقفاً وقد بدا على وجهه مزيد من الإرتباك :
- اصغ إليّ ، لقد أنهى اليّ الآن من (الفندق الكبير) رغبته في أن يشرب
القهوة مع « بيدرو روميرو » و« مارسيال لالاندا » ، مساءً ، بعد العشاء .
وقلت :

- حسناً ، ليس في ذلك ضرر على « مارسيال » .
- لقد ذهب « مارسيال » الى « سان سيباستيان » ليبقى فيها طوال
النهار . وقد استقلّ السيّارة صباحاً ، مع « ماركيز » ، وأحسب أنهما لن
يعودا ، الليلة .

وظلّ « مونتويا » واقفاً ، مرتبكاً . . كان يتوقع أن أقول شيئاً ما . وقلت :

- لاتنقل هذه الرغبة الى « روميرو » .

- هل ترى ذلك ؟

- بكل تأكيد .

- كنت أودّ أن أعرف رأيك لكونك أميركياً .

- هذا ما أفعله .

وقال « مونتويا » :

- أنت تعلم أن الناس ينظرون هكذا ، الى أيما فتى ، إنهم لا يعرفون
قيّمته ولا شأنه ، إن في ميسور أي أجنبي أن يطريه . وكذلك تبدأ القصص
كلّها في (الفندق الكبير) ، وبعد مضي عام يصبح صفراً لا جدوى منه .
- مثل (الغابينو) .

- بلى ، مثل « الغابينو » .

وقلت :

- إنه وسط جميل... ثمّة امرأة امريكية تستصفي حالياً نماذج من
مصارعي الثيران .
- اعلم أنهن يؤثرن الفتيان الأغرار .

قلت :

- أجل فإنّ الشيوخ يصبحون مترهلين .

- أو مجانين مثل « غالو » .

قلت :

- حسناً ، إنه لشيء يسير . كل مايتعيّن عليك أن تفعله هو أن تنقل

إعلامه بالدعوة .

قال « مونتويا » :

- إنه شاب لطيف ، ينبغي أن يلزم محيطه وألا يختلط بغير وسطه .

- أحقّاً أنك لا تريد أن تشرب شيئاً ما ؟

وقال « مونتويا » :

- لا ، عليّ أن أمضي .

وخرج ، ونزلت ، وتخطّيت الباب ، ودرت حول الساحة أتدراً بالقناطر .

فقد كان المطر لايني يسحّ . وبحثت عن جماعتي في مقهى (الايرونا) فلم أعرّ عليهم ثمة ، وجعلت أدور حول الساحة ثمّ انقلبت عائداً الى الفندق ، فإذا بهم يتعشّون في حجرة الطعام من الدور الأرضي .

كانوا قد سبقوني باحتساء أقداح عديدة ، وكان من العبث أن أداني ما أصابوه من شراب ، وكان « بيل » مهمماً بأن يمسح حذاء « مايك » فكان ينادي كل ماسح أحذية يدخل الباب المفضي الى الشارع ويحمله على مسح حذاء « مايك » . وقال « مايك » :

- هذه هي المرة الخامسة ، يمسح فيها حذائي . ان « بيل » لحمار . ولا

شك ان ماسحي الاحذية قد اخذوا علماً بذلك ، فقد وفد ماسح احذية جديد ، وقال لـ « بيل » :

- Limpia Botad ماسح أحذية .

وقال له « بيل » :

- لا ، لهذا السنيور .

وقبع ماسح الاحذية الى جانب زميل له ، وتناول فردة حذاء «مايك»
وكان الحذاء يلمع في النور الكهربائي ، وقال «مايك» :
- إن «بيل» لمضحك .

وشربت شيئاً من النبيذ الأحمر ، بيد أنني كنت متخلفاً الى حد أشعرتني
بأنني قد ضقت بمسح الأحذية . وأجلت طرفي في حجرة الطعام ، فإذا بي
ألمح «بيدرو روميرو» جالساً الى الطاولة المجاورة . ونهض حين حنيت له
رأسي ، وطلب اليّ أن أقدم لأتعرف على أحد أصدقائه ، وكانت طاولته تكاد
تلامس طاولتنا . وعرفني الى صديقه وهو ناقد فني لمصارعة الثيران ، من
(مدير) وكان رجلاً قميئاً هضيم الوجه ، وأفضيت الى «روميرو» اعجابي
بفنه . فشاع السرور في محياه . وكنا نتكلم الاسبانية ، وكان الناقد يعرف
الفرنسية بعض الشيء ، وانحنيت نحو طاولتنا لأتناول منها زجاجة الخمر .
بيد أن الناقد أمسك بذراعي... وضحك «روميرو» وقال بالانكليزية :
- اشرب من هنا .

وكان يتحرج كثيراً من التحدث بالانكليزية ، ولكنه كان مغتبطاً بذلك في
قرارة نفسه . وتلفظ ، خلال الحديث ، بكلمات لم يكن يعرف معناها ، على
نحو مؤكّد صحيح ، ثم طلب اليّ تفسيرها ، وكان يرغب في معرفة الترجمة
الصحيحة لتعبير (Corrida de Loros) في الانكليزية . وكان يرتاب من التعبير
(bull Fight) وفسّرت له أنّ (bull fight) تعني حرفياً في الاسبانية : (Lidia of
a tiro) وأن لفظة (corrida) الاسبانية تعني في الانكليزية : The rumming of
bull وأن الترجمة الفرنسية هي : (Course de taureaux) فلا يوجد إذن لفظة
اسبانية معروفة لما يقابل في الانكليزية : (bull fight) .

وقال «بيدرو روميرو» أنه ألمّ بشيء من الانكليزية في (جبل طارق) ،
فقد ولد في (رواندا) التي تقع بالقرب من شمالي (جبل طارق) وقد بدأ يتعلّم
مصارعة الثيران في (ملقه) ، حيث توجد مدرسة لتعليم مصارعة الثيران . ولم
يدرس هنا سوى ثلاث سنوات . وعاتبه الناقد على لفظ (Malagueno ملقه)

الذي كان يلهج به .

وقال «روميرو» إن له تسعة عشر عاماً من العمر وإن أخاه الأكبر يرافقه ويشغل له (حامل لواء Banderillero) ، ولكنه لا يقيم معه في هذا الفندق ، بل في فندق أصغر ، مع بقية أعضاء الفريق الذين يعملون معه .

وسألني عن عدد المرات التي شاهده فيها في حلبة مصارعة الثيران ، وقلت له ثلاث مرات فحسب . وفي الواقع أنني لم أراه سوى مرتين ، وقد فهمت بهذا الخطأ ولم أشأ أن ألجأ الى التفسير .

- أين رأيته في المرات السابقة ؟ في مدريد ؟

- أجل (كنت أكذب . فقد قرأت وصف هاتين الحفلتين في (مدريد) في جرائد مصارعة الثيران . كنت أدخن في منجى من العثار) .

- أفي المرة الأولى أم في الثانية ؟

- في الأولى .

قال :

- لقد كنت فيها رديناً جداً ، أمّا في المرة الثانية فكنت أفضل ، أفلا تتذكر ذلك ؟ (والتفت الى الناقد) .

ولم يكن ليأخذه الارتباك قط ، كان يتكلم عن مهنته وكأنه يتحدث عن شيء منفصل ، ولم يكن يلبسه غرور أو صلف . وقال :

- إنني لجد سعيد أن أرى اليك تحبّ فني ، ولكنك لم تشاهد شيئاً ذا شأن حتى الآن . غداً ، إن حظيت بثور جيّد ، فلأرينك ما في وسعي أن أقوم به .

كان يبتسم . بينما هو يقول ذلك ، مستطعاً ، في قلق ، عمّا إذا كنا نفكر ، أنا والناقد ، في أنه ينفخ نفسه ويتمدحها .

وقال الناقد :

- إنني أتوق الى مشاهدة حفلة الغد ، فأنا أؤثر أن أقنع نفسي بذلك .

والتفت «روميرو» اليّ في رصانة وجد وقال :

- إنه لا يحب كثيراً طريقتي في اللعب .

وأجاب الناقد أنه يحب طريقته كثيراً ولكنه يجد أنها ، على قوتها ، لم تتكامل بعد .

- انتظر الى غد لترى إن كان لديّ طريقة حسنة .

وسألني الناقد :

- هل رأيت الشيران التي ستظهر في حفلة العيد ؟

- أجل رأيتها وهي تنقل .

وانحنى « روميرو » وسأل :

- ما رأيك فيها ؟

قلت :

- قلت إنها رائعة . يزن الواحد منها حوالي ستة وعشرين (اروبا - ar-

robas) . إن قرونها صغيرة ، هل رأيتها ؟

وقال « روميرو » :

- أوه . أجل .

وقال الناقد :

- ولكن الواحد لا يزن ستة وعشرين (اروبا) .

وقال « روميرو » :

- لا .

وقال الناقد :

- أما القرون... فأحسب أنها تحمل موزاً لا قروناً .

وسأل « روميرو » :

- إنك تسمّي هذه القرون موزاً ؟ (والتفت إليّ مبتسماً) لست أنت الذي

يدعوها موزاً ؟

قلت :

- لا . إنها قرون حقيقية .

وقال « بيدرو روميرو » :

- إنها قصيرة ، قصيرة جداً ، ولكنها ، مع ذلك ليست كالموز .
وهتف «بريت» من الطاولة المجاورة :
- إيه «جاك» ، لقد فررت منا ؟
قلت :

- مؤقتاً ليس غير ، إننا نتحدث عن الثيران .
- يا لك من متعالٍ!
وصاح مايك قائلاً (وكان ثملاً) :
- قل له إن الثيران ليس لها قرون .
ورشقني «روميرو» بنظرة استفهام . وقلت :
borracho, muy borracho أي أنه سكران . سكران جداً .
وقالت «بريت» :

- كان في مقدورك أن تعرفنا على أصدقائك .
وكانت ترامق «بيدرو روميرو» على نحو موصول . وسألتهم إن كانوا
يودّون أن يشربوا القهوة معنا ، فنهضوا جميعاً . وبدأ وجه «روميرو» شديد
السمر ، وكان جمّ الأدب .

وقدّمهم لحلقة جماعتنا ، وتهيأوا للجلوس ، لولا أنه لم يكن ثمّ منفسح
كافٍ من المكان ، فانتقلنا جميعاً الى الطاولة الكبرى القائمة الى جانب
الباب ، لنشرب القهوة . وكان الحديث ، حديث أشخاص سكارى إذ قال
«بيل» :

- قل له إن مهنة الكاتب هي مهنة مقبلة قذرة ، هيّا قل له هذا ، قل له
إنني أخجل من كوني كاتباً .

وكان «بيدرو» جالساً الى جانب «بريت» يصغي اليها .
وقال «بيل» :

- إيه هلاّ قلت له ذلك .

وصعد «روميرو» بعده مبتسماً وقلت :

- إن هذا السيد كاتب .
- وخلفت هذه الكلمات تأثيراً في وجه « روميرو » .
- وقلت وأنا أشير الى « كون » :
- والآخر كاتب أيضاً .
- إنه يشابه « فيلاتا » ، أفلا تجد يا « رفائيل » أنه يشابه « فيلاتا » ؟
- وقال الناقد :
- لا ، لا أرى ذلك .
- وقال « روميرو » بالاسبانية :
- حقاً إنه يشابه « فيلاتا » . وهذا السكران ماذا يعمل ؟
- لاشيء .
- ولهذا السبب فإنه يسكر .
- لا ، إنه ينتظر الوقت الذي يتزوج فيه السيدة .
- وهدر « مايك » صائحاً من طرف الطاولة وقد استبد به السكر :
- قل له إن الثيران عاطلة من القرون .
- ماذا يقول ؟
- إنه سكران .
- وصرخ مايك :
- « جاك » ، قل له أن الثيران ليس لها قرون .
- وقلت :
- أفهمت ؟
- أجل .
- كنت متأكداً من أنه لم يفهم . فلم يكن اذن أي محذور .
- قل له إن « بریت » تود أن تراه وهو يرتدي سرواله الأخضر .
- صه يا « مايك » .
- قل له إن « بریت » تتحرق شوقاً الى رؤيته وهو يلبس سرواله هذا

الأخضر .

- اخرس .

وكان «روميرو أثناء ذلك ، يجسّ كأسه ، ويتحدّث الى «بريت» ، التي كانت تتكلّم الفرنسية ، بينما هو يتكلّم الاسبانية وينطق كلمات يسيرة من الانكليزية . وكان يضحك .

وكان «بيل» يملأ الكؤوس .

- قل له إن «بريت» تود أن تدخل . .

- إيه «مايك» بحق المسيح ، أغلق فمك .

وأخذ «روميرو» ينظر ، مبتسماً وقال :

- (اغلق فمك) ؟ إنني أعرف ماذا تعني هذه الجملة . .

وفي تلك اللحظة ، دخل «مونتويا» الغرفة ، وجعل يبتسم لي حين رأى الى «بيدرو روميرو» حاملاً قدحاً كبيراً من الكونياك ، ضاحكاً ، جالساً بيني وبين امرأة ذات كتفين عاريين ، حول طاولة حافلة بالسكارى . ولم يهزّ رأسه محيياً ، ثم خرج من الغرفة .

ووقف «مايك» مقترحاً بأن نشرب الخمر أنخاباً . وبدأ :

- لنشرب على نخب...

وأتممت :

- على نخب «بيدرو روميرو» .

ونفض الجميع ، وتلقّى «روميرو» ذلك ، بجذ ظاهر . وقرعنا كؤوسنا ثم أفرغناها . وقد جددت في إنهاء ذلك ، لأنّ «مايك» كان يحاول أن يوضح أنه لم يكن هذا هو النخب الذي قصد اليه . وانتهى كل شيء بسلام . وبعد أن صافح «بيدرو روميرو» الجميع ، خرج هو والناقد .

وقالت «بريت» :

- ياإلهي ، ياله من فتى وسيم! أود رؤيته وهو يرتدي ثياب اللعب . ينبغي

أن يستعمل ملابس الحذاء .

وبادر «مايك» الى القول :

- هذا ماكنت أنهياً أن أقوله له ، وفي كل مرة كان «جاك» يقاطعني .

لماذا تقاطعني ؟ أظن أنك تتكلم الاسبانية أحسن مما أتكلّمها!! ؟

- اوه ، كفى يا «مايك» ، لم يقاطعك أحد .

- كلا ، أودّ أن أحسم هذا الأمر (وأشاح بوجهه عني) هل تظن أن لك

أهميّة تذكري يا «كون» ، هل تظن أن مكانك هو بيننا ؟ بين جماعة قدمت الى

هنا لترجي وقتاً طيباً . بالله عليك ، لاتشر إذن صخباً كبيراً يا «كون» .

وقال «كون» :

- إيه ، كفى ، يا «مايك» .

- أظن أن «بريت» حريصة على مشاهدتك هنا ؟ أم تظن أنك تضيف

بوجودك شيئاً ما الى جمعنا ؟ لم لاتقول شيئاً ؟

- لقد قلت كل ماأريد قوله ، في ذلك المساء يا «مايك» .

- لست رجلاً من رجال الفكر . (ونهض «مايك» وهو يترنّح ، ثمّ توكّأ

على الطاولة) ولست ذكياً ولكنني أعرف امرءاً غير مرغوب فيه . لم لا تعرف

حين تكون أنت غير مرغوب فيك يا «كون» ؟ اذهب اذهب ، بحق الاله ،

دعنا من سحتك اليهودية الكئيبة ، ألا تظنون أنني على حق ؟

وكان يحدثنا بنظره . وقلت :

- طبعاً ، هيا بنا نذهب الى مقهى (ايروما) .

- لا ، ألا تجدون أنني على حق ؟ إنني أعشق هذه المرأة .

وقالت «بريت» :

- أوه . لا تعاود ذلك كرة أخرى ، كفى يا «ميشيل» .

- ألا تجد أنني على حق يا «جاك» ؟

كان «كون» لايزال جالساً الى الطاولة ، وأضحى وجهه شاحباً مصفراً

كما يبدو في كل مرة توجه اليه الإهانة ، غير أنه في قسمات وجهه ، كانت

تتراءى سيماء الاستمتاع والرضى . فكأنه كان يلذ ما كان يمليه السكر

والبطولة الصبيانية . فقد كانت مغامراته تلك مع امرأة تحمل لقباً نبيلاً .

وقال «مايك» وكأنه مشفٍ على البكاء :

- «جاك» ، إنك تعلم أنني على حق ، إصغ اليّ (والتفت الى «كون»)

اذهب ، اذهب في الحال .

وقال «كون» :

- ولكنني لست راغباً في الذهاب يا «مايك» .

- إذن سأقسرک على ذلك .

وتهيأ «مايك» لأن يدور حول الطاولة ، ونهض «كون» ونزع نظّارته .

وكان ينتظر ، واقفاً ، صاحب الوجه ، ويدها منخفضتان قليلاً ، مستعداً لتلقي

الهجوم ، في عزم وإباء ، متهيأ للقتال من أجل حب أميرة قلبه .

وأمسكت بـ«مايك» وقلت :

- تعال الى المقهى ، إنك لا تقدر أن تقابله هنا في الفندق .

وقال «مايك» :

- حسناً إنها لفكرة جيدة .

وسرنا . والتفت الى «مايك» الذي كان يسعى مترنحاً بين الكراسي ،

فلمحت «كون» يضع نظّارته على عينيه . ولما جلس «بيل» الى الطاولة ،

سكب في قدحه شيئاً من (الفوندادور) ، أما «بريت» فقد شخص بصرها ،

وهي جالسة ، الى المدى البعيد أمامها . ولما خلصنا الى الساحة الفينا المطر

قد انقطع .

كان القمر يحاول أن يشق ركام الغيوم ، وكانت تهبّ الريح ، وكانت

الموسيقى العسكرية تعزف . .

وتجمع الناس في طرف قصي من الساحة ، حيث وقف رجل خبير

بالألعاب النارية مع ابنه وهما يحاولان إرسال كرات ورقية مضاءة ، الى

الفضاء .

وارتفعت فجأة كرة ، وهي ترتج ثم جنحت الى جانب . لعلّها تمرّقت

بالريح فتهاوت فوق بيوت الساحة . وكان بعض هذه الكرات يتساقط فوق الناس ، وكان المنغزيوم يشتعل والألعاب النارية تنفجر وتتواثب بين الناس ، ولم يعد ثمة أحد يرقص في الساحة فقد أصبحت حصاء الأرض مبتلة جداً .

وأقبلت «بريت» مع «بيل» فانضمّا إلينا ، وجعلنا ننظر الى (دون مانويل اوركيتو) ملك الألعاب النارية ، بين جمهور الناس ، وهو منتصب فوق منصة صغيرة يقذف كراته في عناية واهتمام . وكان قائماً مشرفاً على الجمهور ، مرسلأ كراته في الفضاء ليطوح بها الهواء كلها على الأرض .

وكان وجه «دون اوركيتو» يتراءى منتضحاً بالعرق ، في ضوء الألعاب النارية المعقدة التي كانت تسقط وسط الجمهور ، متدفقة ، متفجرة باصقة بين الأقدام .

وكان الجمهور يهدر كلما تعالت كرة مضاءة ، واشتعلت ثمّ تهاوت . وقال «بيل» :

- نعم إنهم يغنون «دون مانويل» :

وسألت «بريت» :

- وكيف عرفت أنه يدعى «دون مانويل» ؟

- إن اسمه مذكور في البرنامج «دون مانويل اوركيتو» صانع الألعاب النارية البلدي .

وقال «مايك» :

- الكرات المضاءة globos Iluminados «مجموعة من الكرات المضاءة»

هذا هو المذكور في البرنامج .

وكانت الريح تسفي الموسيقى العسكرية .

وقالت «بريت»

- أود أن أرى واحدة من الكرات تصعد ، إن «دون مانويل» لمغضب .

وقال «بيل» :

- لقد جهد على الأرجح طوال أسابيع ليتسنى له أن يؤلف هذه الكلمات :

ليحيَ (سان فرمان) .

وقال «مايك» :

- الكرات المضاءة globos Iluminados ، باقة من الكرات المضاءة الدائمة .

وقالت «بريت» :

- لنذهب لن نبقى هنا .

وقال «مايك» :

- إن سيادتها تريد أن تشرب كأساً .

وقال «بريت» :

- لكم تعرف أشياء جمّة!

- وفي الداخل كان المقهى مزدحماً كثير الجلبة فلم يلح أحد مجيئنا ، واستحال العثور على طاولة خالية ، وكانت تتعالى ضوضاء صاخبة .

وقال «بيل» :

- «تعالوا ، دعنا نخرج من هنا» .

وأخذنا نتنزه في هذا اليوم تحت القناطر ، وكان هناك بعض الانكليز والامريكيين من (بياريتز) وقد ارتدوا ملابس رياضية وتوزّعوا على الطاولات ، وكان بعض النساء يحدّجن المارة بنظارة يدوية . والتقيننا مصادفة بصديقه «بيل» من «بياريتز» وكانت قد نزلت في (الفندق الكبير) مع فتاة أخرى . وكانت هذه قد ألمّ بها صدام فلاذت بغرفتها .

وقال «مايك» :

- هاهي ذي حانة .

وكانت هذه حانة (ميلانو) ، وهي حانة صغيرة خليعة ، في ميسور زبائنها تناول الطعام فيها والرقص في حجرة خلفية .
وجلسنا الى طاولة ، وطلبنا زجاجة (فوندارو) ، ولم يكن ثمة كثير من الناس ، فلم يكن يحدث آنذاك أي شيء .

وقال « بيل » :

- إنه لمكان جهنمي .

- لقد أتينا مبكرين .

وقال « بيل » :

- لنأخذ الزجاجة ، ولنعد فيما بعد . لاؤدّ أن أبقى هنا في ليلة مثل هذه .

وقال « مايك » :

- دعنا نشاهد الانكليز ، إنني أعبد النظر الى الانكليز .

وقال « بيل » :

- إنهم لكريهون ، من أين أتوا كلّهم ؟

وقال « مايك » :

- لقد أتوا من (بياريتز) ، إنهم يقدمون ليروا احتفالات اليوم الأخير من

العيد (الفيسيستا) الاسباني الصغير المشوق .

وقال « بيل » :

- سوف أحشوهم أنا بالفيسيستا .

وقال « مايك » لصديقة « بيل » :

- إنك لرائعة! بصورة خارقة ، متى قدمت الى هنا ؟

كفى يا « ميشيل » .

- أنا لا أمزح ، إنها فاتنة ، أين كنت من قبل ؟ وأين كانت عيناى في هذا

الوقت كلّهُ ؟ إنك لفاتنة! هل تمّ تعارفنا ؟ تعالي معي و« بيل » . سوف نحشو

الانكليز بالفيسيستا .

وقال « بيل » :

- سوف أحشوهم بالعيد (الفيسيستا) ، أي جحيم قذف بهم ليفعلوا في هذا

العيد ؟

وقال « مايك » :

- هيا بنا نحن الثلاثة وحسب ، سوف نحشو هؤلاء الانكليز القذرين

بالفيستا . أتمنى ألا تكوني انكليزية ، أنا اسكتلندي ، وإنني لأكره الانكليز
ولسوف أحشوهم بالفيستا ، هيا بنا يا « بيل » .

ورأينا من النافذة الى هؤلاء الثلاثة ، يد كل منهم في يد الآخر . وكانت
تصعد صواريخ في الساحة . وقالت « بریت » :

- سأبقى أنا هنا .

وقال « كون » :

- سأبقى معك .

- أوه لا ، بحق الإله ، اذهب أنتي شئت ، ألم تر أننا ، أنا وباك ، نرغب

في التحدث سوية!

وقال « كون » :

- لم أكن أعلم ذلك ، كنت أفكر في البقاء هنا لأنني ثمل قليلاً .

- أي سبب هذا يتعلل به للبقاء مع الناس! إن كنت ثملاً قليلاً فإذهب الى

النوم ، هيا اذهب الى النوم .

وسألتنى « بریت » :

- هل كنت قاسية معه ؟ (وكان كون قد مضى) ، رباه ، أنا أشعر معه

بضيق يذويني .

- إنه لا يضيف شيئاً كثيراً الى الجدل والحبور .

- إنه يظنني .

- لقد كان مسلكه سيئاً جداً .

- كان سيئاً ، على نحو لعين ، وكان في ميسوره أن يجعل مسلكه

ملائماً .

- إنه على الأرجح ينتظر خلف الباب .

- بلى ، إن هذا يتلائم مع خلقه . أتعلم أنني أدري جيداً ماذا يشعر ،

ولكن ليس في مكنته أن يعتقد أن كل مايفعل ليس بمجد في شيء .

- أعلم ذلك .

- لا يوجد أحد غيره يمكن أن يكون له مثل ذلك المسلك الزري ، اوه ،
لقد اضنتني كل هذه الأشياء . و« ميشيل » ؟ لقد كان « ميشيل » رائعاً هو
الآخر .

- ولكن ذلك ضايق « ميشيل » على نحو لعين .
- بلى ، ولكن ، ليس هذا مسوغاً يحمله على أن ينهج مسلك الخنزير .
وقلت :
- إنّ الناس ينهجون المسلك السيء وينبغي أن تعطى لهم الفرصة
المناسبة .

- وأنت لا تنهج مسلكاً سيئاً (ورنت اليّ « بریت ») .
وقلت :
- إنني قد أكون حماراً مثل « كون » .
- عزيزي . لا تقل مثل هذه الحماقات .
- حسناً . قل لي ما تودّين أن تقوله .
- لا تكن صعباً ، إنّك الشخص الوحيد الذي آثرته ، أشعر بصداق مؤلم .
هذا المساء .

- لقد آثرت « مايك » .
- أجل « مايك » أرايت كيف كان رائعاً ؟
وقلت :
- لقد ضايقه كثيراً وجود « كون » هنا . ورأيتّه يدور حولك طول الوقت .
- لعلك تحسب أنني لا أعرف ذلك يا عزيزي ، أرجو ألا تسبّب لي مزيداً
من الضيق .

- ولم أرَ « بریت » ، من قبل ، ثائرة الأعصاب كالיום . كانت تتحاشى
النظر اليّ ، وكانت تحدّق الى الحائط أمامها .
- هل لك أن تتمشّى قليلاً ؟
- أجل ، هيا بنا .

وسددت زجاجة (الفوندادور) وأعدناها الى ساقى المشرب .

- لنشرب قدحاً آخر من براندي (الأمونتيلا دو) .

- هيا بنا .

وفيما كنا نخرج بصرت بـ « كون » يبتعد ، تحت القناطر . وقالت
« بريت » :

- لقد كان هنا .

- إنه لا يطيق الإبتعاد عنك .

- يا للشيطان المسكين!

- لست بمتألم له . إنني أكرهه .

- إنني أكرهه أيضاً (وارتجفت) وأكره ألمه اللعين .

ودلفنا الى الشارع الضيق وذراعي في ذراعها ، لتتحاشى الناس وأضواء
الساحة . كان الشارع معتماً ومبللاً . وتابعنا السير في مدى الشارع حتى
شارفنا السور القائم في أقصى المدينة ، ومررنا بحانات كانت أنوارها المنثالة
من الأبواب المشرعة تضيء الى حلك الليل فتنسب على أرض الشارع
المخضلة ، وتعانق نفحات الموسيقى المفاجئة .

- هل تودّين الدخول ؟

- لا .

وتمشينا فوق العشب حتى دانينا جدار السور الحجري . وبسطت جريدة
على الحجر ، وجلست « بريت » فوقها . وكانت الظلمة تسربل السهل ، غير
أننا كنا نستطيع رؤية الجبال . وكانت الريح تهيم في العلاء وتسوق الغيوم
أمام القمر ، وكانت أمامنا ظلمة هذا السور ، وكانت خلفنا الأشجار وظلّ
الكنيسة وطيف المدينة في ضوء القمر .

وقلت :

- لا يأخذك الغم .

- أشعر بضيق جهنمي ، دعنا من الكلام .

كنا نتأمل في السهل ، وكانت صفوف الأشجار الطويلة معتمدة في ضوء القمر . وشعت ، على الطريق التي تتسلق الجبل أنوار سيارة كما رأينا فوق قمة الجبل أضواء القلعة . وفي الأسفل الى اليسار ، كان ينساب النهر طامياً بسبب الأمطار ، ويبدو أسود أملس بينما الأشجار تنتصب قائمة على عدوتي الوادي . ومكثنا ثمة جالسين نتأمل ، وبريت ترسل الطرف في المدى المنبسط أمامها . وارتعشت فجأة .

- الجو قد برد .

- هل تريدان أن نعود ؟

- عبر المنتزه .

وانحدرنا بينما أخذت الغيوم تتراكم وتحجب السماء وفي المنتزه كانت الظلمة داجية تحت الأشجار .

- « جاك » ، ألا تزال تحبني ؟

- قلت :

- أجل .

- وقالت « بريث » :

- أنا امرأة ضائعة .

- كيف ؟

- أنا امرأة ضائعة ، لأنني مجنونة بهذا الفتى الصغير « روميرو » ، أحسب

أنني أحبه .

- لو كنت بدلاً منك ، لحاذرت ذلك .

- لا أستطيع أن أتجنبه ، إنني ضائعة ، أشعر بشيء يمزقني في الداخل .

- إياك أن تفعل شيئا .

- لا أستطيع أن أتجنبه . لم أكن قادرة ، عمري كله ، على تجنب أي

شيء .

- ينبغي أن توقفي ذلك .

- وكيف أستطيع أن أوقفه ؟ ليس في مكنتي أن أوقف وقوع أي شيء .

- إيه... ألا ترى الى يدي ؟

كانت يدها ترتعش ، واستطردت تقول :

- إن كياني كله يرتعش مثلها .

- يجب ألا تفعل ذلك .

- لأملك تجنب ذلك ، إنني ضائعة الآن على أي حال ، أتجد أنت فرقاً ؟

- لا .

- يجب أن أفعل شيئاً ما ، يجب أن أفعل شيئاً ما ، حقاً أريد أن أفعل

شيئاً ما ، لقد أضعت كل احترامي لذاتي .

- ليس هذا بمسوخ لك أن تفعله .

- اوه يا عزيزي ، لاتكن صعباً . أتحسب إنه شيء مستحب أن أرى الى

هذا اليهودي اللعين يدور حولي والى « مايك » يقوم بتصرفاته .

- أدري ذلك .

- أستطيع مع هذا ، أن أبقى سكرى ، دوماً .

- لا .

- اوه يا عزيزي الزم جانبي ، لا تتركني ، أعني على التخلص من هذا

كله .

- بكل سرور .

- لأقول إن هذا جيد ، ولو أنني أجد أنه جيد لي . الله يعلم بأنني لم

أشعر من قبل بمثل هذه الصبابة .

- ماذا تريد أن أفعل ؟

وقالت « بریت » :

- تعال ، لنحاول أن نجده .

واجتزنا معاً الممر المحصّب في عتمة المنتزة تحت الأشجار ، ثم خرجنا

منها وتخطينا باباً كبيراً مضيناً بعده في الشارع المفضي الى المدينة .

وكان «بيدرو روميرو» في المقهى ، جالساً الى طاولة ، مع نفر من مصارعي ثيران آخرين ، ونقاد مصارعة الشيران . وكان الجميع يدخنون السيجار ، ولما دخلنا شخصت أبصارهم إلينا ، وابتسم «روميرو» منحنيًا ، وجلسنا الى طاولة قريبة من وسط الغرفة .

- قل له أن يأتي الى هنا ، ليشرب شيئاً ما .

- ليس الآن ، سيأتي بنفسه .

- لا أستطيع أن أنظر اليه .

وقلت :

- إنه لمن الممتع أن ينظر المرء اليه .

- إنني أفعل دوماً كل ما أريد .

- أدري ذلك .

- أشعر بأنني مقيمة به .

قلت :

- حسناً .

وقالت «بريت» :

- يا إلهي ، أشعر بكل ما يتعين على المرأة أن تبلوه .

- حقاً ؟

- أوه أشعر بأنني مولّهة به .

وانسابت نظراتي عبر الطاولة ، فرأيت «بيدرو روميرو» يبتسم ، ثم

أفضى بشيء الى بقية الجالسين الى طاولته ، ونهض واقترب من طاولتنا ،

ونفضت فتصافحنا .

- هل تود أن تشرب شيئاً ما ؟

وقال :

- ينبغي أن تشربا أنتما معي .

وجلس مستأذناً من «بريت» دون أن ينبس ببنت شفة ، كان مهذباً جم

الأدب ، ولكنه كان يدخن سيجاره ، وكان هذا لائقاً بمحياءه . وسألته :

- أتحب السيكار ؟

- اوه إنني أدخن دوماً السيجار .

كان هذا يؤلف جزءاً من سلطته ، ويجعله يبدو أكبر من عمره . وأنعمت النظر في بشرته . . كانت وضيئة مليسة ظاهرة السمرة ، وكان على وجنتيه ندبة جرح مثثة الشكل . ورأيت يخالس النظر الى «بريت» ، كان يشعر بأن ثمة شيئاً ما بينهما ، لابد أنه شعر به حين صافحته «بريت» بيد أنه كان حذراً . وأحسب أنه كان واثقاً بنفسه ، ولكنه لم يكن يريد أن يتعثر بخطأ ما . وقلت له :

- هل ستشارك في حفلة الغد ؟

وقال :

- أجل لقد جرح اليوم «الغابينو» في (مدريد) ألا تعلم ذلك ؟

وقلت :

- لا ، أكون حالته سيئة ؟

وهز رأسه بالإيجاب .

- لاشيء هنا .

وبسط راحته ، فأمسكت بها «بريت» وباعدت ما بين الأصابع . وقال بالانكليزية :

- أوه ، أنك تقولين الطالع ؟

- أحياناً ، هل ثمة مانع ؟

- كلا ، إنني أود ذلك (وبسط راحته على الطاولة) . قل لي إنني سأعيش دوماً وإنني سأصبح مليونيراً .

وكان ما يزال مهذباً جداً . ولكنه شعر بأنه واثق بنفسه أكثر من ذي قبل ، وأردف :

- انظري ، هل تجددين ثيراناً في راحتي ؟

واغرب في الضحك ، وكانت يده جميلة وقبضته رقيقة . وقالت
«بريت» :

- يوجد ألوف الثيران .

وتبدد توفز أعصابها ، آنذاك وبدت فاتنة .

وقال «روميرو» ضاحكاً :

- حسناً (واستطرد يقول لي بالاسبانية : ثمن كل واحد منها ألف
«دوروس»^(١)) .

- قل لي شيئاً آخر .

- إنها يد جيّدة ، أعتقد بأنه سوف يعيش طويلاً .

وقال «روميرو» :

- قل لي هذا لي ، لا لصديقك .

- قلت سوف تعيش طويلاً .

وقال «روميرو» :

- اعرف ذلك ، إنني لن أموت البتة .

ونقرت على خشب الطاولة بأصابعي ، ولمح «روميرو» ذلك وهز رأسه

وقال :

- لا ، لا تفعل هذه ، إنّ الثيران هي خير صديق لي .

وترجمت ذلك لي «بريت» فسألته :

- أقتل أصدقاءك ؟

- وقال بالانكليزية :

- دوماً (وجعل يضحك) لنلا تقتلني .

وخالسهما النظر عبر الطاولة وقالت :

- إنك تعرف الانكليزية جيداً .

وقال :

- بلى ، أتكلّمها بطلاقة أحياناً ، ولكن ينبغي ألا يعرف أحد ذلك ، فإنه قد يضر كثيراً مصارع ثيران أن يعرف عنه بأنه يتكلّم الانكليزية .

وسألت «بريت» :

- لماذا ؟

- إنه شيء غير مستحب ، لا يرضى الناس عن ذلك ، الآن .

- ولماذا ؟

- إنهم لا يحبّون ذلك ، إذ يفترض أن مصارعي الثيران لا يعرفون ذلك .

وضحك ، وجذب طرف قبعته الى عينيه ، وغيّر من زاوية سيجاره ، وانقلب تعبير ملامح وجهه ، وقال :

- مثل أولئك الجالسين الى الطاولة .

ونظرت اليه ، وكان يقلّد سحنة (ناسيونال) ، ثم ابتسم فوشى وجهه بتعبيره الطبيعي المألوف .

- كلا . يتعيّن أن أنسى الإنكليزية .

وقالت «بريت» :

- لا تنسها ، لما يحن ذلك بعد ؟

- لما يحن ؟

- لا .

- حسناً .

وأنشأ يضحك ، وقالت «بريت» :

- كم أحب أن يكون لي قبة مثل هذه !

- حسناً سوف أجلب لك واحدة .

- حسناً ، لاتنس .

- سأفعل . ونهض «روميرو» فقلت :

- اجلس . سوف أذهب لأبحث عن أصدقائي لآتي بهم الى هنا .

ورشتني بنظرة ، كانت نظرة تستوضحني عما إذا كان ذلك متفقاً عليه ، بل كان كل شيء متفقاً عليه تماماً .

وقالت له «بريت» :

- اجلس ، وعلمني الاسبانية .

وجلس ، ورامقها عبر الطاولة . وخرجت ، وحدق الي الجالسون الى طاولة مصارعي الثيران بعيونهم القاسية : لم يكن ذلك ممتعاً . وحين عدت بعد عشرين دقيقة الى الملهى كان «بيدرو روميرو» و«بريت» قد ذهبا ، وكانت فناجين القهوة والأقداح الفارغة لاتزال على الطاولة ، وقدم نادل وفي يده خرقة فأخذ الأقداح ونظف الطاولة .

الفصل السابع عشر

وأمام حانة (ميلانو) وجدت «بيل» و«مايك» و«ادنا» ، وكان هذا هو اسم الفتاة ، وقالت «ادنا» :

- لقد ألقوا بنا على الباب .

وقال «مايك» :

- بواسطة الشرطة ، ثمة أشخاص في الداخل لا يحبونني .

وقالت «ادنا» :

- لقد حلت دون تعاركهم أربع مرّات ، ينبغي أن تساعدني .

وكان «بيل» محمّر الوجه وقال :

- عودي يا «ادنا» لترقصي مع «مايك» .

وقالت «ادنا» :

- إنها حماقة ، سوف يؤدي ذلك الى عراك جديد .

وقال «مايك» :

- تعال ، إنها على أي حال حانة ، وليس في مقدورهم أن يحتلّوا الحانة كلّها .

وقال «بيل» :

- هذا الصديق الطيّب «مايك» . إنّ هذه الخنازير اللعينة ، هؤلاء الانكليز يقدمون الى هنا ، ليهينوا «مايك» ويحاولوا أن يفسدوا العيد (الفيسّتا) .

وقال «مايك» :

- إنهم قذرون . أنا أبغض الانكليز .

وقال «بيل» :

- ليس في مكنتهم أن يهينوا «مايك» . إن «مايك» إنسان طيب النفس ، ليس في مقدورهم أن يهينوه ، لن أسمح بذلك ، وماذا يهم إذا كان مفلساً لعيناً .

وتهدج صوته .

وقال «مايك» :

- ماذا يهم ؟ هذا لا يهمني . ولا يهم «جاك» وأنت هل يهمك ذلك ؟

وقالت «ادنا» :

- أنا ؟ لا ، أنت مفلس ؟

- طبعاً أنا مفلس . لا يهمك ذلك يا «بيل» أليس كذلك ؟

ووضع «بيل» ذراعه حول كتف «مايك» :

- أود أن أكون مفلساً أيضاً ، وحق الجحيم . سوف أريهم اولاء أولاد

السفاح .

- إنهم ليسوا سوى انكليز . أنا لأهتم بكل مايقوله أي انكليزي .

وقال «بيل» :

- يا لهم من خنازير قذرة! سأذهب لأقذف بهم من الباب .

وقالت «ادنا» :

- «بيل»! (ونظرت الي) أرجوك يا «بيل» ، لاتعد الى هناك ، إنهم

كلهم بُلّه جداً .

- وقال «مايك» :

- إنهم لكذلك . بلى إنهم بُلّه ، كنت أعلم إنهم كذلك .

وقال «بيل» :

- ليس في مكنتهم أن يقولوا شيئاً مماثلاً عن «مايك» .

وسألت «مايك» :

- هل تعرفهم ؟

لا . إنني لم أرهم من قبل ، يقولون إنهم يعرفونني .

وقال «بيل» :

- لا أستطيع أن أتحمّل ذلك .

وقلت :

- تعالوا . هيا بنا الى مقهى (سويزو) .

وقال «بيل» :

- إنهم نفر من أصدقاء «ادنا» في «بياريتز» .

وقالت «ادنا» :

- إنهم بله وحسب .

وقال «بيل» :

- إن واحداً منهم هو «شارلي بلاكمان» من (شيكاغو) .

وقال «مايك» :

- أنا لم أذهب الى (شيكاغو) قط .

واغربت «ادنا» في ضحك موصول ، وقالت :

- خذوني من هنا أيها المفلسون!

واستفهمت من «ادنا» :

- أي نمط من النزاع قد جرى ثمة ؟

الآن ، كنّا نجتاز الساحة متّخذين سمتنا نحو مقهى «سويزو» وكان

«بيل» قد مضى ، وأجابت :

- لست أدري ماذا جرى ، غير أن أحدهم استقدم الشرطة لإخراج

«مايك» من الحجرة الخلفية ، وكان هناك أشخاص يعرفون «مايك» في مدينة

(كان) . ترى ، ماشأن «مايك» معهم ؟

- على الأرجح أنه مدين لهم بمال ، وهذا ما يحمل الناس على أن يكونوا

شرسين دوماً .

وأمام الكشك الذي تحجز فيه بطاقات حفلات مصارعة الثيران ، امتد صفان من الناس في الساحة ، وكان بعضهم ينتظر وهو جالس على الكراسي ، وبعضهم جالس القرفصاء ، بين أغطية وصحف ، والجميع ينتظرون فتح شبابيك البطاقات صباحاً ، لحجز أمكنتهم في حفلات مصارعة الثيران .
كان الليل منيراً والقمر متلألئاً ، وكان بعض الأشخاص من الصقيين قد أخذوا الى النوم .

وماكدنا نتخذ مجلسنا في مقهى (سويزو) حتى أقبل «روبرت كون» ، وكنا قد طلبنا آنذاك ، شيئاً من خمر (الفوندارو) .

وسألني «كون» :

- أين «بريت» ؟

- لأدري .

- لقد كانت معك .

- لا بد أنها مضت الى سريرها لتنام .

- لا .

- لأدري أين هي .

كانت سحنته شاحبة ، وكان هو واقفاً . وقال :

- قل لي أين ؟

- قلت :

- اجلس ، لأدري أين هي .

- ليأخذك الجحيم ، إنك لتدري .

- تستطيع أن تغلق فمك .

- قل لي أين «بريت» ؟

- لن أقول لك كلمة واحدة ولو عرفت .

- إنك تعرف أين هي .

وصرخ «مايك» من طرف الطاولة :

- اذهب الى الجحيم يا «كون» . لقد هربت «بريت» مع مصارع الثيران عتي . لقد سافرا في رحلة شهر العسل .
- اخرس .

وقال «مايك» في إهمال :

- اوه... اذهب الى الجحيم .

- إذن : فهذا صحيح ؟ (والتفت «كون» إليّ) :

- اذهب الى الجحيم .

- لقد كانت معك ، أهي هنا ؟

- اذهب الى الجحيم .

- أستطيع أن أجعلك تتكلم (وتقدّم خطوة) أيها القواد القذر .

وهجمت عليه ، فتجنّبتني ، ورأيت وجهه وقد غمر جزء منه في النور ،
ونكمتني ووقعت قاعداً على الرصيف . وفيما كنت أحاول أن أنهض لكميني
مرتئين فانطرحت على ظهري تحت الطاولة ، وجهدت في أن أقف ولكن ساقَيّ
لم تقويا على القيام ، كنت أعلم أنه كان عليّ أن أنهض وأضربه .

وأعانني «مايك» ، وأراق أحدهم إبريق ماء فوق رأسي ، وأحاطني
«مايك» بذراعه وألفيت نفسي جالساً على كرسي ، وكان «مايك» يشدّني
من أذني : وقال :

- هذا ما أسميه انطراحاً بلا وعي (نوك آوت) .

- وأين كنت أنت ؟

- أوه ، في مكان ما ، هنا .

- ألم تكن تريد أن تتدخل في الأمر ؟

وقالت «ادنا» :

- لقد طرح «مايك» أيضاً .

وقال «مايك» :

- ولكنه لم يطرحني كـ(نوك آوت) فقد انبطحت على الأرض فحسب .
وسألت « ادنا » :

- هل تجري هذه الأشياء ، في كل مساء من عيدكم (الفيسيستا) ؟ أهذا هو
السيّد « كون » ؟

وقلت :

- أشعر بتحسّن ولكن رأسي لا يزال يهوّم .

وتحلّقنا كثير من خدم المقهى وجمهرة من الناس .

وقال « مايك » لهم :

- Vaga ، اذهبوا ، هيّا ، اذهبوا .

وفرق الخدم جمعاً من الناس .

وقالت « ادنا » :

- لقد كان ما حدث حقيقةً بأن يشاهد ، لا بد أنه ملاكم .

- أجل ، إنه ملاكم .

وقالت « أدنا » :

- كنت أتمنى أن يكون « بيل » ، كنت أتمنى أن أراه وهو يطرح « بيل »

على الأرض . كنت أتشوّق دوماً الى رؤية « بيل » مطروحاً بلكمة من أحدهم .
فإنه ضخم جداً .

وقال « مايك » :

- كنت أتمنى أن يكون قد طرح نادلاً ما على الأرض ، ليؤدي ذلك الى

القبض عليه . لكم أرجو أن أرى « روبرت كون » وقد زجّ به في السجن .

وقلت :

- لا .

وقالت « أدنا » :

- اوّه ، لا ، إنك لاتفكّر في ذلك .

وقال « مايك » :

- بلى . لست أنا من الأشخاص الذين يودّون أن يطرحوا على الأرض ،
ولهذا فإنني لا أحاول أيّما رياضة (وشرب «مايك» قدحاً) . أنا لم أتعلّق
بطراد الصيد أبداً ، كما تعلم . إن المرء يتعرّض فيه دوماً الى وقوع الجواد
فوقه ، كيف حالك يا «جاك» ؟
- حسنة .

وقالت «ادنا» لـ«مايك» . :
- إنك لطيف ، أحقّاً أنّك مفلس ؟
وقال «مايك» :

- إنني مفلس هائل ، فأنا مدين للجميع ، ألسنت مدينة لأحد ؟
- بما يزن أطناناً .
وقال «مايك» :

- إنني مدين للجميع ، لقد استدنت مئة (بيزيتة) من (مونتويا) ، هذا
المساء .

وقلت :

- يا لسوء ما فعلت .

وقال «مايك» :

- سوف أعيدها إليه ، إنني أعيد دوماً كل ما أستدينه .

وقالت «ادنا» :

- ولهذا إذن أنت مفلس ، أليس كذلك ؟

ونفضت ، ومثل في وهمي أنهما يتحدّثان من مكان بعيد ، وكأن كل

ماحدث لم يكن سوى مسرحية رديئة ، قلت :

- أنا عائد الى الفندق .

وسمعتهما يتكلّمان عني ، وكانت «ادنا» تسأله :

- تراه في حال حسنة ؟

- من الأفضل أن نراققه .

وقلت :

- إنني في حال جيدة ، لاتذهبا معي ، سأراكما بعد أمد قصير .
وابتعدت عن المقهى ، وكانا جالسين الى الطاولة . وتلفت لأنظر اليهما
والى الطاولات الخالية ، فرأيت نادلاً وقد جلس الى احدى الطاولات واضعاً
رأسه في راحتيه .

وفيما كنت عائداً الى الفندق ، عبر الساحة ، بدا لي كل شيء وكأنه قد
أضحى جديداً متغيراً . . كأنني كنت أرى الى الأشجار ، الى ساريات الأعلام ،
الى واجهة مسرح التمثيل ، لأول مرة . كل شيء بدا لي مختلفاً متبدلاً .
وأحسست بنفس الشعور الذي ألمّ بي ، ذات يوم ، كنت فيه بسبيل العودة
الى بيتي بعد أن كنت قد غادرته الى إحدى البلاد للاشتراك في مباراة كرة
القدم . كنت آنذاك أحمل حقيبة ثيابي الخاصة بلعبة الكرة ، فلمّا اتخذت
سمتي من المحطة وسلكت الشارع المفضي الى المدينة التي عشت فيها
عمري كله ، تراءى لي كل شيء هناك جديداً متبدلاً . كان هناك من يكّدس
الأعشاب ويحرق الأوراق على الطريق ، وظللت ، فترة طويلة ، وأنا أجيل
بصري ، كأن كل شيء يتبدى لي غريباً . وتابعت سيري ، وكأن قدمي
بعيدتان عني . وكان في ميسوري أن أسمع قدمي تسيران من مسافة قصية .
وقد ألمّ بي ذلك كله ، لأنني عند بدء المباراة كنت قد تلقيت ضربة على
رأسي .

مثل هذا شعرت ، فيما كنت أصعد درج الفندق . ودام صعودي الدرج
فترة مديدة جاذبني فيها شعور بأنني لأزال أحمل حقيبتني . ووجدت الغرفة
مضيئة ، وخرج منها « بيل » والتقى بي في الرواق وقال لي :

- اسمع ، اصعد لترى « كون » ، لقد وقع في مأزق ، إنه يريد أن يراك .

- ليذهب الى الجحيم .

- تعال ، هلاً صعدت لتراه .

ولم أكن أريد أن أصعد دوراً آخر ، وقلت :

- لماذا تنظر اليّ هكذا ؟

- إنني لأنظر اليك ، هل لك أن تصعد لترى « كون » إنه في حالة سيئة .
وقلت :

- لقد كنت أنت سكران منذ هنيهة .

وقال « بيل » :

إنني سكران دوماً ، ولكن تعال « لترى » كون . إنه يريد أن يراك .
وقلت :

- حسناً .

وكانت المشقة بالنسبة اليّ لاتعدو صعود مزيد من الدرجات ليس غير .
وصعدت وأنا أحمل شبح الحقيبة في يدي ، ودلفت في الرواق حتّى وصلت الى
غرفة « كون » . كان الباب مغلقاً... وقرعت عليه .

- من أنت ؟

- « بارنس » .

- ادخل يا « جاك » .

وفتحت الباب ودخلت ، ووضعت شبح حقيبتي . لم تكن الغرفة مضيئة ،
وكان « كون » منبطحاً على السرير ، في الظلمة .

- هالو « جاك » .

- لا تدعني « جاك » .

وكنت واقفاً الى جانب الباب ، - وعلى هذا النحو تماماً ، عدت الى بيتي
من المباراة . إن ماأحتاج اليه في هذه اللحظة هو حمام ساخن ، حمام ساخن
عميق . لأستلقي في مائه .

وسألت :

- أين حجرة الحمام ؟

كان « كون » يبكي . كان هناك منبطحاً في فراشه ينشج . وكان مرتدياً
قميصاً أبيض من نوع (بولو) شبيهاً بتلك القمصان التي كان يلبسها في جامعة

(برنستون) .

- آسف . يا « جاك » أرجوك ، اعف عني .

- أعفو عنك ؟ يا اللججيم !

- أرجوك ، أعف عني يا « جاك » .

- ولم أنبس بكلمة ، وظللت واقفاً الى جانب الباب . وقال « كون » :

- لقد كنت مجنوناً ، لا بد أنك ألممت بما كانت عليه حالي .

- اوه ، لا بأس .

- لم يكن في استطاعتي أن أتحمّل ذلك من « بريث » .

- ولكذك وصمتني بأنني قواد .

- وشعرت بأن الأمر عندي سواء ، كنت أريد حماماً ساخناً ، كنت أريد

حماماً ساخناً ذا ماء عميق ، وقال « كون » :

- ادري ذلك ، أرجوك ، لاتذكّرني به ، كنت مجنوناً .

- لا بأس .

- وأنشأ ينتحب ، وكان نحيبه مضحكاً . كان ممدداً هناك على السرير في

الغمة بقميصه الأبيض (البولو) .

- سأرحل صباح الغد .

- وأخذ يبيكي دون صوت .

- لم يكن في استطاعتي أن أتحمّل ذلك من « بريث » ، هذا كل شيء ،

لقد بلوت عذاباً جهنمياً يا « جاك » . كان ذلك الجحيم بعينه حين التقيت

بـ « بريث » هنا في الدور الأرضي . وقد عاملتني كما لو كنت غريباً ، فلم أقو

على ذلك . . لقد عشنا سوياً في (سان سيباستيان) ! أحسب أنك تعرف ذلك ،

لم أستطع أن أتحمّل أكثر من ذلك .

- وكان ممدداً هناك على السرير ، وقلت :

- حسناً ، أنا ذاهب لأستحم .

- لم يكن لديّ سواك كصديق ، وكنت مولهاً بـ « بريث » .

وقلت :

- حسناً ، الى اللقاء .

وقال :

- أعتقد بأنّ ذلك عقيم لانفع فيه ، أعتقد بأنّ ذلك غير مجد البتّة .

- أي شيء ؟

- كل شيء ، أرجوك ، قل لي إنّك صفحت عني يا « جاك » .

وقلت :

- بلى ، أنا بخير .

- لقد بلوت شعوراً رهيباً فكأنني كنت أجوز جحيماً من العذاب ، والآن

لقد انتهى كل شيء ، كل شيء .

وقلت :

- حسناً ، الى اللقاء ، يجب أن أذهب .

وتلوّى ثمّ قعد على حافة سريره ، ونهض .

- الى اللقاء ، يا « جاك » أتريد أن تصافحني ؟ أليس كذلك ؟

- بلى ، ولم لا ؟

وتصافحنا . ولم يكن في ميسوري أن أستجلي وجهه في الظلمة . وقلت :

- حسناً ، سأراك صباح الغد .

- أنا راحل ، صباح الغد .

وقلت :

- أوه ، أجل .

وخرجت ، وكان « كون » واقفاً الى جانب باب غرفته ، وسألني :

- أنت بخير يا « جاك » ؟

- اوه . إنني بخير .

ولم يتأت لي أن أعثر على حجرة الحمام لكنني وجدتتها بعد هنيهة ، وكان

فيها (بانيو) مغطس حجري عميق . وأدرت الصنبور ولكن الماء لم ينصب

منه . وجلست على عرف البيانو ، ونهضت أبتغي الذهاب ، فألفيت أنني نزعته
حذائي . وأخذت ابحت عنهما ، ووجدتهما ، وانتعلتهما ، ووجدت غرفتي
ودخلتها ونضوت ثيابي واضطجعت على السرير .

واستيقظت وأنا أشعر بصداع ، وصك سمعي صوت الفرق الموسيقية التي
كانت تجوز الشارع ، وتذكّرت أنني وعدت (ادنا) صديقة «بيل» بأن
اصطحبها معي لتري الى الشيران وهي تجوز المدينة في طريقها الى الملعب ،
فارتديت ثيابي وانحدرت في الدرج وخرجت لأستقبل منبلج الفجر الرطيب .
وكان ثمة أشخاص يجوزون الساحة مغذّين في السير نحو الملعب ، كما
امتد عبر الساحة صفّان من الناس أمام شبّاك بيع البطاقات . وكانوا بسبيل
انتظار بدء بيع البطاقات في الساعة السابعة . وحثت خطاي لأعبر الشارع
متّجهاً الى المقهى . وهناك قال لي النادل أن أصدقائي قد قدّموا الى هنا ثم
ذهبوا .

– كم كان عددهم ؟

– كانوا رجلين وسيّدة .

كان كل شيء على أحسن حال . فقد كان «بيل» و«مايك» مع «ادنا»
وكانت تخشى ، مساء البارحة ، أن يتعتعها السكر ، ولهذا فقد اتّفقت معها
على أن أغدو لأصطحبها .

وشربت فنجان القهوة . ومضيت الى الملعب مغدّاً في السير ، مثل بقية
الناس .

وألفيت أنني لست كالمترنّح الثمل . كنت أشعر بالصداع فحسب . كان
كل شيء يتراءى لي منيراً باهراً ، وكانت المدينة فاعمة بأريج الصباح الباكر .
أما المسافة التي تفصل طرف المدينة عن الملعب فكانت وحلة ، كما وكان
الناس مزدحمين على طول الحاجز المفضي الى الملعب ، والشرفات الخارجية
في أعلى الملعب غاصة بالناس .

وسمعت صوت الصاروخ ، وألفيت أنه قد لايتسّق لي وقت أصل فيه الى

الملعب لأشاهد دخول الثيران ، فاندسست بين الناس حتى وصلت الى الحاجز . وشعرت بضغط الزحام يهصرني على خشب الحاجز ، كان رجال الشرطة يشقون ممراً بين الحاجزين ، وكان من الناس من يمشي ومنهم من يهرول بخطى موزونة الى الملعب . وأقبل بعضهم راكضاً ، وتزحلق سكران ووقع ، فأمسك به شرطيان ووضعاه في مأمن خلف الحاجز . ثم أضحى ركض الناس سريعاً ، وتعالى صياح شديد من جمهور الناس . وأدخلت رأسي بين قصبتي الحاجز فرأيت في تلك اللحظة الثيران قادمة من الشارع في الممر الطويل وهي تخب مسرعة وتكتسح بعض الجمهور المحتشد . وانفصل من الحاجز ، آنذاك ، سكران آخر وقد أمسك بسترة ، وكان يريد أن يأخذ بمدرجة مصارع الثيران ، حين يحمل الثور على الهجوم بشاله الذي يحركه . وبادره الشرطيان فأمسكا بخناقه وضربه أحدهما بعصاه ثم سحباه الى الحاجز ، وظلاً واقفين ثمة حتى مضى الناس والثيران . وكان ثمة جمهرة كبيرة من الناس تركض في المقدمة أمام الثيران ، مما اضطر الجموع التي كان عددها لا يني يتزايد الى التمهّل ، فيما كانت تجتاز الباب لتدخل الملعب .

وبينما كانت الثيران تدخل وتهزّ قرونها وتخبّ جميعها ، ثقيلة ، وحلة الأطراف ، قفز أحدها الى أمام ، فضرب أحد الراكضين من الناس في ظهره . ورفع بقرنه الى علّ ، فارتدّ رأس الرجل الى خلف ، ويداه منبسطتان الى جانبه ، وقرن الثور منغرز بظهره .

وتركه الثور يتردّى على الأرض بعد أن شاله بقرنه ، وبصر برجل آخر كان يعدو أمامه ، فخفّ اليه . ولكن الرجل توارى بين جموع الناس الذين اجتازوا الباب ، آنذ ، وأضحوا في حلبة الملعب ، والثيران في أعقابهم . وأغلق الباب الأحمر المفضي الى الملعب ، وخفّ الناس الواقفون في الشرفات الخارجية الى الداخل ، ودوى صياح شديد أعقبه صياح آخر . كان الرجل الجريح منبطحاً على بطنه فوق الوحل الموطوء ، وقفز بعض

الأشخاص فوق الحاجز . ولم أستطع أن أرى الجريح لأن جموع الناس الملتفة حوله كانت متراصة .

وكانت تتصاعد من داخل الملعب صيحات ، تعني كل صيحة منها أن ثوراً قد كرز على الجمهور ، وهكذا كان في ميسورك أن تحكم من حدة الصراع على مدى خطر الحادث .

وارتفع الصاروخ مؤذناً بأن الأبقار قد حملت الثيران على الخروج من الملعب وقادتها الى الحظائر (الكورال) .

وغادرت الحاجز ، ومضيت الى طريق المدينة .

وذهبت ، وأنا في طريق العودة ، الى المقهى لأشرب فنجاناً من القهوة ، فشربت القهوة وطعمت خبزاً محمّساً مدهوناً بالزبدة ، وكان خدم المقهى يكنسون وينظفون الطاولات ، وتقدّم أحدهم ليلبي طلبتي وسألني :
- هل حدث شيء ما في Em ci erro^(١) ؟

- لم أشاهد كل شيء ، لقد جرح أحد جرحاً خطراً Cogido^(٢)
- أين ؟

- هنا .

ووضعت يداً على ظهري ، ويدي الأخرى على صدري ، كما لو أن قرن الثور قد انغرز من جانب الى جانب ، وهزّ النادل رأسه ولحس كسرات الخبز على الطاولة بممسحة ، وقال :

- جرح جرحاً خطيراً Cogido ، كل هذا في سبيل الرياضة ، كل هذا من أجل التسلية!

وابتعد ثم عاد بإبريق قهوة ذي مقبضين وإبريق حليب ، وسكب الحليب والقهوة ، وانصبّ من فمي الإبريقين ، دفقتان الى الفئجان الكبير ، وهزّ النادل

(١) الحاجز ، في الاسبانية .

(٢) المجروح بقرون الثور وردت بالاسبانية في نص الأصل .

رأسه وقال :

- جرح جرحاً خطيراً Cogido في الظهر (ووضع الابر يقين على الطاولة وجلس على الكرسي) ضربة قرن شديدة ، كل هذا في سبيل التسلية ، في سبيل التسلية ليس غير ، مارأيك في هذا ؟
- لأدري .

- بلى ، من أجل التسلية ، أتدري معنى ذلك ؟

- ألت من الولوعين Aficionado بمصارعة الثيران ؟

- أنا ؟ ماهي هذه الثيران ؟ إنها حيوانات ، حيوانات ضارية (ونهض ووضع يده على ظهره) ، بلى في الظهر . قرن "Cornada" في الظهر ، من أجل التسلية ، أتدري معنى ذلك ؟

وهز رأسه وابتعد ، ومَرَّ رجلان في الشارع ، فناداهما النادل ، وبدت في معارف وجهيهما سيما التجهم ، وحرك أحدهما رأسه وصاح :
muerto ، لقد مات .

وهز النادل رأسه وابتعد الرجلان ، في مهمة لهما ، واقترب النادل من طاولتي وقال :

- أسمعت ؟ muerto مات ، لقد مات ، طعنة القرن ، كل هذا من أجل التمتع بقليل من التسلية صباحاً ، إنه لشيء مشرق جداً es muy Plamenco .
- إنه محزن .

وقال النادل :

- ليس هذا بمطلبي ، لا ، لأجد تسلية في هذه الأشياء .

وعرفنا فيما بعد ، في ذلك اليوم ، أن الرجل الذي قتله الثور ، يدعى «فيسينني جيرونس» وأنه قد جاء من ضواحي (تافالا) ، وقرأنا في الجريدة في اليوم التالي أن عمره ثمانية وعشرون عاماً ، وأن له مزرعة ، وزوجة وولدين . وأنه كان يأتي ، منذ زواجه ، بصورة منتظمة ، في كل عام ، لحضور العيد (الفيسيستا) وفي ثاني يوم قدّمت زوجته من (تافالا) لتظل الى جانب

جثمانه ، وفي اليوم الذي تلاه ، أقيم له قداس في كنيسة (سان فيرمان) ونقل نعشه الى المحطة أعضاء جمعية الرقص والشرب في (تافالا) ، وكانت الطبول تسير في المقدمة ووراءها تتعالى أنغام المزامير ، وكانت الزوجة والطفلان يسيرون خلف الرجال الذين كانوا يحملون النعش . وسعى وراءهم كل أعضاء جمعيات الرقص والشرب في (بامبيلونه) و(استيلا) و(تافالا) و(سانغويزا) الذين تمكنوا من البقاء لحضور الجنازة ، ووضع النعش في عربة البضائع من القطار واتخذت الأرملة وطفلاها مجلسهم في غرفة مفتوحة من الدرجة الثالثة . وارتج القطار ، ثم ابتعد في هدوء وتمهل ، حتى غاب في حقول القمح التي كانت تموجها الرياح في السهل ، في طريقه الى (تافالا) .

وكان الثور الذي صرع (فيسيني جيرونس) يدعى (بوكانيبرا) وكان يحمل الرقم ١١٨ من مزرعة (سانشير تابيرنو) . وهو الثور الثالث الذي قتله «بيدرو روميرو» في عصر ذلك اليوم . وقد صلمت أذنه فيما كان هتاف الجماهير يتعالى وأعطيت الى «بيدرو روميرو» الذي سلمها بدوره الى «بريت» فلفقتها بمنديل يخصني ، وقد تركت الاذن والمنديل مع عدد من أعقاب سجاير (موراتي) ، داخل درج الطاولة المجاورة لسريرها في فندق (مونتويا) في (بامبيلونه) .

حين عدت الى الفندق ، ألفيت الحارس الليلي ، جالسا على مقعد خلف الباب . كان قد سلخ الليل ثمة ، وكان يهوم من النعاس . وإذ رأي نهض قائما . ودخلت ثلاث خادومات في الوقت نفسه ، فقد كن يشاهدن نقل الثيران الى الملعب في الصباح . وصعدن ضاحكات وتبعتهن الى الدور العلوي . ودخلت غرفتي ونزعت حذائي واستلقيت على سريري .

كانت النافذة مفتوحة على الشرفة وأشعة الشمس تغمر الغرفة ، ولم أكن أشعر بالنعاس ، وكانت الساعة تشارف ، ولا بد ، الثالثة والنصف حين أويت الى فراشي .

وأيقظتني أنغام الموسيقى في الساعة السادسة ، وكان حنكي يؤلمني من
جانبه ، وجسسته بإبهامي وأصابني . يالهذا اللعين « كون » . كأنما كان
عليه أن يضرب شخصاً ما ، لأول إهانة يتلقاها ، ثم يتوارى . لقد كان واثقاً بأن
« بريت » تحبه فاعتزم البقاء ، معتقداً بأن الحب الحقيقي سوف ينتصر على
كل شيء ، وصك سمعي قرع الباب .

- ادخل .

ودخل « بيل » و« مايك » وجلسا على سريري ، وقال « بيل »

- ياله من حاجز ! encierro ! يا له من حاجز ! encierro !

وسأل « مايك » :

وبعد ألم تكن هناك ؟ هلاً كبست زر الجرس يا « بيل » لنشرب شيئاً من

البيرة .

وقال « بيل » :

- ياله من صباح ! (ومسح وجهه) رباه ! ياله من صباح ! ها هو ذا العزيز

« جاك » ها هو ذا عزيزي « جاك » .

- ماذا جرى هناك ؟

وقال « بيل » :

- رباه ماذا جرى يا « مايك » ؟

وقال « مايك » :

- كانت الثيران تخب مسرعة الى الملعب ، وأمامها جمهرة من الناس

وإذا بشخص يسقط ويتعثّر به الجميع .

وقال « بيل » :

- ومرت الثيران فوقهم .

- لقد سمعت صراخهم .

وقال « بيل » :

- كان ذلك صراخ « ادنا » .

- وكان هناك أشخاص لم يكونوا ليفعلوا شيئاً سوى التلويح بقمصانهم .

- وقد قفز ثور فوق صف (الباريرا) وجعل يقذف بالناس ، بضربات

قرنيه ، الى الجانب الثاني .

وقال « مايك » :

- وقد حمل الى المستشفى عشرون شخصاً تقريباً .

وقال « بيل » :

- يا له من صباح ! إن رجال الشرطة اللعينة ، كانوا يوقفون ، في كل

لحظة ، أشخاصاً كانوا يقصدون الثيران كمن يبتغي الانتحار .

وقال « مايك » :

- وأخيراً فإن الأبقار قد أعادت الثيران .

- واقتضى هذا ساعة من الوقت .

وقال « مايك » معترضاً :

- في الواقع ، دام ذلك ربع ساعة .

- اوه اذهب الى الجحيم ، كنت أنت في الحرب ، لقد دام ذلك بالنسبة

الي ساعتين ونصف الساعة .

وسأل « مايك » :

- أين البيرة ؟

- ماذا فعلتما بـ « ادنا » الفاتنة ؟

- لقد رافقناها الى بيتها ، منذ هنيهة ، وقد أوت الى فراشها .

- وهل راقها ذلك ؟

- كثيراً ، وقد ذكرنا لها أن هذا مايجري ، صباح كل يوم .

وقال « مايك » :

- لقد أثر ذلك في نفسها .

وقال « بيل » :

- كانت ترغب اليينا أن نهبط نحن أيضاً الى الملعب ، إنها تعشق الصيال .

وقال «مايك» :

- قلت لها أن هذا قد لايسرّ دائني .

وقال «بيل» :

- ياله من صباح! يالها من ليلة!

وسأل «مايك» :

- كيف حال حنكك ؟

وقلت :

- إنه يؤلمني .

وضحك «بيل» وقال :

- لم لم تضربه بكرسي ؟

وقال «مايك» :

- إن في ميسورك أن تتكلّم ، ولكن ، لو كنت أنت ، آنثذ ، لطوّح بك أيضاً (كنوك آوت) . أمّا أنا فلم أره يلکمني ، وبالأحرى أحسب أنني رأيته عقب تسديده اللكمة اليّ ، والفيتني ، على حين غرة ، قاعداً على أرض الشارع و«جاك» مطروحاً تحت الطاولة .

وسألت :

- الى أين ذهب . بعد ذلك ؟

وقال «مايك» :

- هاهي ذي فتاة البيرة الجميلة .

ووضعت الفتاة الطبق والزجاجات والأقداح على الطاولة ، وقال :

- والآن ، احضري لنا ثلاث زجاجات آخر .

وسألت «بيل» :

- الى أين ذهب «كون» بعد أن ضربني ؟

- كيف ؟ ألا تدري ماذا حدث بعد ذلك ؟

- لا...

وفتح «مايك» الزجاجاة وصبّ البيرة في أحد الأقداح مدانياً ما بين
الزجاجاة والقدرح . وقال «بيل» :
- حقاً ؟

- لقد مضى فالفى «بريت» ومصارع الثيران الفتى ، في غرفة المصارع ،
وحينئذ افترس المصارع المسكين .
- لا ؟

- نعم .

وقال «مايك» : - يالها من ليلة!

- لقد أوشك أن يقتل المصارع المسكين . وأخيراً ، حاول «كون» أن
يعود بـ«بريت» ، كان يريد أن يجعل منها امرأة شريفة ، فيما أتخيل . كان
مشهداً لعيناً مؤثراً .

وشربت جرعة كبيرة من البيرة .

- إنه حمار .

- وماذا جرى بعد ذلك ؟

- لقد أوسعته «بريت» لوماً ، وطلبت إليه أن يذهب ، وحسناً ما فعلت ،
فيما أحسب .

وقال «بيل» :

- هذا ما لأشك فيه .

وانهار عندئذ «كون» وانخرط في البكاء . كان يريد أن يصافح مصارع
الثيران وكان يريد أن يصافح «بريت» .
- اعلم ذلك ، لقد جاء ليصافحني أيضاً .

- أجا ؟ حسناً ، بيد أنه لم يوفق الى شيء معهما . كان مصارع الثيران
جيداً ، لم يكن يقول شيئاً ، بل كان ينهض عقب كل لكمة ، وكانت لكمة

تطوح به على الأرض . لابد أن ذلك كان باعثاً على الضحك .

- ومن الذي روى لك كل هذا ؟

- «بريت» . لقد رأيتها هذا الصباح .

- وماذا تم أخيراً ؟

- يبدو أن صاحبنا مصارع الثيران كان قاعداً على سريريه فقد طوح به أكثر من خمس عشرة مرة على الأرض ، ولكنه لا يفتأ يريد العراك ، وكانت «بريت» تشده وتمنعه من النهوض ، فقد تزايلت قواه . بيد أنه لم يكن في ميسور «بريت» أن تشنيه وتثبته ، فتمكن من الوقوف . ولكن «كون» قال له إنه لن يضربه بعد ذلك ، وإن ذلك مستحيل عليه ، وقال إنه يعد ذلك إثماً وشرّاً . وعندئذ مشى إليه المصارع الفتى ، مترنحاً بعض الشيء ، فراجع «كون» الى الحائط .

- إنك لا تريد أن تضربني إذن...

- لا . إنني أخجل من ذلك .

وحينئذ وجه إليه مصارع الثيران ، بكل ماتبقى لديه من قوى ، لكمة في وجهه ثم وقع قاعداً على الأرض . ولم يستطع أن ينهض - كما ذكرت «بريت» . وأراد «كون» أن يساعده على القيام ويقوده الى السرير ، ولكنه قال لـ «كون» إنه سيقتله إن مسه ، وإنه سيقتله ، على أي حال ، هذا الصباح ، إن لم يغادر «كون» المدينة . وكان «كون» يبكي ، وطلبت إليه بريت أن ينصرف وكان يريد أن يشد على الأيدي مصافحاً ، كما رويت ذلك ، من قبل .

وقال «بيل» :

- اروه ماحدث بعد ذلك .

- كان مصارع الثيران ، فيما يبدو ، قاعداً على الأرض ، وكان ينتظر أن تسعفه قواه لينهض ويهجم على «كون» . إن بريت لاتطبق أن تسمع بقصة مصافحة الأيدي ، وكان «كون» يبكي وقال لها كم هو متيم بها ، فقالت له :

إن عليه ألا يصطنع دور الحمار . وعندئذ انحنى ليصافح صاحبنا مصارع
الثيران ، دون شعور بالضغينة ، كما تعلم - وعفواً عن الاهانات كلها ، وإذ
بالمصارع الفتى يسدّد اليه لكمة على وجهه ، كرة أخرى .

وقال « بيل » :

- إنه لا يزال غلاماً .

وقال « مايك » :

- لقد خذل « كون » مع ذلك ، وأحسب أن « كون » قد برى تماماً من
رغبته في ملاكمة الناس .

- ومتى رأيت « بریت » ؟

- هذا الصباح ، لقد آبت لتأخذ بعض الأشياء . إنها تعنى بالفتى
« روميرو » . وفتح زجاجة أخرى من البيرة ، ثم أردف يقول :

- إن « بریت » ، على الأرجح ، متعبة ، ولكنها تحب أن تعنى
بالمرضى ، هكذا تعارفنا ، كانت تسهر على معالجتى .

وقلت :

- اعلم ذلك .

- إنني ثمل واحسب أنني سأظل ثملاً ، إنها قصة مسلية على نحو
مخيف ، ولكنها ليست مستحبة كثيراً ، ليست مستحبة لي .

وجرع قدح البيرة واستطرد :

- لقد حذرت « بریت » كما تعلم . وقلت لها : إنها إن ظلت تستمرىء

صحبة اليهود ومصارعي الثيران واشخاصاً على هذه الشاكلة ، فإن عليها أن
تتوقع كثيراً من المضايقات ، (وانحنى) ، قل لي يا « جاك » هل يضايقك إن

شربت زجاجة ، سوف تأتي لك الفتاة بزجاجة أخرى . وقلت :

- أرجوك . إنني لن أشربها على أي حال .

وشرع مايك يفتح الزجاجة .

- هل يزعجك أن تفتحها لي .

وكبست على سلك الربط المعدني وفتحتها ثم ملأت قدحه . وأردف «مايك» يقول :

- أتدري لقد أجابت «بريت» جواباً رائعاً ، إن لها أجوبة رائعة ، فقد أخذت أقذف اليهود ومصارعي الشيران واضرابهم قذفاً شنيعاً ، أتدري ماذا ردت عليّ ؟ قالت : لقد بلوت مثل هذا الجحيم من الحياة الهنيئة مع الأرستوقراطيين الانكليز .

وشرب جرعة ، وتابع :

- لا بأس به من جواب ، إن «اشلي» الشخص الذي وهبها لقبه النبيل كان في البحرية ، كان البارون التاسع في أسرته وحين كان يعود الى البيت كان يرفض أن ينام في سرير ، وكان يحمل «بريت» على أن تنام معه على الأرض ، وحين أضحي خطراً حقاً ، جعل يهددها بالقتل . وكان يفني دوماً الى النوم ومسدسه محشو . وكانت «بريت» تنزع منه رصاصاته حين يستبد به النوم . إنها لم تعرف ، في الحق ، الحياة الهنيئة ، ولهذا فإنها تتمتع ، يالأسف اللعين ، بكل شيء ، في عنف .

- سأذهب الى غرفتي . حاول أن تنام قليلاً .

وابتسم...

- إننا نظل أمداً طويلاً بلا نوم في هذه الأعياد ، سوف أستعيض الآن ما فاتني من نوم . إنه لشيء لعين ، ألا يكون في ميسورك أن تنام إنه يجعلك تائر الأعصاب على نحو مخيف .

وقال «بيل» :

- سوف نراك في مقهى (ايرونا) .

وتخطى «مايك» الباب ، وسمعناه وهو يدخل الغرفة المجاورة . ورنَ

الجرس ، وأقبلت الفتاة . ونقرت على الباب ، وقال لها «مايك» :

- احضري لي ست زجاجات بييرة وزجاجة (فونداور) .

- Si, Senorito أجل أيها السيد!

وقال « بيل » :

- أنا ذاهب الى السرير ، ياللعزيز المسكين « مايك » ، لقد حدث ، بسببه ليلة أمس ، قصة لعينة .

- أين ؟ في مقهى (ميلانو) ؟

- أجل فقد كان ثمة شخص كان حمل « بریت » و « مايك » على مغادرة مدينة (كان) لمطالبة « مايك » بدين له عليه ، وكان رجلاً قذراً لعيناً .
- اعلم هذه القصة .

- لم أكن أعرف ذلك ، إذ ليس لإنسان الحق في أن يذكر شيئاً عن « مايك » .

- هذا ما أفسد كل شيء .

- لم يكن لديهم حق كم أود ، ألا يكون لديهم أي حق . أنا ذاهب للنوم . هل صرع أحد في الملعب ؟

- لأظن ، فيما عدا بعض الجراح الخطيرة .

- لقد صرع شخص أمام الملعب ، عند مرور الثيران .

وقال « بيل » :

- حقاً ؟

الفصل الثامن عشر

كنّا جميعاً في المقهى ، ظهراً ، وكان مزدحماً . وأخذنا نأكل (الأريان) ونشرب البيرة ، وكانت المدينة غاصة بالناس . وكانت الشوارع كلها مملوءة ، وجعلت سيارات ضخمة تقدم ، دون انقطاع ، من (بياريتز) و(سان سيباستيان) ثم تقف حول الساحة ، وكانت تنقل الناس لحضور حفلات مصارعة الثيران . وجعلت تقدم أيضاً ، سيارات رحلات . وقد ضمت إحداها خمساً وعشرين انكليزية ، جلسن في السيارات الكبيرة البيضاء ، وهنّ يتطلعن ، من خلال نظاراتهن ، الى مشاهد العيد (الفيسيستا) .

وكان الراقصون جميعاً سكارى ، إذ كان اليوم ، هو الأخير من العيد . وكانت مواكب العيد ، تؤلف كتلة متراصة وثيقة ، بيد أن السيارات الكبيرة وسيارات السياحة ، كانت تفصل منها جزراً صغيرة من المشاهدين .

وكانت الجموع ترتشف من السيارات سائحيها حين كانت تفرغهم ، فلم تكن لتراهم إلا حول طاولة ما ، مرتدين ثيابهم الرياضية ذات الزي الطريف ، بين جمهرة من الفلاحين ذوي السترات السود . كما كانت جموع العيد ترتشف انكليز (بياريتز) حتى أنك لا تكاد تراهم إلا إذا مررت بطاولة ما .

وكانت الموسيقى لا تني تعزف في الشارع ، طوال الوقت ، وكان درداب الطبل لا ينقطع عن الدوي ، وكانت المزامير لاتفتأ تصفر .

وداخل المقاهي ، كانت أيدي الرجال متشبثة بالطاولات . وكانت
أكتافهم لصيقة متلازمة ، وهم يغنون أناشيدهم بأصواتهم الجاسية .
وقال « بيل » :

- ها هي ذي « بریت » .

ونظرت فرأتها تشق طريقها بين الزحام ، في الساحة . كانت تمشي
متلعة الرأس ، وكأن العيد قد أهلّ من أجلها وإكراماً لها .
كانت تجد هذا كله ممتعاً ومسلماً . وقالت :

- هالو ، أيها الرفاق ، كم أنا ظمأى!

وقال « بيل » للنادل :

- إيت بزجاجة بيرة أخرى .

- واربيان ؟

وسألت « بریت » :

- هل سافر « كون » ؟

وقال « بيل » :

- أجل . لقد استأجر سيارة .

وقدّمت البيرة ، وأرادت « بریت » أن ترفع القدر فارتجفت يدها ،
ولمحت ذلك وابتسمت ، وانحنى وارتشفت رشقة طويلة وقالت :

- بيرة جيدة .

قلت :

- جيدة جداً .

وكان القلق قد جاذبني على « مايك » وأحسب أنه لم ينم البتّة ، لا بد أنه
قد سلخ الليل وهو يسكر ، بيد أنه بدا محتفظاً بوعيه واتزانه .

وقالت « بریت » :

- علمت أن « كون » قد جرحك يا « جاك » .

- لا ، لقد طرحني على الأرض (كنوت أوت) فحسب .

- على أي حال ، لم يطرح « بيدرو روميرو » ، (كنوت آوت) بل الحق به أذى بالغاً .
- وكيف حاله ؟
- حاله الى خير ، إنه يأبى أن يغادر غرفته .
- هل تظهر عليه آثار الضرب ؟
- على نحو ظاهر ، فلقد تلقى لكمات قاسية جداً ، لقد قلت له إنني ذاهبة لأرى رفاقي ، هنيهة .
- تراه سيشترك في اللعب ؟
- طبعاً ، سأذهب معكم إن لم يكن لديكم مانع .
- وسأل « مايك » :
- كيف حال صديقك الصغير ؟
- ولم يكن قد وعى كلمة مما قالت « بريت » واستطرد يقول :
- لقد اتخذت « بريت » من مصارع ثيران صديقاً لها ، وكان لها من قبل صديق يهودي يدعى « كون » ولكنه أساء التصرف .
- ونهضت « بريت » وقالت :
- أنا لن أصغي الى هذا النمط من الكلام الرديء يا « ميشيل » .
- كيف حال صديقك الصغير ؟
- في حالة جيدة جداً ، ليس لك إلا أن تشاهده عصر اليوم .
- وقال « مايك » :
- لقد اتخذت « بريت » من مصارع ثيران ، صديقاً لها ، إنه فتى جميل
- قذر من مصارعي الثيران .
- وقالت « بريت » :
- هلاً قمت معي يا « جاك » بجولة صغيرة ؟ أود أن أتحدث اليك .
- وقال « مايك » :
- انفضي له كل ما لديك عن مصارحك ، أوه ، ليأخذ الجحيم مصارحك .

ودفع الطاولة ، وهوت زجاجات البيرة ، وصحن الاربيان ، على الأرض
متحطمة . وقالت «بريت» :

- تعال ، لنخرج من هنا .

وقلت لها ، ونحن نجتاز الساحة الزاخرة بالسابلة :

- كيف حاله ؟

- لن أراه بعد الغداء حتّى يآزف وقت اللعب ، فإن رفاقه سيأتون
لمساعدته على ارتداء ثيابه الخاصة ، لقد أفضى اليّ أن رفاقه غاضبون عليّ .

وكانت تبدو وضيئة المحيا ، سعيدة ، وكانت الشمس تتألق في
السما . وأشرق النهار منيراً ، وقالت «بريت» :

- أشعر بأنني تغيّرت كلّ التغيّر ، إنك لاتدري يا « جاك » كيف تغيّرت .

- هل أستطيع أن أقوم بشيء من أجلك ؟

- لا ، رافقني الى ميدان اللعب فحسب .

- هل سنراك على الغداء ؟

- لا ، سأتغدى معه .

وكنا واقفين تحت القناطر ، قبالة باب الفندق ، وكان الندل ينقلون
الطاولات الى الخارج ويضعون لوازم المائدة .

وسألت «بريت» :

- هل لك أن ندور حول الحديقة العامة ، لأستطيع أن أصعد الآن ، أعتقد
بأنه مايزال نائماً .

وتمشّينا أمام التياترو ، وتركنا الساحة ، ثمّ تابعنا السير ، بين
الدكاكين الخشبية من المعرض وتنقلنا مع جموع الناس حول الخيام
المنضوية ، ووصلنا الى شارع معترض يفضي الى (البازيو دوسارازات) ، وكان
في ميسورنا أن نرى الى الناس يتنزّهون ، ثمّة مرتدين مختلف الأزياء
الشعبية ، وكان هؤلاء المتنزّهون ، ينقلون ، اما شارفوا نهاية الحديقة ، على
أعقابهم .

وقالت «بريت» :

- دعنا من الدخول ههنا ، لأطيق أن يحملق بي أحد الآن .
وكنا واقفين في أشعة الشمس ، وكان الجو قائظاً ممتعاً ، والغيوم تزحف
من البحر ، اثر المطر .

وقالت «بريت» :

- أرجو أن تهدأ الريح ، إنها مضرة به .
- وبى أيضاً .

- لقد ذكر لي أن الثيران جيدة .

- أجل إنها جيّدة .

- أهذه هي كنيسة (سان فيرمان) ؟

ونظرت «بريت» الى جدار الكنيسة الأصغر . وقلت :

- أجل ههنا بدأ الاحتفال بالعيد يوم الأحد .

- لندخل ، أتودّ ذلك ؟ أحب أن أصلي صلاة قصيرة من أجله ، أن أقوم

بشيء ما .

ودخلنا من باب ثقيل جداً ، يدور في يسر ، وكان داخل الكنيسة
ممتلئاً . وكان ثمة أشخاص كثيرون يصلّون ، وكان في ميسورك أن تستجليهم
كلّما ألقت عيناك الضوء الخفيف . وركعنا على أحد المقاعد الخشبية
المستطيلة ، وشعرت ، بعد هنيهة ، أن «بريت» جامدة الى جانبي لاتتحرك .
ورأيتهما تحدّق الى أمام ، وقالت بصوت أجش :

- لنخرج من هنا ، إنّ هذا يهيج أعصابي على نحو لعين .

وفي ألق الشارع الحار ، في الخارج ، رامقت «بريت» الأشجار تجاذبها
الريح ، ولم تكن صلاتها قد عادت عليها بالفائدة المرجوة .

وقالت :

- لا أدري لماذا أشعر بتوتّر أعصابي داخل الكنائس ، إنها لا تخلف في

نفسي أي أثر مريح .

وتابعنا السير ، وأردفت :

- إن الجوّ الديني لا يلائمني ، إنه يخالف نموذج الجمال الذي أصبو إليه .

واستطردت :

- أتدري ؟ إنني لا أشق على نفسي بما يخص « روميرو » . إنني أشعر بسعادة حين أفكر فيه ، ليس غير .
- حسناً .

- ومع ذلك فأنا أتمنى أن تهدأ الرياح وتقر .

- من المحتمل أن تقر حوالي الساعة الخامسة .

- أرجو ذلك .

- في وسعك أن تصلي من أجل ذلك .

وضحكت وقالت :

- لا تنفعني الصلاة في شيء ، إنني لم أنل ، عمري كله ، شيئاً واحداً طلبته في صلاتي . وأنت ؟
- أوه ، أجل .

وقالت « بريت » :

- أوه إنه لهراء ، لعل الصلاة مجدية لدى بعض الناس ، ومع هذا ، فليس لك سيما الرجل المتدين جداً .

- إنني جد متدين .

- أوه إنه لهراء ، لاتشرع في التبشير ، اليوم ، فإنّ النهار بهذا قد يتراخى الى بعض السوء .

وكانت هذه المرة الأولى التي أراها فيها تسيغ ، غافلة ، هناءتها القديمة منذ عشية اليوم الذي رحلت فيه مع « كون » .

وألقينا أنفسنا من جديد ، أمام الفندق ، وكانت الطاولات كلّها آنئذ منضدة وكان أكثرها حافلاً بأشخاص يتناولون الطعام . وقالت « بريت » :

- أرجو أن تعنى بـ «مايك» ولا تدعه يسكر كثيراً .

وقال مدير الخدم الالمانى بالانكليزية :

- لقد سعد رفاقك الى الدور العلوي .

وكان معتاداً على استراق السمع ، والتفتت «بريت» اليه وقالت :

- شكراً جزيلاً . أديك شيء آخر تقوله ؟

- لا ياسيدتي .

وقالت «بريت» :

- حسناً .

وقلت له بالألمانية :

- احجز لنا طاولة لثلاثة أشخاص .

وابتسم ابتسامته الصغيرة القذرة البيضاء الحمراء وقال :

- هل ستتناول السيدة طعامها هنا ؟

وقالت «بريت» :

- لا .

- احسب ، اذن ، أن طاولة لشخصين ستكون كافية .

قالت «بريت» فيما كنا نصعد الدرج :

- لا تكلم «مايك» . لا بد أنه في حالة سيئة .

وصادفنا «مونتويا» على الدرج ، وانحنى دون أن يبتسم ، وقالت

«بريت» :

- سأراك في المقهى ، شكراً جزيلاً لك يا «جاك» .

وتوقفنا في الدور الذي كانت توجد فيه غرفتنا ، ومشيت في الرواق

ودخلت غرفة «روميرو» دون أن تقرر الباب ، فقد فتحته ودخلت ثم

أوصدته .

ومكثت أمام غرفة «مايك» وقرعت الباب . فلم أسمع جواباً ، وحاولت

أن أدير أكرة الباب فانفتح .

كانت الفوضى تشيع داخل الغرفة ، وكانت حقائب السفر كلها مفتوحة ،
والثياب منشورة هنا وهنا ، وكان الى جانب السرير ، زجاجات فارغة ، وكان
وجه «مايك» يماثل ، وهو مضطجع على السرير ، قناع وجه ميّت أخذ عن
وجهه . وفتح «مايك» عينيه ونظر اليّ وقال في بطة :

- هالو «جاك» إنني أنام قليلاً ، فقد مضى زمن طويل وأنا أرغب في...
النوم... قليلاً .

- دعني أغطّك .

- لا... إني أ... شعر بالد... ف . لا تذهب... إنني... لم... أتهيأ... بعد...

للنو... م .

- ستنام يا «مايك» . لا تحزن ، يا عزيزي . .

وقال «مايك» :

- لقد استأثرت «بريت» بمصارع الثيران ، أما يهوديها فقد ولّى

الأدبار . واستدار رأسه نحوي ونظر اليّ وقال :

- إنه لشيء لعين ، أليس كذلك ؟

- أجل . والآن نم يا «مايك» . ينبغي أن تنام .

- إنني أستعد للنو...م ، اللحظة ، سأ...نام... قد... ليلاً .

وأغمض عينيه . وخرجت من الغرفة ، وأوصدت الباب ، في هدوء ، وكان

«بيل» في غرفتي يطالع صحيفة . وقلت له :

- هل رأيت «مايك» ؟

- أجل .

- هيا بنا تتغدى .

- لا ، أود أن أتغدى في مطعم الدور الأرضي ، حيث يخدم مدير الخدم

الألماني ، فقد كان ذا وقاحة لعينة فيما كنت أساعد «مايك» على الصعود .

- لقد كان وقحاً معنا أيضاً .

- لنذهب الى المدينة ، لنتناول الطعام هناك .

ونزلنا ، وصادفنا على الدرج خادماً تصعد حاملة صينية مغطاة وقال
« بيل » :

- هذا طعام غداء « بریت » .

وقلت :

- وقتها .

وفي الخارج ، على السطّيحة القائمة تحت القناطر ، تقدّم منا مدير
الخدم الألماني وكان خذاه الأحمران يلتمعان ، وبدا مهذباً :

- لديّ طاولة لكليكما ياسيدي .

وقال له « بيل » :

- اذهب أنت واجلس إليها .

واجتزنا الشارع...

وتغدينا في مطعم قائم في أحد الشوارع الصغيرة المفضية الى الساحة ،
ولم يكن في المطعم من يأكل سوى رجال . وكان الجميع يدخنون ويشربون
وينشدون .

كان الطعام جيداً وكذلك كانت الخمر ، ولم نتحدّث كثيراً ، ثم مضينا الى
المقهى وتمليّنا مباحج العيد (الفبيستا) وقد داني حد الغليان .

ولحقت بنا « بریت » بعد الغداء وذكرت لنا أنها ألقت نظرة داخل الغرفة
فرأت « مايك » نائماً .

وحين انتحى العيد (الفبيستا) صوب ملعب مصارعة الثيران ، بالغاً ذروة
غليانه ، مشينا مع جمهرة الناس .

وجلست « بریت » في الصف الأول ، بيني وبين « بيل » . وكان يمتد
أمامنا الى الأسفل ، الممر (Callejon)^(١) القائم بين المصاطب وحاجز
(الباريرا) الأحمر رمل الملعب ، دقيقاً مليساً أصفر ، وكان يبدو ثقيلاً بعض

(١) وردت بالاسبانية في الأصل ومعناها : الممر الضيق .

الشيء ، إثر المطر ، بيد أنه أضحى ، في أشعة الشمس ، جافاً صلباً أملس .
وكان حاملو السيوف ، وخدم الملعب ، قد وصلوا الى الممر الضيق
يحملون على عواتقهم سلالاً خيزرانية ملأى بشالات اللعب وشالات
(الموليتا)^(١) (Muleta) . وكانت صبيغة بالدم ، مكومة ، مطوية ، مصرورة في
السلال .

وفتح حاملو السيوف الصناديق الجلدية الثقيلة ، وتألفت المقابض
المخضبة بالحمرة ، مقابض حزمة السيوف ، حين أمالوا الصناديق على
الحاجز ، ثم نشروا الشالات (الموليتا) المنسوجة من الفانيلا الحمراء القانية
الملطخة ببقع قاتمة ، وأثبتوا فيها عصياً تبسطها وتتيح للمصارع
(الماتادور)^(٢) أن يتمسك بشيء ما .
وكانت «بريت» تراعي ذلك كله بنظراتها . وقد استغرق اهتمامها
تفاصيل اللعب وأصوله ، وقالت :

- إن اسمه مكتوب على الشالات والشالات (الموليتا) كلها ، لماذا
سميت موليتا Muleta ؟
- لا أدري .

اتساءل عما إذا كانوا يغسلونها أحياناً .
- أحسب أنها لا تغسل ، لأن غسلها يذهب بلونها .
وقال «بيل» :
- إن الدم يجعلها ولاريب قاسية .
وقالت «بريت» :

- يا للسخرية ، كيف أضحى الانسان ، لا يكرثه الدم .
كان حاملو السيوف ، يعدّون كل شيء ، في الممر الضيق تحت . وكانت

(١) وردت بالاسبانية في الأصل ومعناها : الشال الأحمر المثلث الشكل الذي يهيج به المصارع ثوره في نهاية
اللعب . (المعرب)

(٢) الماتادور Matador الذي يلاعب الثور ثم يقتله في النهاية . (المعرب)

المحلات كلها قد امتلأت ، وفي الأعلى كانت الألواح قد غصت بالنظارة ، ولم يكن ثمة محل فارغ . ووقف عبر الرمل المليس ، تحت القبة العالية المفضية الى (الكورال) - وقف مصارعو الثيران ، وقد التفت شالاتهم على سواعدهم وهم يتحدثون فيما بينهم ، وينتظرون الإشارة ليقوموا باستعراضهم في الملعب ، وكانت «بريت» ترقبهم بالمنظار المكبر وقالت :
- هل تود أن تنظر بالمنظار ؟

ورأيت بالمنظار ثلاثة مصارعين (ماتادور) ، يتوسطهم «روميرو» وكان «بيلمونتي» عن شماله ، و«مارسيال» الى يمينه ، ووقف خلفهم جماعتهم ، يليهم حاملو الأعلام (Banderilleros) . ورأيت في نهاية الممر عند مدخل (الكورال) ، فرسان (البيكادور Picador)^(١) . كان «روميرو» يرتدي رداءً أسود ، وكانت قبّعة المثلثة منخفضة الى عينيه ، ولم أستطع أن أتيّن وجهه تحت القبعة في وضوح . ولكنه بدا لي ذا قسمات كدرة نكدة سيئة للغاية . وكان يصوب بصره مستقيماً الى أمامه .

وكان «مارسيال» يدخن سيكارة في خدر وتحرز وظلّ محتفظاً بها في يده .

وكان «بيلمونتي» ينظر الى أمام ، وكان وجهه مصفراً شاحباً ، وكان حنكه الطويل كحنك الذئب ، بارزاً ، كما كان بصره شاخصاً الى المدى البعيد . ولم يكن هو ولا «روميرو» يبدوان أنهما يشاركان الباقيين في شيء ، لقد كان كلّ منهما منفرداً بنفسه .

ودخل الرئيس ، ودوى تصفيق حاد في المنصة الكبيرة ، فوقفنا ، وناولت «بريت» المنظار ، واستمرّ التصفيق ، وشرعت الموسيقى تعزف ، وكانت «بريت» تنظر بالمنظار ، وقالت :
- خذ وانظر .

(١) البيكادور : الفارس الذي يهيج الثور وهو يغرز الحربة بين كتفيه .

ورأيت بالمنظار ، « بيلمونتي » يتحدث الى « روميرو » . واستقام
« مارسيل » ورمى بسيكارتته ، وشرع المصارعون (الماتادور) الثلاثة في
السير وأبصارهم مسددة الى أمام ، ورؤوسهم متلعة ، وهم يراوحن أذرعهم
الخالية . وأتى ، خلفهم ، موكب العرض كله مفتتحاً الحفلة . وكان كل واحد
من الموكب يسير بخطى وسيعة ، وقد لفّ شاله على يده وجعل يراوح باليد
الخالية ، ومشى في أعقابهم الفرسان (البيكادور) وحرابهم مرفوعة الى العلاء
كأنها الرماح . وسعى خلف هذا كله صفان من البغال المقرونة وخدم الملعب ،
ووقف المصارعون أمام منصة الرئاسة ، وانحنوا ، وقبعاتهم على رؤوسهم
مؤذين التحية . ثم اقتربوا من صف (الباريرا) ، تحتنا .

ونزع « بيدرو روميرو » شاله الثقيل الموشى بالذهب ، وناولوه من خلال
الحواجز حامل سيوفه وأفضى اليه بشيء .

وأضحى في ميسورنا حين اقترب منا أن نستبين شفثيه المتورمتين وعينييه
الكدرتين ، وكان وجهه مهيجاً^(١) منكفى اللون . وأمسك حامل السيوف
بالشال ، وشخص ببصره الى « بریت » ودنا منا ، وقدم اليها الشال ، وقلت لها :
- انشريه أمامك .

وانحنت « بریت » ، وكان الشال ثقيلاً أملس موشى بالذهب . واستدار
حامل السيوف ، وهز رأسه وتمتم شيئاً ، وانحنى رجل جالس الى جانبي وقال
- « بریت » :

- إنه يود ألا تنشريه بل أن تطويه وتضعيه على ركبتك .

وطوت « بریت » الشال الثقيل .

ولم ينظر « روميرو » الينا قط ، كان يتحدث الى « بيلمونتي » . وناول
« بيلمونتي » شاله الرسمي بعض رفاقه ، ونظر اليهم وابتسم لهم ابتسامته
الذئبية التي لم تكن تتجاوز فمه .

وانحنى « روميرو » فوق صف (الباريرا) يطلب جرعة ماء ، وجلب له حامل السيوف جرة . وصب « روميرو » منها الماء على طرف الشال ، وفرك بقدمه المنتعلة سندلاً ، طيات طرف شاله السفلي ، في الرمل .

وسألت « بریت » :

- لماذا يفعل ذلك ؟

- ليهبه مزيداً من الثقل ، عند مهب الريح .

وقال « بيل » :

- إن وجهه يبدو مهيجاً .

وقالت « بریت » :

- إنه في حال غير جيدة ، كان عليه أن يلزم سريره .

وكان الثور الأول من نصيب « بيلمونتي » ولعب « بيلمونتي » جيداً ، ولكن بسبب أنه ربح ثلاثين ألف بيزيته أجرة لعبة ، وأن الناس سلخوا الليل في رتل انتظار طويل ، لشراء بطاقات حضور حفلته ، فإن الجمهور كان يتطلب من « بيلمونتي » أن يلعب على نحو أكمل وأجود .

إن مميزات « بيلمونتي » هي أن يلعب على مقربة دانية من الثور . ففي فن مصارعة الثيران ، يتحدث العارفون عن أرض الثور وأرض مصارع الثيران ، ومادام مصارع الثيران باقياً في أرضه الخاصة به فهو في مأمن نسبياً . فإذا مادخل أرض الثور فإن خطراً كبيراً يتهدهه .

وقد كان « بيلمونتي » يلعب دوماً في أيامه المأثورة ، في أرض الثور ، وبهذا كان يهيج الشعور بالمأساة الجاثمة القادمة . وكان الناس يذهبون الى ملعب مصارعة الثيران ليشاهدوا « بيلمونتي » ويشير في نفوسهم الشعور بالمأساة . ولعلهم كانوا يذهبون ليروا مصرع « بيلمونتي » ، فقد كان يقال منذ خمسة عشر عاماً : إن كنت تود مشاهدة « بيلمونتي » فعليك أن تتعجل ذلك ، ما دام لا يزال حياً . ومنذ ذلك الوقت ، اتسق له أن يقتل أكثر من ألف ثور . ولما اعتزل اللعب أمداً ، ضخمت الأسطورة أسلوبه الرائع في مصارعة الثيران . غير أن أمل الجمهور

فيه خاب بعد عودته من اعتزاله . وفي الحق ، لا يوجد أي مصارع يستطيع أن يلعب في مسافة ضيقة تفصله عن الثور كالمسافة التي زعموا أن « بيلمونتي » كان يلعب فيها ، والتي لا يقدر « بيلمونتي » ولا غيره طبعاً أن يلعب فيها .

أضف الى ذلك كله أن « بيلمونتي » وضع شروطه في اللعب ، فقد اشترط أن تكون ثيرانه لاضخمة كل الضخامة ولا مسلحة بقرون كبيرة خطيرة . وبهذا فإن العنصر الأساسي لخلق شعور بالمأساة اضحى مفقوداً . كما أن الجمهور الذي يتطلب من « بيلمونتي » - المصاب في ذلك الوقت ، بناسور - مجهوداً أضاعف ما كان في ميسوره القيام به - أصبح يشعر بأنه قد سرق وخدع .

وجعل الإحتقار الذي قوبل به « بيلمونتي » فكّه أكثر بروزاً ، وأضحى وجهه أكثر اصفراراً ، وأخذ يتحرك في مشقة تتزايد كلما ازدادت آلامه .

وأخيراً أفصح الجمهور في عنف عن عدائه ، بيد أن « بيلمونتي » اعتصم بالإزدراء واللامبالاة الى أبعد حد ، لقد كان يأمل عصراً مجيداً ، ولكنه لقي منه عصر يوم مليء استهزاءً وسباباً . وختم بوابل من الوسائد وقطع الخبز والخضر التي كانت تقذف على ساحة الملعب التي شهدت أمجد انتصاراته . وأخذ حنكه يشتد في البروز ، وكان يتلفت ، إما سلك سمعه شتيمة قاسية ليبتسم ابتسامته التي لاشفاء لها ، ابتسامة أسنان وحنك ليس غير . وجعل ألمه الذي كان يشعر به إثر كل حركة يقوم بها ينمو شيئاً فشيئاً ، حتى انكفاً وجهه المصفر الى لون الرق .

ولمّا صرع « بيلمونتي » الثور الثاني ، وانقطع عنه وابل الخبز والوسائد ، وحيا الرئيس بابتسامته الذئبية ، وعينيه المزدريتين ، وحمل سيفه ، وأمره من حاجز (الباريرا) ليمسح ويوضع في صندوقه - دخل الممر الضيق واستند الى حاجز (الباريرا) تحتنا ووضع رأسه بين راحتيه ، دون أن يرفع بصره الى شيء أو يستمع الى شيء ، مستسلماً كل الاستسلام الى آلامه الممضنة . وحين صعد طرفه بعد ذلك طلب كأس ماء وارتشف منه رشفة ، ومضمض الماء في فمه ، وبصقه ثم تناول شاله وعاد الى الملعب .

على أن هذا الجمهور الذي أبدى عداؤه لـ «بيلمونتي» انحاز الى «روميرو» فمئذ اللحظة التي غادر فيها «روميرو» صف (الباريرا) ، ليقترّب من الثور استقبله الجمهور بالتصفيق ، وكان «بيلمونتي» يرقب «روميرو» ويوالي النظر اليه دون أن يتظاهر بذلك ، ولم يكن ليهتم بـ «مارسيال» فقد كان يعرف «مارسيال» حق المعرفة . لقد عاد الى اللعب بعد أن اعتزله لينافس «مارسيال» وغيره من نجوم مصارعي الثيران المضمحلّين ، وكان واثقاً بأن إخلاصه في فنه الشخصي سوف يؤتي أكله من التقدير ، ويلحظ سموّه على الفن المزيّف ، فمن مصارعي الثيران المضمحلّين بمجرد ظهوره على الملعب . بيد أن ظهور «روميرو» قد أفسد عودته الى اللعب بعد أن اعتزله .

وكان «روميرو» يلعب في هدوء وليان وروعة لعباً لم يعد في ميسور «بيلمونتي» القيام به إلا غراراً ، وشعر الجمهور بذلك . حتّى أولئك الذين قدموا من (بياريتز) وحتّى السفير الامريكي نفسه أخيراً .

كانت تلك منافسة لم يشأ «بيلمونتي» دخولها . لأنها لايمكن أن تؤدّي إلا الى خطر الجرح بقرن الثور ، أو الى الموت .

ولم يعد «بيلمونتي» في حال جيدة مواتية . ولم يعد ملعب مصارعة الثيران ينفسح لعهوده المجيدة الماضية ، لابل إنه ليشك ، الآن ، في أن عهوداً مجيدة كانت له . وهكذا لم تعد الأشياء كسالف عهدها ، وأصبحت الحياة ، الآن ، مجرد ومضات .

ولقد اذخر «بيلمونتي» ومضات من عظمته القديمة أمام الثيران ، ولكن هذه الومضات خبت وغدت عاطلة عن القيمة ، حين نحاها مسبقاً ، يوم خرج من سيّارته وأنعم النظر ، وهو مستند الى الحاجز ، في قطع صديقه مربّى الثيران ، لينتقي منها ثيراناً يأمن منها . فانتخب ثورين صغيرين مروّضين ذوي قرون ليست بكبيرة . وقد شعر بالعظمة تعود اليه ، بقدر ضئيل ليس غير ، من خلال أوجاعه التي تلازمه دوماً . فقد كانت عظمته مقلقلة

مبيعة مسبقاً ، عظمة لم تزج الى نفسه أية متعة . بلى ، كان ثمة عظمة ولكنها لم تعد تجعل من فن مصارعة الثيران لديه أية باهرة .

أما «بيدرو روميرو» فقد كان يملك هذه العظمة ، كان يعشق مصارعة الثيران ، وأحسب أنه كان يعشق الثيران كما كان يعشق «بريت» .

وأقام أمام «بريت» بكل ما في مقدوره أن يقوم به ، عصر ذلك اليوم ، دون أن يرفع إليها نظره ، مرة واحدة . وكان هذا أدعى الى القوة ؛ كأن يلعب من أجل ذاته ومن أجلها أيضاً . ولأنه لم يطمح ببصره اليها ليستأثر باستحسانها ، فإن كل ما قام به كان صادراً من داخل ذاته ، من أجل نفسه ، وقد رفده هذا بالقوة . فجعل يلعب من أجلها أيضاً ، ولكنه لم يلعب من أجل إرضائها على حساب ضرر يصيبه ، فقد أفاد منه كل الإفادة ، طوال عصر ذلك اليوم .

وقد تمت له أول جولة تحت أبصارنا تماماً ، واشغل المصارعون (الماتادور) الثلاثة الواحد منهم تلو الآخر ، الثور عقيب كل هجوم قام به نحو الفارس (البيكادور) . وكان «بيلمونتي» الأول ، وتلاه «مارسيال» وأتى «روميرو» أخيراً ، وكان الثلاثة كلهم يقفون الى يسار الجواد . وتهياً الفارس (البيكادور) ، مرخياً قبعته الى عينيهِ ، وحربته ذات الزاوية الحادة مسددة الى الثور ، ومهمازه على خصري جواده ، والزمّام في يده اليسرى ثم أجلب على الثور بجواده . وكان الثور يراقبه ، وبدا عليه أنه كان يراقب الجواد وفي الواقع كان يراقب رأس الحربة الفولاذي المثلث . وكان «روميرو» يلاحظ الثور ، ورأى اليه وهو يستدير برأسه كأنه لم يكن يبغى الهجوم . ونشر «روميرو» شاله ، ليصافح لونه بصر الثور ، وهجم الثور ، كردّ فعل . هجم ، ولكنه ، بدلاً من أن يلقي خفقة اللون في الشال ، وجد أمامه الجواد الأبيض ، وانحنى الفارس فوق صهوة جواده وطعن برأس الحربة الفولاذي ذات المقبض الجوزي الطويل - طعن عضلة كتف الثور ، وأبعد جواده ، دائراً حول حربته ، كأنها محور له ، غارزاً رأسها الفولاذي في كتف الثور ، محدثاً جرحاً كبيراً ، جعل ينزف دمًا ، ليدع الثور الجريح يصارع «بيلمونتي» .

ولم يصبر الثور على ألم الحربة ، وفي الواقع لم يكن يريد الهجوم على الجواد ، واستدار ، وتفرّق الجمع ، فاستقل به «روميرو» مع شاله . وكان يقوده في هدوء وليان ، ثم توقف منتصباً قبالة ، وبسط له شاله . ورفع الثور ذيله ثم هجم ، وحرك «روميرو» ساعديه أمام الثور ، ودار ثابتاً على قدميه . وانتشر الشال رطباً ، مثقلاً بالوحل ، وامتلأ كالشراع ، ودار به «روميرو» أمام الثور تماماً . وفي نهاية هذه الحركة ، أضحيا من جديد متقابلين وجهاً لوجه ، وكان «روميرو» يبتسم... وهجم الثور كرة أخرى : وتعباً شال «روميرو» أيضاً ، ولكن من الجانب الآخر .

وكان يدع الثور في كل مرة ، يمرّ قريباً منه ، الى درجة أنه كانت تتألف من المصارع والثور والشال الذي كان يمتلىء ويدور حول الثور ، كتلة واحدة ذات نطاق حاد .

وكان اللعب يدور في هدوء وتحكم ، كما كان من الدقة بحيث كان المصارع وكأنه كان يهدد الثور ليرقده .

وقام «روميرو» بأربع حركات (فيرونيكا) وأنهاها بنصف حركة (فيرونيكا) جعلت ظهره مستديراً الى الثور ، وحينئذ تقدم ويده على خصره وشاله على ذراعه ، بينما كان الثور ينظر الى ظهر «روميرو» يبتعد ليستقبل هتاف النظارة . وكان «روميرو» عارفاً بشيرانه الخاصة به الى حد يشارف الكمال ، وكان ثوره الأول لا يرى جيداً ، فبعد حركتي الإمرار الأوليين من شاله رأى «روميرو» الى عواقب هذا العيب البصري ، ولعب على هذا الإحساس ، ولم يكن لعبه متألّفاً بل كان كاملاً ليس غير ، وكان الجمهور يود أن يستبدل بالثور غيره . واحتج على ذلك بضوضاء صاخبة ، إذ لم يكن يؤمل أي روعة في اللعب مع ثور لا يرى لون الشال وحركته ولكن الرئيس لم يشأ أن يغيّر الثور .

وسألت «بريت» :

- لم لا يغيّرون ثوره ؟

- لقد دفعوا ثمنه ، فلا يريدون أن يخسروا مالهم .

- ليس في هذا عدل ولا نصفه لـ «روميرو» .

- شاهدي كيف ينهج في لعبه مع ثور لا يرى اللون .

- لا أحب أن أرى شيئاً من هذا القبيل .

- ليس ذلك مستحباً أن تشاهد ما يقوم به شخص أثير لديك .

وكان على «روميرو» في لعبه مع ثور لا يستطيع أن يرى لون الشال أو لون شال (الموليتا) ذي الفانيلا الزاهية ، أن يعرض جسده للثور ، وكان عليه أن يدنوا منه أشد الدنو ، حتى يرى الثور شخصه فيهجم عليه ، وكان عليه وهو يواجه الثور الى الشال (الموليتا) الأحمر أن ينهي الحركة ، وفقاً للأسلوب الكلاسيكي في اللعب . ولم يكن جمهور «بياريتز» يحب هذا النهج ، فظن أن «روميرو» خائف من الثور وهو يرى اليه يقفز قفزة صغيرة كلما نقل هجوم الثور عليه من جسمه الى فانيلا الشال ، وكانوا يؤثرون تقليد «بيلمونتي» لنفسه ، أو تقليد «مارسيال» لـ «بيلمونتي» ، وكان بعض من هذا الجمهور جالساً في الصف خلفنا ، وسمعت :

- لماذا يخاف من الثور ؟ إن هو إلا بهيمة تريد قطعة قماش ليس غير!

- أحسب أنه كان رائعاً مع شاله منذ هنيهة .

- إنه ، على الأرجح ، هائج الأعصاب الآن .

وهناك ، في بهرة الملعب ، كان «روميرو» وحده ، يتابع نهجه هذا . وكان يقترب أشد الإقتراب من الثور حتى يتسنى له أن يراه تماماً ، وكان يعرض له جسمه ويدانيه شيئاً فشيئاً ، وكان الثور ينظر اليه نظرة كامدة وهو يقترب منه مسافة ضئيلة ، يظن معها الثور أن في وسعه أن يناله ، ثم عاود تعريض جسمه مثيراً هجوم الثور عليه .

وفي اللحظة التي كان فيها القرنان مقبلين عليه ، بسط للثور الشال الأحمر ، قافزاً تلك القفزة الصغيرة التي لاتكاد تلحظ ، تلك القفزة التي لم تكن تروق نقاد فن مصارعة الثيران من (بياريتز) .

وقلت لـ «بريت» :

- سيورده الآن مورد حخته . فالثور لا يزال وثيق القوى ولم يشأ أن يناله التعب .
وفي وسط الساحة جابه « روميرو » الثور ، سائلاً سيفه من ثنيات شال
(الموليتا) . وتناول على طرفي قدميه ، وحذر نظره الى ظبة السيف ، وهجم
الثور لحظة هجم « روميرو » .

ورمت يد « روميرو » اليسرى بشال (الموليتا) فوق خطم الثور ليحجب
بصره ، وتقدمت كتفه اليسرى الى مابين القرنين ، فيما كان السيف ينغرز ،
وأضحى الرجل والثور ، وفي لحظة خاطفة ، كلاً واحداً .

وكان « روميرو » منحنيًا ، وانبسط ساعده الأيمن عالياً فوق مقبض
السيف المغروز بين كتفي الثور . وتلاشى المشهد ، فقد تملص « روميرو »
بقفزة صغيرة ، وانتصب واقفاً ، بعد هنيهة ووجهه الى الثور ، ويده مرفوعة الى
العلاء ، وقميصه مشقوق تحت الكم ، والقماش الأبيض يخفق في الريح .
وخفض الثور رأسه ، مستمسكاً على قوائمه ، والسيف الأحمر مغروز ما
بين كتفيه ، وقال « بيل » :

- إنه يتهاوى .

وكان « روميرو » واقفاً على مسافة قريبة تمكن الثور من رؤيته . وكان
يتحدث الى الثور ، ويده مازال مرفوعة . وتجمع الثور ، ثم تدلى رأسه ووقع
على جانبه ، وفي البدء ، بطيئاً ، وانطرح ، فجأة ، على ظهره ، وقوائمه
منتصبة الى الأعلى .

وأعيد السيف الى « روميرو » وتقدم ممسكاً بسيفه المنخفض الطرف الى
الأسفل ، وحاملاً شال (الموليتا) على ذراعه الأخرى ، حتى وصل الى قبالة
منصة الرئيس . وثمة ، انحنى وقام ، واقترب من حاجز (الباريرا) وناول سيفه
وشال (الموليتا) ، وقال حامل السيف :

- يا له من ثور سيئ!

وقال « روميرو » :

- لقد جعلني أنتضح عرقاً من الإرهاق .

ومسح وجهه ، وناولته حامل السيوف جرة ماء ، وبلّ « روميرو » شفّيته...
كان يتوجّع في الشرب من الجرة ، ولم ينظر إلينا البتة .
وكان لـ «مارسيال» يوم حافل . فمنذ دخول آخر ثور لـ «روميرو»
استقبل «مارسيال» بالتصفيق . وكان نفس الثور الذي عدا خلف الرجل
وقتلته ، صباح مسيرة الثيران .

وكان وجه «روميرو» المبهتج يبدو ظاهر الورم ، منذ ابتداء لعبه مع ثوره
الأول ، وكانت كل حركة يقوم بها تظهر هذا الورم ، وكان تركيزه الذي يقتضيه
لعبه الدقيق المرهق مع الثور الضعيف البصري يزورم وجهه أشد البروز . إن عراكه
مع «كون» لم ينل من اندفاعه . ولكن وجهه أضحى مهجأً وجسده رضيعاً .
وإنه ليمسح الآن وجهه . وجعل لعبه مع ثوره الأخير يعيد الى محياه
شيئاً فشيئاً نضرتة القديمة .

وكان ثوراً جيداً ، ضخماً ذا قرنين كبيرين ، وكان يهجم ويكر ، في عزم
ويسر ، وكان من زمرة الثيران التي يرغب «روميرو» في مصارعتها .
ولما أنهى لعبه بشال (الموليتا) وتهياً ليصرع الثور ، طلب اليه الجمهور أن
يستأنف اللعب معه ، فلم يكن يريد أن يقتل الثور سريعاً ، وأن يتم ذلك وشيكاً .
وتابع «روميرو» لعبه ، وكان يبدو وكأنه يلقي محاضرة في فن مصارعة
الثيران ، فسلسل الحركات كلها ، تامة ، متمهلة ، منتظمة . ولم يكن ثمة
حيلة أو تعمية أو عنف . وكان إنهاء كل حركة ، يسبّب لنا نوعاً من الألم
الدفين ، وكان الجمهور يود ألا يكون نهاية للعب .

وكان الثور ثابتاً على قوائم الأربعة ، متخذاً الوضع الذي يتلقّى فيه
الموت ، وقد قتله «روميرو» تحت مرمى أبصارنا ، ولم يقتله بالطريقة التي
فرضت عليه ، كما كان الحال في الثور السابق ، بل قتله كما يريد هو أن
يقتله . فقد وقف قبالة الثور وسلّ السيف من ثنايا شال (الموليتا) ومدّ بصره
الى ظبه السيف ، وكان الثور يراقبه . وأخذ «روميرو» يكلمه ، ثم قرع
باحدى قدميه الأرض ، فهجم الثور . وانتظر «روميرو» هجومه عليه ، وخفض

شاله ، ناظراً الى سيفه وقدماء ثابتتان ، ودون أن يتقدّم خطوة واحدة أضحي هو والثور كلاهما واحداً ، وانغرز السيف مستقيماً مابين كتفي الثور ، وتتبع الثور الشال الواطئ الذي ماكاد يتحرك قريباً من الأرض حتى توارى حين تنحى « روميرو » بقفزة عنيفة الى اليسار ، فأضحى بمأمن من نطاح الثور .

وحاول الثور أن يتقدّم... وجهد في أن يتماسك على قوائمه التي أخذت تتقصّف ، وتمايل مترنحاً من جانب الى جانب ، وتردّد ثم ألقى على ركبتيه قائمته . وحينئذ انحنى خلفه شقيق « روميرو » الأكبر وأغمد خنجره صغيراً في عنق الثور قريباً من منبت القرنين ، وأخفق أول مرة ، فكرر إغماد الخنجر ، وارتمى الثور متخلجاً متصلباً .

ورفع شقيق « روميرو » وهو ممسك بيد ، قرن الثور ، وبيد خنجره - رفع بصره الى منصفه الرئاسة ، وخفقت مناديل في أرجاء الملعب كلّه . ونظر الرئيس من أعلى المنصة ولوح بمنديله . وسلم شقيق « روميرو » اذن الثور الصريع ، وكانت سوداء خشنة ، وخفّ الى أخيه يحملها اليه . وتمدّد الثور ، دالغ اللسان ، ثقيلاً ، أسود ، على الرمل . وهروا من أنحاء الملعب فتيان وأحاطوا به وجعلوا يرقصون حوله . .

وأخذ « روميرو » اذن الثور من أخيه وشالها بيده أمام الرئيس ، فانحنى الرئيس له .

وركض « روميرو » ليسبق الجمهور ، متّجهاً نحوه ، وانحنى أمام حاجز (الباريرا) ، وقدم اذن الثور الى « بریت » . وهز رأسه وابتسم . وكان الجمهور قد التف حوله . واعطته « بریت » شاله . وهتف « روميرو » قائلاً :
- هل أعجبك ؟

فلم تقل « بریت » شيئاً ، وتبادلا النظر ، وابتسما . وكانت اذن الثور في يدها ، وقال لها في تصنّع :
- إياك أن تتلوئي بالدم .

وكان الجمهور يريده . وهتف عدة فتية لـ « بریت » وكان الجمهور مؤلفاً

من غلمان وراقصين وسكاري ، واستدار « روميرو » محاولاً أن يشق طريقاً له بين الزحام ، ولكن الجمهور كان يطوقه ويحاول أن يرفعه على الأكتاف . لكنه قاوم ومضى راكضاً بين الناس نحو مخرج الملعب ، فلم يكن يرفع على أكتاف النظارة ، ولكنهم أدركوه ورفعوه . ولم يكن في موضع مريح ، كانت ساقاه متباعدتين وكان الألم يهدد جسمه . وخفوا به راقصين نحو الباب ، وأراح « روميرو » يده على كتف أحدهم ونظر إلينا معذراً ثم تخطى به الجمهور الباب . وانقلبنا نحن الثلاثة عائدين إلى الفندق ، وصعدت « برييت » الدرج ، ومكثت أنا و« بيل » في حجرة الطعام من الدور الأرضي ، حيث طعمنا بيضاً مسلوقاً ، وشربنا عدة زجاجات من البيرة . وقدّم « بيلمونتي » بشيابه المدينه مع مدربه ورجلين آخرين ، وجلسوا إلى طاولة مجاورة ، وتناولوا طعامهم . وأكل « بيلمونتي » قليلاً ، وكانوا يستعدون للسفر إلى (برشلونة) في قطار الساعة السابعة . وكان « بيلمونتي » يرتدي قميصاً مخططاً بالزرقة وسترة سوداء . وكان يأكل البيض مسلوقاً بعض الشيء ، وكان الآخرون يتناولون وجبة كبيرة من الطعام ، ولم يتكلم « بيلمونتي » قط ، كان يجتري بالجواب عن الأسئلة . وشعر « بيل » بأنه متعب ، إثر مشاهدة مصارعة الثيران ، وكذلك شعرت أنا . لقد كنا مشغوفين بفن مصارعة الثيران أشد الشغف . وجلسنا وأكلنا البيض ونحن نسارق النظر إلى « بيلمونتي » وجماعته الجالسين إلى طاولته ، وكان رفاقه ذوي وجوه قاسية وجوه أرباب أعمال ، وقال « بيل » :

- لنذهب إلى المقهى ، أود أن أشرب قليلاً من الابسنت .

وكان ذلك اليوم ، اليوم الأخير من العيد (الفبيستا) ، وفي الخارج أضحي الجو من جديد غائماً . كانت الساحة غاصة بالناس . وكان المعنيون بالألعاب النارية يهيئون عدتهم وأشياءهم لاحتفال الليلة ثم يغمرونها بأغصان الزان . وكان ثمة أطفال يتفرجون ، ومررنا بدكاكين الصواريخ ذات العصي الطويلة من (البامبو) . وكان ثم حشد كبير من الناس خارج المقهى ، وعزفت

الموسيقى يواكبها الرقص ، وكان يمرأشخاص بإهاب مرده وأقزام .

وسألت « بيل » :

- أين « ادنا » ؟

- لا أدري .

وجعلنا ننظر الى بدء الليلة الأخيرة من العيد وكان شراب الابنست يجعل كل شيء في نظرنا أكثر رواء . وشربت الابنست دون أن يمازجه السكر ، في قدح تقطرت جوانبه بالماء ، وكان مذاقه ذا مرارة مستحبة . وقال « بيل » :

- إنني أشعر بالأسى نحو « كون » ، لقد أمضى وقتاً مخيفاً معذباً .

وقلت :

- ليأخذ الجحيم « كون » .

- ترى الى أين ذهب ؟

- الى (باريس) .

- ماذا تحسب أنه سيفعل ؟

- اوه ، ليأخذه الجحيم .

- ماذا تحسب أنه سيفعل في الجحيم ؟

- سيعود الى فتاته القديمة على الأرجح .

- ومن هي فتاته القديمة ؟

- إحداهن تدعى « فرانسيس » .

وشربنا قدحاً آخر من الابنست ، وسألت :

- متى ستعود ؟

- غداً .

واردف « بيل » بعد هنيهة :

- وبعد ، فقد كان عيداً ممتعاً .

وقلت :

- أجل في أي وقت ثمة شيء خليق بالمشاهدة .

- يخيّل إليّ أنه ككابوس رائع ، قد لا تؤمن بما أقول .
- بلى ، إنني أؤمن بأي شيء حتّى بالكوابيس .
- ماذا دهاك ؟ أتشعر بضيق ؟
- بضيق كأنه الجحيم .
- خذ قدحاً من الالبسنت ، ايه يا غلام : أيت بقدرح آخر من الالبسنت للسنيور .
- وقلت :
- أشعر بضيق كأنه الجحيم .
- وقال « بيل » :
- اشرب هذا ، اشربه في تمهل .
- وبدأ الليل يرخي سدوله ، واستمرت مباحج العيد (الفيسيستا) وشعرت
- بأنني ثملت ، ولكنني لم أَلَف أي تحسّن .
- كيف تشعر ؟
- أشعر بالسعير .
- أتودّ قدحاً آخر ؟
- لن يجديني نفعاً .
- جرّب ، من يدري ؟ لعلّ هذا القدح هو الذي يحدث أثراً ، إيه يا غلام
- إيت بقدرح آخر من الالبسنت لهذا السنيور .
- وبدلاً من أن أصب فيه الماء ، نقطة نقطة ، صببته دفعة واحدة في
- الالبسنت وحركته . وأضاف إليه « بيل » قطعة سكر . وادرت بملعقة قطعة من
- الثلج في هذا المزيج الأسمر الغائم .
- كيف وجدته ؟
- طيب .
- لا تشربه دفعة واحدة . فإنه يمرضك .
- ووضعت القدح . ولم أكن أنوي أن أتجرّعه سريعاً .
- أشعر بأنني ثمل .

- لابد من ذلك .

- هذا ما كنت تبتغيه ، أليس كذلك ؟

- طبعاً ، أسكر ، وتخلص من ضيقك اللعين .

- حسناً ، أنا سكران ، أهذا ماتريد ؟

- اجلس .

وقلت :

- لا أريد الجلوس ، أنا ذاهب الى الفندق .

وكان السكر قد استبدّ بي ، ولأذكر أنني أضحيّت في مثل هذا السكر ، عمري كله . ولما وصلت الى الفندق ، صعدت في الدرج ، وكان باب غرفة «بريت» مفتوحاً ومددت رأسي في الغرفة ، كان «مايك» جالساً على السرير ، ولوح لي بزجاجة وقال :

- «جاك» ، ادخل يا «جاك» .

ودخلت وجلست ، وكانت الغرفة تميد بي إلا إذا حدّقت الى نقطة ثابتة . أتدري ؟ لقد رحلت «برنت» مع مصارع الثيران الفتى .

- لا ؟

- بلى ، بحثت عنك لتودّعك ، لقد سافرا في قطار الساعة السابعة .

- حقاً ؟

وقال «مايك» :

- إنّ مافعلته لشيء سيء . كان عليها ألا تفعل ذلك .

- لا .

- أتريد أن تشرب ، انتظر سارن الجرس ، لنشرب شيئاً من البيرة .

وقلت :

- إنني ثمل سأذهب لأستلقي على فراشي .

- أنت سكران ؟ لقد كنت أنا سكران أيضاً .

وقلت :

- بلى ، إنني سكران .

وقال «مايك» :

- حسناً ، على نخبك ، اذهب ونم يا عزيزي « جاك » .

وخرجت وفزعت الى غرفتي ، واضطجعت على سريري ، وماج السرير بي ، وقعت وأنشأت أهدق الى الحائط لأجعل السرير يقر .

وفي الساحة ، كان العيد (الفيسا) مايزال مستمراً .

ولم أحفل بشيء البتة ، وقدم الي « بيل » و «مايك» بعد فترة لنمضي وتتناول الطعام سوية ، فاصطنعت النوم .

- إنه نائم ، من المستحسن أن نتركه نائماً .

وقال «مايك» :

- إنه سكران مخمور .

وخرجوا...

ونفضت ودلفت الى الشرفة أشاهد الراقصين في الساحة ، لم يعد المكان يميز بي ، كل شيء أضحى واضحاً متألّقاً ، مع قليل من القساوة على الحواشي ، واغتسلت ومشطت شعري ، وتراءيت لنفسي في المرآة ، غريباً ، ونزلت الى حجرة الطعام .

وقال « بيل » :

- ها هو ذا ، هذا العزيز « جاك » ، كنت أعلم أنك لم تطرف وتحرك جفنيك .

وقال «مايك» :

- أهلاً بالسكران العزيز .

- لقد شعرت بالجوع فاستيقظت .

وقال « بيل » :

- تناول شيئاً من الحساء .

وكنا جالسين ، نحن الثلاثة ، الى الطاولة ، وكانت تبدو كأنها تنقص ستة أشخاص .

الجزء الثالث

الفصل التاسع عشر

في صباح اليوم التالي كان كل شيء قد انتهى ، ومضى العيد (الفيسٽا) . واستيقظت حوالي الساعة التاسعة ، واستحمت ونزلت . كانت الساحة خالية ، وكانت الشوارع مقفرة من الناس ، فيما عدا صبية يلتقطون قضبان الصواريخ من الساحة . وكانت المقاهي تفتح آنذاك ، والندل ينقلون الكراسي المريحة المصنوعة من خشب الزان الأبيض ، ويصفونها حول الطاولات المرمية في فيء القناطر . وكانت الشوارع تكنس وترش بخرطوم الماء .

وجلست على أحد هذه الكراسي البيضاء المصنوعة من الزان ، وتمددت مسترخياً . لم يكن النادل ليتعجل القدوم للخدمة ، وكانت الاعلانات البيضاء التي تعلن عن نقل الثيران ، والبيانات الكبيرة الخاصة بمواعيد سفر القطر الخاصة لاتزال لصيقة بعمد القناطر ، وخرج نادل متمنطق بميدعة^(١) زرقاء يحمل دلو ماء وممسحة ، وبدأ يمزق الاعلانات ويزيل الورق . ويغسل ويفرك الورق الذي ظل ملتصقاً بالحجر . لقد انتهى العيد (الفيسٽا) .

واحتسيت فنجان قهوة ، وبعد هنيهة قدم « بيل » ونظرت اليه فيما كان يجتاز الساحة . وجلس الى طاولتي ، وطلب فنجان قهوة وقال :

(١) الميدعة : الفوطه .

- حسناً ، لقد انتهى كل شيء .

قلت :

- أجل . متى ستسافر ؟

- لا أدري ، أؤثر أن نستقل السيارة ، ألا تعود الى باريس ؟

- لا ، إن في ميسوري البقاء اسبوعاً آخر . أظن أنني سأسافر الى (سان سيباستيان) .

- أنا أريد العودة .

- ماذا سيفعل «مايك» ؟

- سيذهب الى (سان جان دولوز) .

- لنستأجر سيارة ولنذهب سوياً بعيداً حتى (بايون) ، إن في وسعك أن تستقل القطار ، هناك الليلة .

- حسناً لنذهب الى الغداء .

- موافق ، سأوصي على السيارة .

وتغدينا ودفعنا ثمن الطعام ولم يقترب منا «مونتويا» ، وحملت الينا إحدى الخادومات قائمة الحساب . كانت السيارة تنتظر في الخارج وكان السائق يحزم حقائبنا ويربطها فوق سطح السيارة ، ثم وضع بعضاً منها على المقعد المجاور له وصعدنا .

وغادرت السيارة الساحة وسعت عبر الشوارع الصغيرة ومرت تحت أغصان الأشجار ، وانحدرت من الهضبة مبتعدة عن (بامبيلونه) ولم تبد لنا المسافة طويلة جداً . وكان لدى «بايك» زجاجة من (الفوندادور) وشربنا منها مرتين فحسب . وفرغنا من الجبال وخرجنا من اسبانيا ، وهبطنا في درب بيضاء عبر الأراضي الندية الخضراء الظليلة من اقليم (الباسك) ، ووصلنا أخيراً الى (بايون) وتركنا حقائب «بيل» في مستودع المحطة ، فشرى بطاقة سفر الى (باريس) وكان قطاره يسافر في الساعة السابعة والدقيقة العاشرة .

وخرجنا من المحطة ، وكانت السيارة واقفة قبالتها . وسأل «بيل» :

- ماذا سنفعل بالسيارة ؟

وقال «مايك» :

- اوه ، لا تهتم بالسيارة ، لنحتفظ بها لدينا .

وقال «بيل» :

- حسناً ، الى أين ستذهب ؟

- هلاً ذهبنا الى (بياريتز) لنشرب شيئاً ما .

وقال «بيل» :

- يا للمتلاف العزيز «مايك» :

ومضينا الى «بياريتز» وتركنا السيارة الى جانب ساحة (ريتز) الكبيرة

ودخلنا المشرب ، وجلسنا على مقاعد مرتفعة ، وطلبنا وسكي بالصودا .

وقال «مايك» :

- إنه دوري في الدفع .

- لنقترع على ذلك .

واقترعنا بكعاب النرد الحاملة رسوم ورق البوكر ، ضمن سفت جلدي

وخرج «بيل» من الرمية الأولى . وخسر «مايك» فأعطى ساقى المشرب

(البارمان) ورقة نقدية من فئة مئة فرنك ، وكان ثمن قدح الويسكي إثني

عشر فرنكاً ، وأجرينا قرعة أخرى ، وخسر «مايك» أيضاً ، وكان يترك في

كل مكان يدفع ، رضيخة^(١) وافية .

وفي حجرة مجاورة للمشرب كانت فرقة موسيقى (جاز) جيدة . كان .

مشرباً لطيفاً .

وأجرينا قرعة أخرى ، وخرجت من الرمية الأولى ، بفضل أربعة رسوم

(ملوك) ، وأجريت رمية بين «بيل» و«مايك» ، وربح «مايك» لأول مرة ،

بفضل أربعة رسوم (فتيان) ، وربح «بيل» في القرعة الثانية ، وفي القرعة

(١) الرضيخة : البقشيش .

النهائية اتسق لـ«مايك» ثلاثة رسوم (ملوك) واحتفظ بها ، وناول السفط
«بيل» فأمسك ، وهزّه ورمى كعاب النرد ، فخرج له ثلاثة رسوم (ملوك)
ورسم (بنت) ورسم «أس» .

وقال «بيل» :

- إنه دورك يا «مايك» ، أيها المقامر العزيز «مايك» .

وقال «مايك» :

- آسف أشد الأسف ، ولكنني لا أستطيع .

- ماذا دهاك ؟

- لم أعد املك مالاً ، لقد نفذ كل ما عندي ، ليس لدي سوى عشرين
فرنكاً ، خذ هذه الفرنكات العشرين .

وتغيّر لون وجه «بيل» ، وقال «مايك» :

- لقد تبقى لديّ ما أدفع به حساب «مونتويا» من حسن حظ اللعين ، أنه

تبقى شيء .

وقال «بيل» :

- إنني أقبل شيكاً بالمبلغ .

إنه لطف منك ، ولكنني ، كما ترى ، لا أستطيع أن أوقع على شيكات

دون رصيد .

- وماذا ستفعل لتحصل على مال ؟

- اوه . سوف أتلقّى بعض المال ، لديّ راتب اسبوعين لابد أن يصل الى

هنا ، إنّ في مكنتي أن أعيش ، مجاناً ، في هذه الحانة الصغيرة في (سان
جان) .

وسألني «بيل» :

- ماذا سنفعل بالسيارة ؟ هل سنحتفظ بها ؟

- الأمر عندي سواء ، ولكن ابقاها يبدو لي بلاهة .

وقال «مايك» :

- لنشرب قدحاً آخر .

وقال « بيل » :

- حسناً ، هذه المرة هي من حقّي في الدفع . ترى أكون لدى « بریت »

شيء من المال ؟

والتفت الى « مايك » فقال هذا :

- لا أظن ، لقد تركت جل ماعطيتها للعزیز « موتويا » .

وسألت :

- أليس لديها نقود ؟

- لا أظن . إنها لا تحتفظ لديها بأي نقد ، إن واردها السنوي خمسمئة

جنيه . ولكنها تنفق منها ثلاثمائة وخمسين جنيهاً كفوائدالى يهود .

وقال « بيل » :

- يخيل الي انهم يجدون لديها معيناً فيأضاً .

- أصبت ، انهم ليسوا بيهود في الواقع ، ولكننا ندعوهم نحن يهوداً .

إنهم ، فيما أحسب ، اسكتلنديون .

وسألت :

- أليس لديها دائق واحد ؟

- أظن ذلك . لقد اعطتني كل مالديها حين رحلت .

وقال « بيل » :

- حسناً ، إن في ميسورنا اذن أن نشرب أيضاً .

- يا لها من فكرة جيدة شيطانية ، إن مناقشة الأمور المالية لا تجدي

شيئاً . وقال « بيل » :

- اجل .

واقترعت أناو « بيل » على دورين من الشرب ، وخسر « بيل » ودفع .

ومضينا الى السيارة ، وسأل « بيل » :

- الى أين تود أن تذهب يا « مايك » ؟

- لنقم بجولة فلعلّ ذلك يعود بفائدة على رصيدي ، لنتنزّه قليلاً .

- حسناً ، أود أن أرى الشاطئ . لنذهب الى (هنداي) .

- ليس لدي أيما رصيد على طول الشاطئ .

وقال « بيل » :

- من يدري ؟

وتابعنا السير في طريق الشاطئ ، فاستقبلتنا خضرة اشباه الجزر والفيلات البيضاء ذات السقف الأحمر ، وبقعات من الغابات ، والبحر الشديد الزرقة . ذو المد المطمئن والأمواج المصطخبة بعيداً عن الشاطئ . واجتزنا (سان جان دولوز) ومررنا بقري أخرى ابعد منها على الشاطئ ، وخلف المنطقة المدورة التي كنّا نضرب فيها ، شاهدنا الجبال التي جزنا بها عند اوبتنا من (بامبيلونه) . وكانت الطريق تذهب صاعدة ، ونظر « بيل » الى ساعته ، - لقد أزف وقت عودتنا - ونقر على الزجاج وطلب الى السائق أن ينقلب عائداً . وتراجع السائق بالسيارة في العشب ليتسنّى له أن يدور ، وخلفنا كانت تمتد غابات ، وتحتها ينبسط السهل ، ثمّ البحر .

وفي (سان جان دولوز) أوقفنا السيارة أمام الفندق الذي كا ينوي «مايك» الإقامة فيه ، ونزلنا ، وحمل السائق الحقائب ، وظلّ «مايك» واقفاً الى جانب السيارة . وقال :

- الى اللقاء يا «مايك» .

وقلت :

- سوف أراك في هذا المكان وحوله .

وقال «مايك» :

- لا يأخذكما القلق من أجل المال ، إن في ميسورك يا «جاك» أن تدفع أجرة السيارة وسوف أبعث اليك بما يستحق عليّ .

- الى اللقاء يا «مايك» .

- الى اللقاء أيها الرفيقان ، لقد كنتما لطيفين جداً معي .

وتصافحنا ولوّحنا له بأيدينا من السيارة ، وظلّ واقفاً على الطريق ينظر إلينا .

ووصلنا الى (بايون) قبيل سير القطار وجلب عتال حقائق «بيل» من مستودع المحطة ، ومشيت حتى الباب الداخلي المفضي الى رصيف القطار . وقال «بيل» :

- الى اللقاء يا عزيزي .

- الى اللقاء يافتي العزيز .

- لقد كانت رحلة ممتعة ونعمت فيها بوقت طيب .

- أباق أنت في باريس ؟

- لا ، سوف أبحر بتاريخ ١٧ الى اللقاء يا عزيزي .

- الى اللقاء يافتي العزيز .

ومضى ، متخطياً الباب ، ودلف الى القطار ، وكان العتال يتقدّم «بيل» مع الحقائق ، ونظرت الى القطار يسعى ، و«بيل» واقف أمام إحدى نوافذ القطار . ومرت النافذة ثم باقي القطار . واضحى الخطان الحديديان فارغين ، وخرجت واتجهت الى السيارة ، وسألت السائق :

- كم يتعين عليّ أن أدفع لك ؟

وكانت الأجرة الى (بايون) محدودة بمئة وخمسين بيزيته . وقال :

- مئتي بيزيته .

- كم ذا تريد زيادة اذا أخذتني الى (سان سيباستيان) حين عودتك ؟

- خمسين بيزيته .

- لاتغشني .

- خمساً وثلاثين بيزيته .

وقلت :

- إنها أجرة باهظة ، خذني الى فندق (السلة المزهرة) .

وفي الفندق ، نقدت السائق أجرته ، ومنحته رضيخه . وكانت السيارة

مكسوة بالغبار وفركت غمد قصبات الصيد بالغبار فقد خيل اليّ أن هذا التراب هو الشيء الأخير الذي يصلني باسبانيا وبالفبيستا .

وتحرك السائق بالسيارة ، فأنحدرت الى الشارع ، وتطلّعت اليها وهي تدور لتيمّم شطر اسبانيا .

ومشيت الى الفندق . وانزلوني غرفة . وكانت الغرفة نفسها التي نمت فيها حين جئت (بايون) مع «بيل» و «كون» . ومثل في وهمي أن ذلك كان منذ زمن بعيد ، واغتسلت ، وبدلت قميصي ثم خرجت الى المدينة .

اشتريت من كشك بائع صحف ، جريدة «نيويورك هيرالد» وجلست في مقهى لأقرأها . وبدا لي أنه لشيء مستغرب أن أكون في فرنسا من جديد . وكان هذا يهمني شعوراً ريفياً آمناً . وندمت على عدم سفري الى «باريس» مع «بيل» لولا أن باريس حافلة بما يماثل «الفبيستا» . لقد بشمت من (الفبيستا) واكتفيت لأمد طويل . لابد أن الهدوء سيتوفّر لي في (سان سيباستيان) فإن موسم الاصطياف لا يبدأ الا في آب . وسيكون في مقدوري أن أجد غرفة في فندق جيد وأن أقرأ واسبح ، فهناك شاطئ رائع ، وهناك أشجار بديعة على شارع المنتزة الى جانب الشط وهناك كثير من الأطفال ينحدرون قبل افتتاح الموسم مع مربياتهم ، وفي المساء تعزف فرقة موسيقية تحت أغصان الأشجار قبالة مقهى «الماريناس» وسوف يتسّق لي أن أجلس في «الماريناس» لأستمع الى الموسيقى ، وسألت النادل :

- كيف الطعام هنا ؟

ففي داخل المقهى يوجد مطعم ، وأجاب :

- جيد جداً ، الطعام هنا ممتاز .

- حسناً .

ودخلت لأتغذى . وكان الطعام يعد وافياً في فرنسا ولكنه يبدو الى جانب طعام اسبانيا ، مقنناً الى حد بعيد . وشريت زجاجة خمر لآنس بصحبتهما ، وكانت من نوع «قصر مارغو» . إنه لمتع للمرء أن يترشف الخمر ويتذوّقها

وأن يشربها وحده . إن زجاجة الخمر هي صاحبة مؤنسة .

وشربت فنجان قهوة ، واثني النادل على نوع من الليكور الباسكي يدعى « ايزارا » وجلب زجاجة منه وملاً لي قدح ليكور ، وذكر بأن ليكور « ايزارا » مصنوع من زهور جبال « البيرينه » ، من زهور حقيقية مقطوفة من « البيرينه » ، إنه يبدو كزيت الشعر ورائحته شبيهة بـ (الستريغا) الإيطالية ، وطلبت اليه أن ينحّي زهور (البيرينه) جانباً ويجلب لي ليكور (فيومارك) وكان هذا (الفيومارك) جيداً ، وشربت قدحاً منه بعد احتساء القهوة .

وبدا النادل كأنه أهين فيما يخص الزهور (البيرينه) ولهذا فقد نقدته منحة وافية ، مما جعله مسروراً . كنت أشعر بأنني ناعم البال في بلد يستطيع المرء فيه أن يدخل البهجة الى نفوس الناس ، في سهولة ويسر .

ليس في وسعك في اسبانيا ، أن تقول ما إذا كان الخادم الاسباني سيقدم اليك الشكر . أمّا في فرنسا فإن كل شيء يركز على أسس مالية واضحة جداً ، إنه أيسر بلد يعيش فيه إنسان . فليس ثمة شخص يعقد لك الأمور موثقاً أو اصر الصداقة معك ، لغرض خبيء مبهم ، فإذا رغبت في أن يحبك الناس ثمة فليس لك إلا أن تبذل بعض المال . وقد بذلت قليلاً من المال فاكسبت ود النادل وقدّر قيمتي . ولسوف يكون سعيداً أن يراني أعود من جديد . ولسوف أتغذى هنا ، حين ينفسح لي الوقت ، وسوف يكون جذلان برؤيتي ليهيئ لي طاولة أجلس إليها ، لعلّ هذا الود أن يكون مخلصاً ، لأنه يتكئ على أساس متين... بلى لقد عدت الى فرنسا .

وفي صباح اليوم التالي نقدت كل مستخدم في الفندق منحة وافية ، لاكتسب مزيداً من الأصدقاء ، وسافرت بقطار الصباح الى (سان سيباستيان) ولم أعط العتال منحة أكثر مما ينبغي ان أعطيه ، فقد قدّرت أنني لن ألتقي به مرة ثانية . ولم أكن أريد سوى بعض الأصدقاء الفرنسيين الطيبين في (بايون) لأحظى بترحيبهم عند عودتي إليها . كنت أعرف أن صداقتهم لي ستكون وافية إذا تذكروني .

وفي (إيردن) اضطررت الى تغيير القطار وابراز جواز سفري . لقد كرهت مغادرة فرنسا فقد كانت الحياة فيها بسيطة ، وشعرت بأنني مجنون في اعتزامي العودة الى اسبانيا ، فليس في ميسورك أن تعرف ماذا يحدث لك في اسبانيا ، بلى شعرت بأنني مجنون إذ أعود اليها . بيد أنني وقفت في صف الواقفين ، أمام مكتب الجوازات ، حاملاً جواز سفري ، وفتحت حقائبي أمام موظفي الجمرك وشريت بطاقة السفر ، ودخلت من باب الرصيف ، ثم صعدت القطار وبعد أربعين دقيقة ومرور القطار بثمانية أنفاق وصلت الى (سان سيباستيان) .

إن (سان سيباستيان) تحتفظ حتى في النهار القائظ ، بجو صباحي رطب ، وتتبدى أوراق الشجر وكأن نداوتها لم تجف كل الجفاف . وتترأى الشوارع وكأنها قد رشّت منذ أمد قريب ، وإنك لتجد دوماً حتى في أشد الأيام حرّاً ، بعض الشوارع رطبة ، ظليلة . وقصدت فندقاً في المدينة كنت قد حللت فيه من قبل ، حيث أنزلوني غرفة ذات شرفة مطلة على سطوح مباني المدينة . وكان ينتصب بعيد هذه السطوح سفح جبل مخضوضر .

وفككت حقائبي ورصفت كتبتي على الطاولة المجاورة لرأس السرير ، وأخرجت أدوات الحلاقة ، وعلقت بعض الألبسة ضمن صوّان كبير ، وأعددت كدسة من الثياب لتنظيفها ، ثم أخذت (دوشاً) في حجرة الحمام . ثم نزلت لأتغدى .

إن اسبانيا لم تأخذ بنظام توقيت الساعة الصيفي ، لقد هبطت إذاً مبكراً ، وضبطت ساعتني . لقد غنمت ساعة من الوقت بقدمي الى (سان سيباستيان) .

وبينما أنا أدخل حجرة الطعام ، جلب لي البوّاب ورقة بيانات للشرطة لأملأها ، وأوقعها . وطلبت اليه ورقتي نموذج برقية . فأبرقت في الأولى الى فندق (مونتويا) ليوافيني بالرسائل والبرقيات الموجهة اليّ ، الى عنواني الحالي ، وحسبت عدد الأيام التي سأمضيها في (سان سيباستيان) ، فطلبت

في برقيتي الثانية الى مكتبي بباريس الاحتفاظ بهريدي وموافاتي في (سان سيباستيان) خلال ستة أيام ، بكل البرقيات التي قد ترد الي ، ثم ذهبت وتغديت .

وبعد الغداء ، صعدت الى غرفتي ، وقرأت قليلاً ، ثم أويت الى النوم ، ولمّا استيقظت كانت الساعة تشير الى الرابعة والنصف ، ووجدت (مايوه) السباحه ، ولففته مع المشط ، بمنشفة ، ونزلت وسرت في الشارع نحو شاطيء (الكونشا) .

وكان المد مرتفعاً بعض الشيء ، وكان الشاطيء مستويّاً راسخاً ، كان الرمل أصفر . ودخلت حجيرة الحمام (الكابين) فنزعت ثيابي ولبست (المايوه) واتجهت نحو البحر ، فوق الرمل المليس ، وكان الرمل حاراً تحت قدمي الحافيتين ، وكان يوجد قليل من الناس في الماء وعلى الشاطيء ، وفي المدى الأبعد ، هناك ، حيث يتداني رأسا شاطيء (الكونشا) ويوشكان أن يتصلا ليؤلفا الميناء ، كان يبدو خط الأمواج الأبيض ومنبسط البحر .

ورغم أن المد كان متطامناً ، فقد كانت ثمة مويجات بطيئة ، وكانت تتقدم متماوجة على صفحة الماء ، وكانت لاتني تكبر في الحجم ثم تتكسر ، في ليان ، على الرمل الدافئ .

وخضت الماء فألفيته بارداً ، وفيما كانت موجة مقبلة . رميت نفسي في غمرتها ، وجعلت أسبح تحت الماء ثم طفوت وقد زایلني الشعور بهراءة البرد ، وأخذت أسبح حتّى وصلت الى الرمث^(١) فعلوته واستلقيت على ألواح الخشب الحار ، وكان على طرفه الآخر فتى وفتاة ، وكانت الفتاة قد حلت أعلى زنار المايوه ، وانبطحت لتسمّر ظهرها بالشمس ، وكان الفتى متمدداً ، ووجهه الى الرمث ، يتحدث الى الفتاة ، وكانت تضحك معرضة ظهرها المسمّر لأشعة الشمس .

(١) الرمث : خشب يضم بعضه الى بعض ويركب في البحر . ترجمة كلمة raft

وظللت مستلقياً على الرمث ، أنعم بالشمس حتى جف إهابي ، ثم قمت
بعدة حركات في الغوص ، وعيناي مفتوحتان ، فكنت أرى كل شيء قائماً
أخضر ، وبدا لي الرمث ظلاً أسود ، ثم طفوت على سطح الماء قريباً من
الرمث ، وعلوته ، وغصت مرة أخرى ولكن على امتداد السطح ، ثم سبحت
متجهاً نحو الشاطئ حتى وصلت اليه . وجففت جسمي بينما أنا مستلق على
الشاطئ ثم مضيت الى حجرة الحمام ونزعت (المايوه) وبللت جسمي بالماء
العذب الرطب وجعلت أدلكه حتى يجف .

وتمشيت حول المرفأ في ظل الأشجار ، حتى وصلت الى الكازينو ، ثم
سلكت أحد الشوارع الرطبة . حتى أفضيت الى مقهى (ماريناس) وكانت
تعزف فرقة موسيقية ، داخل المقهى ، واتخذت مجلسي على السطیحة ، لأنعم
بالرطوبة في ذلك النهار الصائف ، وشربت كأساً من عصير الليمون المثلج ،
وقدحاً كبيراً من الويسكي بالصوصا . ومكثت أمداً طويلاً وأنا جالس على
سطیحة (ماريناس) أقرأ وأنظر الى المارة واستمع الى الموسيقى .

وحين بدأت عتمة الليل ، درت حول الميناء ، متجولاً في شوارع
المنتزه وأخيراً عدت الى الفندق لأتعثى .

وكان ينظم في ذلك الوقت سباق للدراجات ، في دوره بلاد الباسك ،
وكان المتسابقون قد توقفوا في (سان سيباستيان) ليبيتوا فيها ليلتهم .

وكان قد أعد ، في ركن من حجرة الطعام ، مائدة طويلة ، جلس اليها
المتسابقون يأكلون مع مدربيهم والمشرفين عليهم ، وكانوا جميعاً فرنسيين
أو بلجيكيين ، وكانوا يراعون طعامهم في انتباه دقيق ، ولكنهم كانوا
يسمرون ويتمتعون بوقت طيب ، وكان يجلس الى رأس المائدة فتاتان
فرنسيّتان جميلتان ، من صميم طراز فتيات (مونمارتر) ، ولم أستطع أن
أعرف من تخصصان من هؤلاء . وكان الجالسون الى المائدة الكبيرة يتكلمون
جميعاً بلهجة عامية ، وقد رويت مختلف الفكاهات في نهاية المائدة ، ولم
يسرد بعضها على الفتاتين حين طلبتا الاستماع اليها . وكان على المتسابقين

أن يستأنفوا السير ، في الساعة الخامسة ، من صباح اليوم التالي ، لاتمام المرحلة الأخيرة بين (سان سيباستيان) و(بلباد) .

كان المتسابقون يحتسون كثيراً من الخمرة ، وكانت الشمس قد لوحت أجسامهم بالسمرة الشديدة ، ولم يكونوا ينظرون الى السباق نظرة جد واهتمام فيما بينهم! فقد جرت من قبل ، فيما بينهم ، مسابقات هي من الكثرة بحيث أضحى لافرق لديهم من الذي سيكون منهم السباق المحلي ، وبخاصة في بلد أجنبي : أمّا مسألة المال ، فقد كانت تسوى دوماً .

وكان المتسابق الذي تقدّم على الباقيين بدقيقتين في السباق يشكو من ظهور دمامل جعلت تؤلمه أشد الألم ، وكان جالساً على جانب من ظهره . وكان عنقه شديد الإحمرار ، وكان شعره الأشقر قد لوحت أشعة الشمس . وكان بقية المتسابقين يعابثونه على دمامله . وقرع بشوخته :

- استمعوا اليّ ، غداً سوف ألصق أنفي بمقود الدراجة ، الصاقاً جيّداً الى حد أنه لن يكن في ميسور أي شيء أن يمسّ دماملي ، إلا أن يكون نسيماً عذباً .

ورنت اليه إحدى الفتاتين من رأس المائدة فتكلّف ابتسامة واحمرّ وجهه ، وكانوا يرددون أن الاسبان لا يعرفون كيف يسوقون الدراجة .

وشربت القهوة على السطيحة مع مدرّب فريق معمل كبير للدراجات . فذكر لي أن السباق كان ممتعاً جداً ، وأنه كان حقيقاً أن يرافق لمتابعة مشاهدته ، لو لم ينسحب «بوتيشيا» في (بامبلونه) . لقد كان الغبار هناك مقيتاً ، وإن كانت الطرق في اسبانيا هي أفضل من الطرق في فرنسا . وقال إن سباق الدراجات هو الرياضة الوحيدة في العالم ، ثم سألني فيما إذا كنت قد تتبعت سباق دوره فرنسا ؟ فأجبت : في الصحف ليس غير . فقال ، إن سباق دورة فرنسا هو أكبر حدث رياضي في العالم ، وقد تيسر له ، بتنظيمه مباريات سباق الدراجات ومرافقتها أن يتعرّف أرض فرنسا ، إن فئة قليلة من الناس تعرف أرض فرنسا كلّها ، وهو يقضي الربيع كله ، والصيف كله ، والخريف كله

على الطرق مع متسابقى الدراجات . انظر ، الآن ، الى عدد أصحاب السيارات الذين يتبعون متسابقى الدراجات ، من بلد الى بلد ، خلال السباق . إنها لبلاد غنية ، وإنها لتشبع بالروح الرياضية عاماً بعد عام ، وذلك بفضل مباريات سباق الدراجات . . بفضلها وبفضل كرة القدم أيضاً . إنه يعرف أرض فرنسا جيداً يعرف La France Sportive^(١) ، كما يعرف سباق الدراجات ، وشربنا شيئاً من الكونياك . ومهما كان الحال فليست العودة الى باريس شيئاً غير مستحب . لا يوجد في العالم سوى (باناما) واحدة ، وهكذا ، فإن باريس هي أعظم بلد رياضي في العالم . هل عرفت (لاشوب دونيغر) ؟ كلا . كم أود أن أراه يوماً ما . أود ذلك طبعاً ، كم أود لو شربت قدحاً آخر معاً ، أود ذلك طبعاً . إن عليهم أن يرحلوا في الساعة السادسة والرابع صباحاً ، هل سأنهض لمشاهدة مغادرتهم ؟ - سأحاول ذلك طبعاً - هل أرغب في أن يوقظني هو ؟ إن مشاهدة ذلك لشيء مشوق جداً - سوف أطلب الى مكتب الفندق أن يوقظني - ولكن ليس لديه هو مانع من إيقاظي - لا أريد أن يتحمل هذا العناء ، سوف أطلب الى مكتب الفندق أن يوقظني . وتبادلنا جملة (الى اللقاء) الى صباح اليوم التالي .

ولمّا استيقظت في الصباح ، كان المشتركون في سباق الدراجات وقافلة السيارات المرافقة لهم قد اتخذوا أدراجهم في الطريق ، منذ ثلاث ساعات . وشربت قهوتي ، وقرأت الجرائد في سريري ثم ارتديت ثيابي وأخذت المايوه . . ونزلت الى الشاطئ .

كان كل شيء رطيباً بارداً ندياً عند متوع الصباح الباكر ، وثمة مربيّات يرتدين ثياباً متجانسة وثياباً ريفية يسرن مع أطفال في ظل أغصان الأشجار ، وكان الأطفال الاسبان غاية في الجمال .

كان بعض ماسحي الأحذية يتحدثون جالسين في فيء شجرة مع جندي ،

(١) وردت في النص بالاسبانية . أي فرنسا الرياضية . (المعرب)

وكان للجندي ذراع واحدة . وكان المد مرتفعاً ، وهبّ هواء عنيف ، وجعلت الأمواج تتكسر على الشاطئ .

ونضوت ثيابي في إحدى الحجيرات ، وجزت مسافة ضيقة رملية ثم غطست في الماء سابحاً في المدى المنفسح أمامي ، محاولاً أن أسبح بين الأرمات ، مضطراً الى الغوص أحياناً ، ولما وصلت الى الماء الهادئ عدت عائماً . لم أكن أرى وأنا أعوم سوى السماء ، وشعرت بتلاطم الموج يرفعني وينخفض بي . ورجعت سابحاً الى الشط تحملني موجة . ولازمت الشط وأنا منبطح فوق رمث كبير ، ثم عدت الى السباحة ، محاولاً أن اسبح بين الأرمات ومحاذراً أن يتكسر الموج عليّ ، وارهقتني سباحتي على هذا النحو فعدت واتجهت نحو الرمث . كان الماء رطباً لطيفاً ، وخامرني شعور بأن الغرق ثمة مستحيل ، وسبحت متمهلاً ، وبدا لي أن السباحة ستطول مع ذلك المد المرتفع . وعلوت الرمث وجلست والماء يقطر مني ، على خشب الرمث الذي أضحى دافئاً تحت أشعة الشمس ، وسرحت بصري في الخليج ، في المدينة القديمة ، في الكازينو ، في صف الأشجار الممتد على حيد شارع المنتزه ، وفي الفنادق الكبيرة بأروقتها وأسماؤها الكبيرة المخطوطة بأحرف مذهبة .

كانت تنتصب الى اليمين ، بعيداً ، ربوة خضراء ذات قصر كبير توشك أن تغلق الميناء . وكان الرمث يتأرجح على نغم الماء . والى الطرف الآخر من الفجوة الضيقة المنفتحة على منفسح البحر ، كانت تتبدى هضبة مرتفعة . وفكرت في أن أجتاز الخليج ، لكنني خشيت أن أصاب بالتشنج . كنت أراق السابحين على الشط وأنا جالس أنعم بالشمس ، وكانوا يتراءون لي من بعيد صغاراً . وبعد هنيهة ، نهضت ووقفت ، متمسكاً بإبهامي رجلي بطرف الرمث ، فيما كان يتطامن مائلاً تحت ثقل جسمي ، ثم غصت في الماء عميقاً ، لأطفو فيما بعد على الماء المضيء . ونفضت الماء المالح من رأسي ثم سبحت في تودة وانتظام نحو الشط .

وعدت الى الفندق بعد أن لبست ودفعت أجرة حجيـرة الحمّام . وكان
المشتركون في سباق الدراجات قد تركوا بضعة أعداد من مجلة (السيارة) ،
فجمعتها من ردهة القراءة وأخذتها وخرجت لأجلس على مقعد مريح ، تحت
أشعة الشمس لأتصفحها وأطلع على الحياة الرياضية في فرنسا .

وفيما كنت أقرأ تقدّم مني البواب وفي يده ظرف أزرق ، وقال :
- برقية لك ، ياسيدي .

وأمررت اصبعي تحت الطية التي تغلفها وفتحتها وقرأت ، فإذا بها رسالة
اليّ ، متابعة من (باريس) :

« هل تستطيع المجيء لفندق مونتونا - مدريد - أنا في ضيق » .

« بريت »

ونقدت البواب منحة صغيرة وأعدت قراءة البرقية . وكان هناك موزع
بريد يذرع الرصيف... ودخل الفندق ، وكان ذا شاربين ضخمين وهيئة
عسكرية ثم خرج من الفندق والبواب يتبعه .

- توجد برقية أخرى لك ياسيدي .

وقلت :

- شكراً .

وفتحها ، فوجدتها رسالة اليّ ، متابعة من (بامبيلونه) :

« هل تستطيع المجيء لفندق مونتانا - مدريد - أنا في ضيق » .

« بريت »

كان البواب لا يزال واقفاً ينتظر منحة جديدة ، على الأرجح ، وسألته :

- في أي وقت يوجد قطار مسافر الى مدريد ؟

- لقد سافر قطار هذا الصباح في الساعة التاسعة ، وهناك القطار البطيء في

الساعة الحادية عشرة ، والقطار السريع الجنوبي في الساعة العاشرة مساءً .

- احجز لي محلاً ذا مضجع في القطار السريع الجنوبي . أتريد نقود

حالاً ؟

فقال :

- كما تشاء . إذا رغبت وضعته ضمن قائمة حساب الفندق .
- فليكن ذلك .

وبعد... فمعنى هذا ، أن إقامتي في (سان سيباستيان) قد ولّت وهوت الى الجحيم . وأحسب أنني توقعت بصورة غامضة شيئاً من هذا القبيل . ورأيت البوّاب واقفاً أمام الباب وقلت له :

- إيت لي ، من فضلك بورقة نموذج برقية .
- واحضرها لي وسحبت قلم المحبر وكتبت :
- « لادي اشلي - فندق مونتانا - مدريد - سأصل بالقطار السريع غداً - مع محبّتي » .

« جاك »

وبدا لي أن الأمور تسوّى كذلك ، وتتم هكذا : بأن ترسل فتاة مع رجل فتتعرّف على آخر لتهرب معه . ويتعيّن عليك ، الآن ، بأن تذهب لتعود بها ، ثمّ تختم برقيّتك بما يلي : مع محبّتي ، حسن جداً... ومضيت لأتغدى . ولم أغف كثيراً في القطار السريع ، ليلتي تلك . وتناولت الفطور ، صباحاً في عربة الطعام ، وجلست أنظر الى تلك المنطقة الصخرية الصنوبرية الممتدة بين (آفيل) و(الاسكوريال) .

ورأيت جبل (الاسكوريال) من النافذة رمادياً مرتفعاً بارداً تحت أشعة الشمس ، ولم أوله أي تطّلع . كما رأيت مدريد تشرّب من السهل ظلاً أبيض متراصاً قائماً فوق ربوة صغيرة ، في المدى البعيد ، عبر أرض مشمسة مخشوشنة .

إنّ المحطة الشمالية في (مدريد) هي نهاية الخط الحديدي ، فكل القطر تتراخى اليها ولا تتجاوزها أبداً .

وكانت تقف خارج المحطة ، عربات وسيارات تاكسي وصفوف من رسل الفندق .

وبدت لي المدينة أشبه بمدن الريف... وركبت سيارة تاكسي صعدت بنا عبر الحدائق . ومرّت بالقصر الخالي وبالكنييسة التي لم يتم بناؤها الى جانب الهضبة . ثمّ تابعنا السير حتّى وصلنا الى المدينة الجديدة ، العالية الحارة ، ومن شارع معبد مليس ، دلفت السيارة الى (البوير تاديل سول) واجتازت زحمة الطريق وانتهت الى (كاريرا سان جيرونيمو) . وكانت المخازن كلّها قد أسدلت مظلاتها بسبب الحر ، وكانت النوافذ في الجهة المشمسة من الشارع مغلقة . وتوقّفت السيارة على حيد الرصيف ، ورأيت لوحة (فندق موتتانا) على الدور الثاني . وحمل سائق سيارة التاكسي الحقائب ووضعها الى جانب المصعد ، غير أنّي لم أستطع أن أسيّر المصعد ، فارتقيت الدرج . وفي الدور الثاني رأيت لوحة نحاسية نقش عليها : (موتتانا) ورننت الجرس فلم يقبل أحد الى الباب وعادوت الرنين ، ففتحت الباب خادم ذات وجه نكد ، وسألته :

- أ تكون الليدي «أشلي» هنا ؟

ورشقتني بنظرة بلهاء ، وسألت أيضاً ؟

- أ توجد هنا سيّدة انكليزية ؟

واستدارت ثمّ نادت شخصاً ، فأقبلت امرأة ضخمة الى الباب . كان شعرها شائباً مدهوناً بالزيت الغزير ، وأحاط وجهها ما يشبه المروحة المصدّقة ، وكانت قمينة ذات مظهر آمر ، قلت :

Muy Buenos^(١) توجد هنا سيّدة انكليزية ، أود أن أقابل هذه السيّدة

الانكليزية .

- Muy Buenos ، أجل توجد هنا سيّدة انكليزية ، من المؤكّد أنّك

تستطيع أن تراها إذا رغبت في ذلك .

- إنها ترغب في الإجتماع اليّ .

(١) وردت بالاسبانية في النص ومعناها . حسن جداً .

- سوف تسألها الوصيفة .

- الحر شديد جداً .

- الحر شديد جداً في (مدريد) ، صيفاً .

- وما أشد البرد في الشتاء .

تري أكنت أود أن أنزل فندق (موتانا) ؟ الى تلك اللحظة لم أستقر على رأي ، غير أنني وددت أن تنقل حقائبى من الدور الأرضي لئلا تكون معرضة للسرقة . لم تكن قد حصلت من قبل ، أيما سرقة في فندق (موتانا) ، أما في بقية الفنادق فنعم . هنا ، لا .

إن نزلنا هذا الفندق هم من الصفوة المختارة في عناية ، وكنت مسروراً أن أعلم ذلك ، بيد أنني وددت مع هذا أن تنقل حقائبى الى عل .
وعادت الخادم فقالت إن السيدة تود أن ترى السيد الانكليزي الآن ، فوراً .

وقلت :

- حسناً ، رأييت ؟ كما قلت لك ذلك .

- طبعاً .

وتبعت الخادم في رواق طويل معتمّ نقرت في نهايته على الباب ، وقالت «بريت» :

- هالو ، أنت «جاك» ؟

- أنا نفسي .

- ادخل ، ادخل .

وفتحت الباب ، واغلقت الخادم خلفي ، كانت «بريت» في السرير ، وكانت قد انتهت ، آنذاك ، من ترجيل شعرها ، وكانت يدها مائزلة ممسكة بالفرشاة . وكانت الغرفة تجلو منظر الفوضى الذي يبعثه فقط أولئك الذين ألفوا أن يكون لديهم خدم دوماً .

وقالت «بريت» :

- يا حبيبي .

وخففت الى السرير وطوّقتها بذراعي ، فقبّلني ، وفيما كانت تقبّلني استطعت أن أشعر بأنها كانت تفكّر في شيء آخر ، كانت ترتجف بين ذراعي ، وأحسست بها صغيرة جداً .

- حبيبي ، لقد مرّ عليّ وقت كالجحيم .

- اذكري لي ما بك ؟

- ليس ثمة شيء جدير بأن أذكره ، لقد غادرني البارحة فحسب ، لقد حملته أنا على الذهاب .

- ولمّ لم تستبقيه ؟

- لأدري ، إن هذا لشيء لا يمكن أن يحدث ، وأحسب أنني لم أسئ إليه .

- على الأرجح ، إنك ، بهذا أحسنت إليه .

- ليس هو جديراً بأن يعيش مع أيما إنسان ، تبين لي ذلك فيما بعد .
- لا ؟

- اوه يالللجحيم! دعني من التحدّث بذلك منذ الآن ، لنمسك عن التحدّث بذلك دوماً .

- كما تشائين .

- كانت صدمة لي حين ألفت أنه يشعر بالخجل والمهانة حين أكون معه ؟ كان يشعر بالمهانة ، أمدأ غير يسير .
- لا .

- اوه ، بلى كانوا يركبونه بالهزء في المقهى . لقد أحسست بذلك . وقد طلب اليّ أن أترك شعري يطول ، أن أبدو أنا بشعر طويل! إنه القبح الجهنمي بعينه .

- إنه لشيء مضحك .

- قال إن هذا يكسبني مزيداً من مظهر الأنوثة ، لعلّي أن أبدو به مخيفة .

- وماذا جرى بعد ذلك ؟

- اوه ، لقد اذعن ، ولم يعد يشعر بالمهانة فترة طويلة .

- وما أمر هذا الضيق الذي ألم بك ؟

- لم أكن أعلم ما إذا كان في مقدوري أن أحمله على السفر . ولم يكن

لدي دائق واحد ، لأستطيع السفر وأتركه . أتدري ؟ لقد حاول أن يعطيني قدرأ

كبيرأ من المال ، ولكنني قلت له : إن لدي أكوامأ من المال ، كان يعلم جيدأ

أن ذلك كذب ، أتدري ؟ لم يكن في مكنتي أن أقبل منه مالأ .

- لا .

- اوه ، دعنا من التحدث بهذا بعد الآن ، ومع ذلك ، فقد جرت بعض

الحوادث المضحكة... أعطني سيكارة .

وأشعلت السيكارة .

- لقد تعلم اللغة الانكليزية حين كان يعمل نادل مقهى في جبل طارق .

- بلى .

- كان يريد الزواج بي ، في النهاية .

- حقأ ؟

- طبعأ أنا لا أقدر على الزواج حتى بمايك .

- لعله كان يعتقد بأنه قد يصبح ، إذا تزوجك ، لورد «اشلي» .

- لا لم يكن الأمر كذلك . كان يريد الزواج بي حقأ ، وكان يقول إنه

يريد ذلك لئلا يكون في ميسوري أن أهجره . كان يريد أن يستوثق من أنني

لن أتركه قط ، بعد أن أصبحت طبعأ أكثر أنوثة .

- لعلك ان تشعري الآن بأنك خلية البال .

- إنني لكذلك : أشعر أنني في حال جيدة ، الآن . أتدري ؟ لقد طمس

« كون » ذلك اللعين وأودى به .

- حسناً .

- أتدري ؟ لعلني قبلت أن أعيش معه لو لم أعلم بأن ذلك يسيء اليه ، كنا

متفاهمين على نحو عجيب .

- باستثناء مظهرك الشخصي .

- اوه ، لعله أن يألف ذلك .

وأطفأت سيكارتها .

- إن لي أربعة وثلاثين عاماً من العمر ، أنت تعلم ذلك ، ولا أريد أن

أضحي كإحدى العواهر اللاتي يفسدن الفتیان .

- لا .

- لا أريد أن أسلك هذا الطريق ، أشعر بأنني في حال جيدة ، أشعر بأنني

على أحسن حال .

- حسناً .

ونحّت بصرها . وحسبت أنها كانت تبحث عن سيكارتها ، ولكنني

رأيتها تبكي... شعرتُ بأنها كانت تبكي ، كانت ترتعش وتبكي ، وكانت

تتجنب أن تتطّلع إليّ . واحطتها بذراعي .

- لنمسك عن التحدّث بذلك منذ الآن ، أرجوك . دعنا من التحدّث

بذلك .

- يا عزيزتي «بريت» .

- سأعود إلى «مايك» (كان في ميسوري أن أشعر ببكائها فيما كنت

أضمّها) . إنه لطيف جداً ومخيف جداً ، إنه النمط الذي يلائمني تماماً .

ولم تشأ أن ترفع طرفها ، كنت ألامس شعرها ، وكنت أحسّ بأنها لاتني

تبكي ، وقالت :

- لا أريد أن أصبح كإحدى العواهر ، ولكن اوه ، «جاك» أرجوك

لنمسك عن التحدّث بذلك منذ الآن...

وتركنا فندق مونتانا ، ورفضت المرأة التي تدير الفندق أن أسدّد

الحساب ، فقد كان مسدّداً من قبل .

- اوه ، حسناً ، دع ذلك ، لم يعد لهذا أهمية أي أهمية .

ومضينا في سيارة تاكسي الى فندق (بالاس) حيث وضعنا حقائبنا
وعملت على حجز محلين بمضجعين في القطار السريع الجنوبي ، للسفر
مساءً . ودخلنا الى مشرب الفندق لنشرب (كوكتيل) من الأشربة ، وجلسنا
على مقعدين مرتفعين الى جانب المشرب ، فيما كان الساقى (البارمان)
يخضض شراب (المارتيني) في وعاء كبير من النيكل .
وقالت :

- إنها لطيفة ، هذه المجاملة المؤنسة التي يظفر بها المرء دوماً في
الفنادق الكبيرة .

- إن سقاة المشرب (البارمان) وفرسان السباق (الجوكية) هم وحدهم
الذين ظلّوا مهذّبين .

- مهما يكن الفندق مبتذلاً فإن المشرب يظل دوماً لطيفاً .

- إنه لشيء طريف .

- إن سقاة المشرب هم دوماً لطفاء .

وقالت «بريت» :

- أتدري ؟ إن ذلك لحقيقي . إن عمره تسعة عشر عاماً ليس غير ، أليس
هذا مدهشاً ؟

وقرعنا كأسينا اللتين كانتا متجاورتين على الخوان ، وكانتا مغمورتين
برغوة رطبة .

وكان يتقد خارج النافذة المسدلة الستارة ، صيف (مدريد) الحار ،
وقلت لساقى المشرب :

- أود حبة زيتون في كأس (المارتيني) .

- حقاً ياسيدي ، هذه هي حبة كما ترغب .

- شكراً .

- أتدري ؟ كان عليّ أن أطلب أيضاً .

وابتعد ساقى المشرب مسافة تكفي بأن لا يكون في وسعه سماع

حديثنا ، ورشفت «بريت» رشفة صغيرة من كأس (المارتيني) وهي موضوعة على الخوان ، ثم أمسكت بها وأضحت يدها قادرة ، بعض الشيء ، على رفع الكأس ، إثر تلك الرشفة .

- إنه طيب . هذا المشرب لطيف ، أليس كذلك ؟

- إن المشارب كلها لطيفة .

- أتدري ؟ في البدء لم أصدق ذلك ، لقد ولد عام ١٩٠٥ . في هذا الوقت

كنت في المدرسة بباريس ، تصوّر ذلك .

- أي شيء تريد أن أتصوّر ؟

- لا تكن حماراً . قل لي ، هل لك أن تطلب كأساً أخرى الى السيدة .

وقلت للساقى :

- نريد كأسين من (المارتيني) .

- أتريدهما مثل الكأسين السابقتين ياسيدي ؟

وقالت له «بريت» :

- كانتا طيّبتين جداً .

وابتسمت له .

- شكراً ياسيديتي .

وقالت «بريت» :

- حسناً على نخب صحتك .

- على نخب صحتك .

وقالت «بريت» :

- أتدري ؟ إنه لم يعرف قبلي سوى امرأتين ، إنه لم يشغف بشيء ، فيما

عدا الثيران .

- إن لديه منفسحاً كبيراً من الوقت .

- لا أدري ، إنه يعتقد بأنني كنت وحدي المرأة التي أحب . وليس هذا

على الجملة تظاهراً .

- حسناً ، كنت أحسب أنه يتعين عليك ألا تعاودي الحديث عنه .
- كيف أستطيع أن أمنع نفسي من ذلك ؟
- إنه يصدر منك ، عفواً ، إن تحدثت عنه كثيراً .
- اذن سأكتفي بأن أدور حول الموضوع . أتدري يا « جاك » ، أشعر بأنني في حال جيدة على نحو ما .
- ينبغي أن تكوني كذلك .
- أتدري ؟ إن ذلك يجعل المرأة تشعر بأنها على الجملة في حال جيدة ، حين تعتزم أن تكون عاهراً .
- أجل .
- وإنه لشيء نستعيز به عن الإيمان بالله .
- وقلت :
- هناك أناس يؤمنون بالله ، بل هناك كثير من الناس يؤمنون به .
- ولكنه لم يحسن إليّ البتة .
- هلاً تناولنا كأساً أخرى من (المارتيني) ؟
- ومزج لنا الساقى كأسين آخرين من (المارتيني) وصبهما في كأسين نظيفين .
- وسألت « بریت » :
- أين سنتناول طعام الغداء ؟
- كان المشرب رطباً ، وكان في ميسورنا أن نشعر بحرارة الجو في الخارج ، عبر النافذة .
- وسألت « بریت » :
- هنا ؟
- لا يقدم هنا في الفندق طعام جيد (وسألت الساقى) هل تعرف مطعماً اسمه (بوتان) ؟
- أجل ياسيدي ، هل تود أن أكتب لك عنوانه ؟

- شكراً .

وتناولنا الطعام في الدور الأول من مطعم (بوتان) ، وكان من أحسن المطاعم في العالم ، وأكلنا لحم خنوص^(١) مشويّاً ، وشربنا خمر (ريوجا التا) ولم تأكل «بريت» كثيراً ، ولم تكن تأكل كثيراً ، بينما أصبت أنا غداءاً دسماً وشربت ثلاث زجاجات من (ريوجا التا) . وقالت «بريت» :

- كيف تشعر يا «جاك» ؟ ربّاه! أي طعام تستطيع أن تلتهم!
- أشعر أنني في حال جيدة جداً ، هل تريدني شيئاً من المحلى ؟
- اوه ، ربّاه ، كلا .

وكانت تدخن ، وقالت :
- أنت تحب أن تأكل ، أليس كذلك ؟
وقلت :

- أجل ، ثمة أشياء كثيرة أحب أن أقوم بها .
- أي شيء تحب أن تقوم به ؟
- اوه ، أحب القيام بأشياء شتى ، ألا تريدني شيئاً من المحلى ؟
وقالت «بريت» :
- لقد سألتني ذلك من قبل .
وقلت :

- اوه ، حقاً . لنشرب زجاجة أخرى من (ريوجا التا) .
- إنها لذيذة .
وقلت :

- لناخذ زجاجتين .
وأحضرت الزجاجتان ، وسكبت قليلاً في كأسَي وملاّت كأساً لـ
«بريت» ثم أفعمت كأسَي وقرعنا كأسينا ، وقالت «بريت» :

(١) الخنوص : ولد الخنزير .

- على صحتك .

وحسوت كأسى ثم ملأتها ، وأراحت «بريت» يدها على ساعدي
وقالت :

- لاتحاول أن تسكري يا « جاك » . لست في حاجة الى ذلك .

- وكيف تعرفين ؟

وقالت :

- لاتفعل ، كل شيء سينتهي الى خير .

وقلت :

- لست أبغي السكر ، إنني أشرب شيئاً من الخمر وحسب ، إنني أحب
شرب الخمر .

وقالت :

- لاتسكري يا جاك ، لاتسكري!

وقلت :

- هل لك في أن تتنزه بالسيارة ؟ هل تودّين أن نقوم بجولة في المدينة ؟

وقالت «بريت» :

- أجل لم يتيسر لي أن أرى (مدريد) ويتعّين عليّ مع هذا ، أن أرى

«مدريد» .

- دعيني أنه شرب هذه الكأس .

وخرجنا الى الشارع ، بعد أن جزنا حجرة الطعام من الدور الأول . وذهب
خادم ليبحت لنا عن سيارة تاكسي .

وقدمت سيارة التاكسي ، مقلة الخادم الواقف على موطنها الجانبي ،
ونقدته منحة صغيرة ، وذكرت للسائق أنني عليه أن يسعى بنا ، وجلست الى
جانب «بريت» . ومضى السائق ، صعداً في الشارع ، وغصت داخل السيارة .
واقتربت «بريت» مني ، وكنا جالسين متدانيين ، وأحطتها بذراعي .
وتشبّثت بي في راحة واطمئنان .

وكان الجو حاراً ومضيئاً ، وكانت البيوت تتراءى ناصعة البياض ، ودرنا حول (غران فيا) .

وقالت «بريت» :

- آه ، يا «جاك» ، لعله كان في ميسورنا أن نكون سعيدين سوية .
وأمامنا ، كان شرطي سوارى بلباس الخاكي ينظّم السير ، ورفع عصاه ،
وتمهّلت سيارة التاكسي فجأة ، وضمت «بريت» بشدة بين ذراعيّ وقلت :
- بلى ، أليس من الممتع أن يفكر المرء في ذلك ؟